ISLAMIC PSYCHOLOGY COLLEGE

مجلة بادر الدولية المحكمة

العدد الثامن – أكتوبر 2025

Issue 8 – October 2025

من محتويات العدد

- مظاهر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعقيدة "صور ونماذج"

  دة. زهراء الشرفي
- إنقاذ التراث من التراث: أجوبة سحنون وأجوبة القرويين أنموذجان

  حسان الخيالي
- أحكام نوازل الوقف زمن الجوائح

  نور الهدى صفر
- التحليل السيميائي في الخطاب الروائي الصوفي – قواعد العشق الأربعون نموذجا

  محمد امفزع
- التّعاون من الكلِّيَّة الخُلُقِيَّة إلى المَلَكة الاجتماعية مطالعة في الذائقة الأخلاقية

  الإسلامية

  د. خالد عبد القدوس
- دور القصة الرقمية التفاعلية في تنمية الإدراك البصري لدى أطفال الرياض

  هاجر حمدي

ISSN : 3023-6231

مجلة بادر الدولية المحكمة

مجلة فصلية محكمة

يدخل ضمن اهتمام مجلة (بادر) كل التخصصات التي تعنى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

مجلــة بــادر

info@journal.padir-der.org

journal.padir-der.org

00905522880846

ISSN :3023-6231

مجلة بادر الدولية المحكمة

مجلة بادر

مجلة فصلية محكمة، تعنى بالبحث العلمي في مجال علم النفس الإسلامي

رئيس التحرير:

د. محمد محمود مصطفى- عميد كلية علم النفس الإسلامي – مصر.

مدير التحرير:

د. يوسف عكراش- وزارة التربية الوطنية - المملكة المغربية

هيئة التحرير:

- د. ماجدة المولا / نائب مدير - كلية علم النفس الإسلامي – تركيا.
- د. علي الصهيل- كلية علم النفس الإسلامي – السعودية.
- د. إيمان عوض - جامعة أم درمان – السودان.
- د. شيماء حسنين- كلية علم النفس الإسلامي – مصر.
- د. منال عبد النعيم – جامعة القاهرة– مصر.

- التدقيق اللغوي: أ. ناجية بشير
- السكرتيرة التنفيذية: أ. نور ترجمان اوغلو
- الإخـراج الفـني: م. عُباد بعلي أوغلو

الهيئة الاستشارية

- بروفيسور عبد الله بن ناجي المخلافي
- بروف داتو د. أنصاري أحمد – رئيس جامعة آسيا – ماليزيا.
- بروف د. محمد عثمان شيخ – رئيس الجامعة الإسلامية – كينيا.
- بروف د. سليمان ديرين – جامعة مرمرة – كلية الإلهيات – تركيا.
- د. حميد أكتشاي – جامعة بندرما 17 أيلول – تركيا
- د. خالد مختار الزمزمي – جامعة هوبكنز – أمريكا
- د. حمدي عبيد – المجلس الاسلامي العالمي للدعوة والإغاثة – مصر.
- د. بخيتة علي - جامعة الخرطوم- السودان
- د. محمد محمود مصطفى- كلية علم النفس الإسلامي – مصر.

مجلة بادر الدولية المحكمة

ISSN :3023-6231

شروط النشر

- أنْ تندرج المادة المرسلة للتحكيم ضمن تخصص المجلة وما يتقاطع معه.
- أنْ يكون البحث أصيلًا، وليس مستلا من عمل سابق أو مبنيًا على أفكار مستهلكة ومبحوثة سابقًا.
- أنْ يلتزمَ الباحث بمواصفات البحث العلمي الأكاديمي، وأنْ يحترمَ قواعد، وضوابط التوثيق والكتابة الخاصة بالمجلة (ينظر موقع المجلة).
- أن يبرز الباحث في مقدمة البحث الإشكالية التي يروم الإجابة عنها مع توضيح وجهة نظره في مقاربتها.
- أنْ تكونَ لغة المادة المرسلة للتحكيم لغة علمية أكاديمية رصينة لا خطأ فيها.
- أنْ تُعتمدَ الدقة والأمانة في الاقتباس والأخذ بالنزاهة في توجيه معاني النصوص ودلالتها.
- يشترط في المادة ألا تكون قد نُشرت إلكترونيًا أو ورقيًا أو مقبولة للنشر أو قدمت إلى أي جهة أخرى.
- أن يتراوح عدد كلمات البحث بين 4000 و8000.
- تقبل المشاركات الفردية والثنائية والجماعية.
- تقبل المجلة قراءات ومراجعات الكتب، والترجمات، والحوارات بما هو متوافق مع ضوابط الكتابة في هذه أنواع.

مجلـــة بـــادر

info@journal.padir-der.org

journal.padir-der.org

ISSN :3023-6231

مجلة بادر الدولية المحكمة

الفهرس

افتتاحية العدد 6

الأبحاث والدراسات:

- مظاهر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعقيدة "صور ونماذج" 9
  دة. زهراء الشرفي
- إنقاذ التراث من التراث: أجوبة سحنون وأجوبة القرويين أنموذجان 19
  حسان الخيالي
- أحكام نوازل الوقف زمن الجوائح 40
  نور الهدى صفر
- التحليل السيميائي في الخطاب الروائي الصوفي – قواعد العشق الأربعون نموذجا – 72
  محمد امفزع
- التكامل المعرفي بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية: البحث في الأصول 84
  رشيد ابن احساين
- التّعاون من الكلِّيَّة الخُلُقِيَّة إلى المَلَكة الاجتماعية مطالعة في الذائقة الأخلاقية الإسلامية 102
  د. خالد عبد القدوس
- مُوجهات بيداغوجية وديداكتيكية لتجاوز صعوبات تدريس السورة القرآنية تأملات في تدريسية القرآن الكريم 124
  د. خالد البورقادي
- دور الفنون التشكيلية في تنمية التعبير عن الأحداث: رسومات الأطفال الخجولين 146
  فداء المسعودي
- دور القصة الرقمية التفاعلية في تنمية الإدراك البصري لدى أطفال الرياض 170
  هاجر حمدي

- الدوافـــع الأمنيـــــة للتعاون السيبراني بين دول البحر الأبيض المتوسط في ظل تصاعد الحروب والجرائم السيبرانية (2020–2025) 185

- La communication au cœur du dispositif de santé : enjeux éthiques et transformations à l'ère du numérique 204
  Houssam AZMANI, Zahra SADIQ
- Variabilité Spatio-Temporelle des Précipitations dans le Bassin Versant de l'Oued Lahdar (Prérif Oriental, Maroc) 215
  Mohamed BENZAHIR

بسم الله الرحمن الرحيم

يشرفنا أن نقدم للقارئ الكريم هذا العدد الثامن من مجلتنا، الذي يمثل مرحلة مفصلية في مسارها العلمي والفكري؛ فقد كانت المجلة، ومنذ بداية إصدارها، منصة متخصصة في **علم النفس الإسلامي وفق رؤية الكلية**، مع التركيز على دراسة الظواهر النفسية والسلوكية في سياق الإرث الإسلامي مع الوعي بالمنتجات المعرفية الحديثة، بهدف فهم الإنسان وعلاقته بربه ثم بنفسه، وبالمجتمع من منظور علمي متعمق.

واليوم، ومع هذا العدد الثامن، نعلن عن تطور المجلة إلى **منصة علمية أوسع وأشمل، تعنى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية** بكل تنوعاتها وتخصصاتها.

هذا التحول ليس مجرد تغيير شكلي، بل يعكس **رؤية استراتيجية واضحة** لتوسيع آفاق البحث العلمي، وفتح المجال أمام موضوعات متعددة تتجاوز الدراسات النفسية لتشمل: الفلسفة، الاجتماع، التربية، الأدب، الفنون، والقانون، وغيرها من ميادين البحث الإنساني والاجتماعي.

والهدف من هذا التطور هو **تقديم المجلة كمنصة متكاملة للباحثين**، تعزز الحوار التكاملي والنقدي بين التخصصات، وتتيح استكشاف القضايا الإنسانية والاجتماعية في أبعادها النظرية والتطبيقية، المعاصرة والأصيلة.

كما يسعى هذا التوسع إلى **تلبية احتياجات الباحثين والمشتغلين بالعلوم الإنسانية والاجتماعية**، من خلال تقديم محتوى متنوع وعميق يمزج بين الأصالة العلمية والتجديد الفكري، ويتيح للقارئ فهم الظواهر الإنسانية والاجتماعية من منظور شمولي ومتعدد الأبعاد.

وإن هذا التحول يعكس التزامنا بتوسيع دائرة المعرفة، وتعزيز **إسهام المجلة في إثراء البحث العلمي**، ليكون هذا العدد بمثابة نقطة انطلاق نحو آفاق جديدة، وتجربة معرفية غنية تلتقي فيها الأصالة مع الحداثة، والنظري مع التطبيقي، والبحث الأكاديمي مع خدمة المجتمع والباحثين على حد سواء.

أما محتويات هذا العدد الثامن، الذي يمثل عتبة التحول الكبير للمجلة من منصة متخصصة في علم النفس الإسلامي إلى فضاء أوسع للعلوم الإنسانية والاجتماعية، فقد احتوت على مجموعة من الأعمال البحثية المتميزة التي تعكس هذا التوسع في الاهتمامات والمنهجيات.

هذه الأعمال لم تقتصر على تقديم موضوعات جديدة فحسب، بل سعت أيضًا إلى توسيع دائرة الحوار العلمي بين التخصصات المختلفة، وتعزيز التفاعل بين النظرية والتطبيق، والأصالة والمعاصرة.

وإن هذه المجموعة البحثية تمثل نموذجًا لما نصبو إليه في مجلتنا: منصة تتيح للباحثين استكشاف القضايا الإنسانية والاجتماعية من زوايا متعددة، وفهم الظواهر الفكرية والثقافية والتربوية والفنية بعمق وشمولية .ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن هذا العدد يشكل نقطة تحول نوعية في مسار المجلة، ويمثل خطوة مهمة نحو خدمة أوسع للباحثين والمشتغلين بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

أ.د. محمد محمود مصطفى

عميد كلية علم النفس الإسلامي

مظاهر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعقيدة
"صورونماذج"

دة. زهراء الشرفي
[1] باحثة في الفكر الإسلامي

مقدمة

تُعَدّ العقيدة الإسلامية الركيزة الأساس التي يقوم عليها الدين، والمقوم الجوهري الذي يوجِّه فكر الإنسان وسلوكه في الحياة. فهي الإطار المرجعي الذي تنبثق منه تصورات المسلم عن الكون والحياة والإنسان، وهي التي تحدد علاقته بخالقه، وبنفسه، وبالآخرين. ومن ثَمَّ، فإن بناء العقيدة الصافية في نفوس الأفراد يُعَدّ من أهم مقاصد الرسالة الإسلامية، إذ بها يتحقق التوازن الداخلي، والاستقرار النفسي، والانسجام الاجتماعي، بما ينعكس إيجابًا على حياة الفرد والمجتمع على حدٍّ سواء.

لقد كانت **العقيدة** في مقدمة أولويات النبي محمد صلى الله عليه وسلم منذ اللحظة الأولى للبعثة، فهي الأساس الذي تقوم عليه بقية أركان الدين، والمحرّك الرئيس لكل عمل صالح. ولهذا ركزت الدعوة النبوية في مرحلتها المكية على غرس الإيمان بالله وتوحيده، وتنقية النفوس من شوائب الشرك والجهل، قبل أن تنتقل إلى مرحلة التشريع والتنظيم في المدينة المنوّرة. فقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن إقامة مجتمعٍ مسلمٍ متماسك لا يمكن أن يتحقق إلا على أساس عقدي راسخ، يؤمن أفراده بالله إيمانًا صادقًا، ويدركون مسؤوليتهم في عمارة الأرض وإقامة العدل فيها.

وفي المرحلة المدنية، واصل النبي صلى الله عليه وسلم مشروعه التربوي العقدي، لكن في سياقٍ أكثر شمولًا واتساعًا، حيث أصبح المجتمع الإسلامي حقيقة قائمة تحتاج إلى ترسيخ قيم الأمن، والوحدة، والتكافل،

والعدل. فجعل العقيدة محورًا تنطلق منه التشريعات، ومصدرًا تنبثق منه القيم الأخلاقية والاجتماعية. فكل عبادة أو معاملة أو نظام في الدولة الإسلامية كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالإيمان، بحيث تتجسد العقيدة في واقع الحياة، لا تبقى مجرد تصورات ذهنية أو شعائر شكلية.

لقد أثبتت التجربة النبوية أن **الأمن بمختلف أنواعه** –النفسي، والفكري، والاجتماعي، والسياسي – لا يتحقق إلا من خلال العقيدة السليمة. فالإيمان الحق يولد في النفس الطمأنينة والسكينة، ويجعل الفرد متزنًا في سلوكه، متعاونًا مع مجتمعه، منفتحًا على الآخر دون خوف أو عدوان. كما أن المجتمع المؤمن بعقيدته، المتشبث بقيمه الروحية، يكون أقدر على مواجهة الفتن، وضبط التناقضات، وصيانة تماسكه الداخلي. ومن هنا، فإن العقيدة ليست مجرد مسألة دينية بحتة، بل هي عنصر استراتيجي في تحقيق الأمن الشامل، والاستقرار الاجتماعي، والتنمية الإنسانية.

وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على غرس هذه الحقيقة في نفوس أصحابه وأمته، من خلال الجمع بين **العقيدة والسلوك**، وبين **الإيمان والعمل**، حتى تكون الشعائر الدينية والمعاملات اليومية انعكاسًا لعقيدةٍ حيةٍ في القلوب. فكانت رسالته صلى الله عليه وسلم تهدف إلى تحرير الإنسان من عبودية الهوى والمادة إلى عبودية الله وحده، ليصبح مؤمنًا حرًّا، واثقًا، مسؤولًا، يسهم في بناء مجتمع تسوده الرحمة، والعدل، والأمن، والسلام.

إن دراسة أثر العقيدة في تحقيق الأمن المجتمعي تكتسب راهنيتها وأهميتها في ظل ما يشهده العالم المعاصر من اضطرابات فكرية، ونزاعات اجتماعية، وتحديات قيمية تهدد تماسك الأفراد والمجتمعات. ومن هنا تأتي ضرورة العودة إلى **المنهج النبوي** في بناء العقيدة، باعتباره نموذجًا ربانيًّا متكاملًا يجمع بين الإيمان والعقل، وبين العبادة والعمران، وبين الأمن الداخلي والسلم الاجتماعي.

وانطلاقًا من أهمية العقيدة في بناء الفرد والمجتمع، وتأسيس المنظومة القيمية التي توجه السلوك الإنساني، تبرز الإشكالية التي سأحاول مقاربتها من خلال هذه الورقة البحثية، والمتمثلة في التساؤل المركزي الآتي:

ما مظاهر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعقيدة، وما هي انعكاساتها على المجتمع؟

تنبع هذه الإشكالية من الحاجة إلى فهم أعمق للمنهج النبوي في التعامل مع العقيدة، لا بوصفها مفهوماً لاهوتياً مجرداً، بل باعتبارها مشروعاً حضارياً يهدف إلى بناء الإنسان المؤمن المتوازن، وتأسيس مجتمع يسوده الأمن والإيمان، ويُبنى على قيم الرحمة والعدل واليقين. فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بتلقين المبادئ العقدية نظرياً، بل جسّدها عملياً في سلوكه وتعاملاته، فكانت العقيدة حاضرة في كل مجالات الحياة، من العبادة والمعاملة، إلى السياسة والاجتماع، والتربية، والإصلاح.

إنّ دراسة مظاهر هذا الاهتمام النبوي بالعقيدة تكشف عن رؤية متكاملة للإيمان، تربط بين ما وقر في القلب وصدّقه العمل، وتجعل من العقيدة مصدر قوة روحية وأخلاقية تساهم في تحقيق تماسك المجتمع واستقراره. كما أن تحليل انعكاساتها الاجتماعية والنفسية يُبرز كيف أسهمت العقيدة في تحويل مجتمعٍ كان يعيش في فوضى فكرية وقيمية إلى مجتمعٍ موحّدٍ متماسكٍ تسوده السكينة والطمأنينة.

ولمقاربة هذه الإشكالية بشكل علمي ومنهجي، قُسِّم هذا البحث إلى محورين رئيسيين: **المحور الأول** :مظاهر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعقيدة من خلال غرسه وحدانية الله في القلوب، إذ شكّل التوحيد الأساس العقدي الذي انطلقت منه الدعوة، وأساس البناء الإيماني للأمة. **المحور الثاني** :مظاهر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعقيدة من خلال تبيانه مفهوم الإيمان الصحيح، بما يتضمنه من قيمٍ وسلوكياتٍ تُجسِّد الإيمان في الواقع، وتؤدي إلى ترسيخ الاستقرار والأمن الاجتماعي.

1-مظاهر اهتمامه صلى الله عليه وسلم بالعقيدة من خلال غرس وحدانية الله في القلوب:

مما لا غبار عليه أن الرسول صلى الله عليه وسلم اهتم بزرع العقيدة داخل المجتمع، واستمر صلى الله عليه وسلم طيلة الفترة المكية " **يدعو إلى الله، ويتلطّف في عرض الإسلام، ويكشف النقاب عن مخازي الوثنية**، "[1]بإعلانه وحدانية الله تعالى. وفي الفترة المدنية واصل الدعوة الى هذه الوحدانية، والروايات المروية على الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المجال كثيرة اذكر منها ما يلي:

أنه صلى الله عليه وسلم حينما ارسل معاذ الى اليمن قال له **"إِنَّكَ سَتَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أهل الْكتاب، يسئلونك مَا مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ، فَقُلْ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**، "2. **ومن القصص التي تعبرلنا عن اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الوحدانية** قوله لأحد الصحابة كما ذكر ابن هشام **"لْيَكُنْ دَعَوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللَّهِ، وَدَعَا إِلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ فَلْيُقْطَفُوا :بِالسَّيْفِ، حَتَّى تَكُونَ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ"**[3].

إن المتأمل في الاثر الذي تجلى في القلوب من خلال اهتمامه صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة يلحظ:

- أنها أدت الى توحيد الالوهية والربوبية تم توحيد الوجهة وتوحيد العقيدة وهذا نتج عنه : تنقية للعقول من جميع مظاهر الشرك ومن تعدد الآلهة، وفي هذا السياق يؤكد محمد الغزالي ا هذا الأمر بقوله أن " **الحجارة التي يعبدها العرب، أصبحت لا تزيد عن الحجارة التي تبنى بها البيوت، أوترصف بها الطّرق"**[4].

مما أدى الى تحقيق امن ديني، وروحي.

---

[1] فقه السيرة محمد الغزالي، دار القلم، ط 4،1409هـ، ج ص 105.

[2] سيرة ابن هشام ج 2ص 590.

[3] سيرة ابن هشام ج 2ص 595.

[4] فقه السيرة محمد الغزالي ج1 ص100.

- أن العقيدة وحدت العقول والقلوب والأنفس كما أنها وحدت الشعوب والقبائل والحضارات نتيجة اقرار مبدأ التعارف والوحدة والمساواة بين الناس وعدم التفريق بينهم إلا بالتقوى. ذلك لأن العقيدة التي غرسها الرسول صلى الله عليه في نفوس المسلمين هيأت الظروف للتعارف بين الشعوب ولنشر الدعوة الاسلامية ولاستمرار الفتوحات الاسلامية من بعده. وإشاعة الاخوة بين المهاجرين والانصار **"كانت العقيدة الاسلامية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى هي العمود الفقري للمؤاخاة التي حدثت، لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون اعتبار لأي فارق ، الا فارق التقوى"**[5]

ومن جهة أخرى، لم تكن العقيدة في المنهج النبوي مجرد مبادئ إيمانية تُحفظ في الصدور أو شعائر تُمارس في العبادات، بل كانت قوة دافعة ومحرِّكًا أساسيًّا للمواقف والسلوك في مختلف مجالات الحياة، سواء في السلم أو في الحرب. فقد كان للإيمان العميق أثرٌ بالغ في توجيه مواقف الصحابة رضي الله عنهم، إذ انبعثت من قلوبهم طاقة إيمانية صادقة جعلتهم يقدمون أعظم صور التضحية في سبيل الله تعالى، نصرةً لدينه ورسوله صلى الله عليه وسلم.

لقد شكّلت العقيدة منبعًا للشجاعة والثبات، ومصدرًا للعطاء والفداء، حيث تجاوز الصحابة حبّ الذات ومتاع الدنيا الزائل، ليقدّموا أموالهم وأنفسهم طواعية في سبيل نصرة الحق. فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يُنفق ماله كلَّه في سبيل الله، لا يبتغي بذلك جزاءً ولا شكورًا إلا وجه الله، وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينفق نصف ماله، في مشهدٍ يُجسّد عمق الإيمان وصدق الولاء للعقيدة. كما كان العديد من الصحابة يتمنّون لقاء العدو في ميادين الجهاد، رغبةً في الشهادة ونيل رضوان الله، وإعلاءً لكلمة الدين، حتى صار حبّ الاستشهاد في سبيل الله مظهرًا من مظاهر الإيمان الصادق.

---

[5] السيرة النبوية عرض أحداث وتحليل وقائع د/علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، ط 7، 2014م، ص 444-443

إن هذه المواقف البطولية لم تكن وليدة حماسةٍ آنيةٍ أو انفعالٍ عابر، بل كانت ثمرةً طبيعيةً لعقيدةٍ راسخةٍ في القلوب، غرسها النبي صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابه، حتى أصبحت موجِّهًا لكل تصرفاتهم ومواقفهم، في السلم كما في الحرب، وفي الرخاء كما في الشدة. وبهذا، تحولت العقيدة من مفهومٍ غيبيّ إلى واقعٍ ملموسٍ أثمر مجتمعًا مؤمنًا متماسكًا، تسوده روح التضحية والإيثار، ويستمد قوته من الإيمان الصادق بالله تعالى.

ومن جهة ثالثة بفضل العقيدة التي زرعها الرسول صلى الله عليه وسلم في النفوس تحمل المسلمون أدى المشركين داخل مكة، حيث كانوا " **يَحْبِسُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ**"،[6] وفيما يلي بعض الصور التي تعكس مظاهر تأثير العقيدة على قلوب المسلمين.

قصة بلال : فكما ذكر ابن اسحاق في سيرته أن نوفل كان يمر به " **وهو يعذب على الاسلام، وهو يقول أحد، أحد، فيقول ورقة: أحد، أحد والله يا بلال لن تفنى**"[7]، وفي نفس السياق نجد ابن هشام يصف لنا شدة الأذى الذي كان يتعرض له من أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفِ بْنِ وَهْبِ الذي كان يُخْرِجُهُ "**إِذَا حَمِيَتْ الظَّهِيرَةُ، فَيَطْرَحَهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بالصّخرة الْعَظِيمَة فتتوضع عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: (لَا وَاَللَّهِ) لَا تَزَالُ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، وَتَعْبُدَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ: أَحَدٌ أَحَدٌ**."[8]

ومن ههنا يتبين لنا الأثر العظيم الذي أحدثته العقيدة بقلوب المسلمين، فلو لم يكن لهؤلاء الصحابة قلوب مسيجة بعقيدة صافية لما استطاعوا تحمل جميع أنواع التعذيب.

---

[6] سيرة ابن هشام، ج 1 ص 317

[7] سيرة ابن اسحاق، ج 1ص 190

[8] سيرة ابن هشام ج 1 ص 318-317

كما أن العقيدة مكنت الناس من الصبر على مفارقة الأهل والمال والمسكن، وتفضيلهم الهجرة في سبيل الله تعالى، وفي هذا الصدد أذكر بعض تجليات الأمن الروحي ، من خلال ما تعرض اليه الصحابي أَبُو سَلَمَةَ واسرته أثناء هجرتهم من خلال سيرة ابن هشام الذي يقول "**لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بَعِيرَهُ ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ؟ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاَللَّهِ، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا. قَالَتْ :فَتَجَاذَبُوا بَنِي سَلِمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَ انْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَ انْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ .قَالَتْ: فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي.**"[9] وهكذا نسجل مرة أخرى أهمية العقيدة .فلو أن هذا الصحابي لم يكن مشحنا مسبقا بالمعاني السامية للعقيدة لتحمل مثل هذا الأذى أكنا سنراه يواصل هجرته ويترك زوجته التي منعوها من أن تهاجر معه وابنه الذي خلعت يده ؟انها العقيدة الصافية الناتجة عن التربية الروحية النبوية، النابعة من كلمة التوحيد التي انصهرت معها القلوب والعقول وجعلت كل شيء يهون أمام حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

2-مظاهر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالعقيدة من تبيانه مفهوم الايمان الصحيح:

ان المتمعن في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يتبين له أنه بين المعنى الصحيح للإيمان، من خلال مجموعة من الآيات والأحاديث ومن خلال الممارسة الفعلية للإيمان على أرض الواقع؛ وفيما يلي بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

---

[9] سيرة ابن هشام ج 1 ص 469

- عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ**"[10]
- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: "**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**" [11]
- عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**" [12]
- عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**" [13]

إن المتمعن في هذه الأحاديث يتبين له أن الرسول صلى الله عليه وسلم، ربى الناس على روح الجماعة وعلى أن الاسلام لا ينفصل عن روح الجماعة، فهو مرتبط بتحقق مجموعة من القيم الاجتماعية مثل واطعام الناس وافشاء السلام بينهم. الكف عن أدى الناس، ومما ينبغي الاشارة اليه أن ارتباط الايمان بهذه القيم الاجتماعية جعل العقيدة تحقق أمن ديني واجماعي وغذائي ونفسي.

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم نفى صفة الايمان عن الشخص، حتى يحب الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من النفس والمال والولد، وحتى يحب للآخر ما يحبه لنفسه.

---

[10] البخاري كتاب الايمان باب أي الاسلام أأفضل ج1 ص11 رقم 11
[11] البخاري كتاب بَابٌ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الإِسْلاَمِ ج1 ص12 رقم 12
[12] البخاري كتاب الايمان ببَابٌ: حُبُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الإِيمَانِ ج1 ص12 رقم 14
[13] البخاري كتاب لاايمان ببَابٌ: حُبُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الإِيمَانِ ج1 ص12 رقم 14

خلاصة:

وهكذا يتبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم أولى العقيدة اهتمامًا بالغًا، وحرص على إبراز أهميتها في تشكل الإنسان والمجتمع على حد سواء. فقد عمل على غرسها في قلوب أفراد المجتمع، وجعلها متصلةً بوحدانية الله تعالى، ومترابطةً مع الإيمان الصحيح، ومندمجةً مع قيم الجماعة وممارساتها العملية. فقد جسدت العقيدة في عصر النبوة وحدة متكاملة بين الجانب الروحي والجانب الاجتماعي، بين العبادة الفردية والمسؤولية الجماعية، حتى أصبحت قوة دافعة تؤثر في سلوك الإنسان وتوجه المجتمع نحو الخير والاستقرار.

وعند مقارنة هذه الصورة بما هو قائم في الواقع الحالي، يتبين أن العقيدة في كثير من الأحيان أصبحت مجردةً عن الإيمان الصادق، بعيدة عن التطبيق العملي للإسلام الصحيح، بل وابتعدت عن جوهر العبادة وقيمها الأخلاقية والاجتماعية. فقد أصبحت تُمارس أحيانًا بلا روح، وتُذكر غالبًا في سياق الدراسات الكلامية أو المناقشات النظرية، بعيدًا عن تأثيرها في حياة الإنسان اليومية، سواء في علاقاته الاجتماعية أو معاملاته المالية والأخلاقية.

ويرجع هذا الانفصال العقدي عن التطبيق العملي والجانب التعبدي والمعاملاتي إلى عدة عوامل، أبرزها :**سوء فهم الإيمان والإسلام، وعدم الالتزام بالمنهج النبوي الذي رسم أسس غرس العقيدة في القلوب، وربطها بالسلوك والعمل الصالح، وبقيم المجتمع وأخلاقياته.**

ومن هنا، تأتي ضرورة إعادة النظر في الجانب العقدي، والعمل على **إحياء الفهم الصحيح للإيمان والعقيدة**، بحيث يكون حاضرًا في حياة الفرد اليومية، مؤثرًا في سلوكه، ومرشدًا له في معاملاته وأخلاقه. كما ينبغي إعادة النظر في علاقتنا بالإيمان، وإعادة الاعتبار للمنهج النبوي الذي جمع بين العقيدة الصافية والعبادة الصحيحة والممارسات العملية، حتى نستعيد القدرة على بناء مجتمع متماسك، مستقر، ومسؤول، يسوده الأمن، والتوازن، والالتزام بالقيم الإسلامية الأصيلة

إنقاذ التراث من التراث:

أجوبة سحنون وأجوبة القرويين أنموذجان

حسان الخيالي باحث في سلك الدكتوراه

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

بجامعة ابن طفيل القنيطرة-المغرب

مقدمة

عُرف التراث الإسلامي بتنوع مصادره وتعدد مراجعه في مختلف الفنون والعلوم، وتميز الفقه المالكي بوجه خاص بغزارة مؤلفاته الفقهية وسعة دواوينه النوازلية، اكتشف الباحث من خلالها ظاهرة تحذير بعض الفقهاء من كتاب أو كتب لا تقل أهمية متونها، شكلا ومضمونا، عن اجتهادات الفقهاء واختياراتهم، الشيء الذي أثنى العلماء عن الكلام عنها والخوض فيها وبالتالي إقصاؤها من دائرة التراث الفقهي العتيق.

في هذا المقال سوف نتناول قضية التحذير والتجريح الذي تعرض لها كل من كتاب "أجوبة ابن سحنون" و كتاب "أجوبة القرويين" عبر كتاب "نور البصر في شرح المختصر" لأحمد الهلالي السجلماسي مبينين أثر ذلك على سيرورة الفقه النوازلي والأسباب التي كانت وراءه، وما ينبغي أن يكون لإنقاذ التراث بالتراث. وقد تم تناول هذا البحث في مقدمة سبق بسطها وثلاثة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: تحذير نور البصر من أجوبة ابن سحنون وأجوبة القرويين

المطلب الأول: كتاب نور البصر

التعريف بالمؤلّف

هو أحمد بن عبد العزيز بن رشيد بن محمد الهلالي السجلماسي، أبو العباس، من ذرية أبي إسحاق إبراهيم بن هلال: فقيه مالكي، من أعيان العلماء[1]. جده الأكبر إبراهيم بن هلال السجلماسي من العلماء الأجلاء وكان يلقب بباز النوازل[2] .نشأ -رحمه الله- في بيئة علمية وخير دليل على ذلك ما ذكر في مقدمة فهرسته: "أما بعد؛ فإنه لا يخفى أن العلم أشرف ما عني به أولو الألباب، وأطرف ما تنافس ذوو الهمم في العكوف عليه والانكباب، وإن من منن الله علي، وأجل مواهبه لدي، أن شغلني بطلب العلم برهة من عمري، وجبلني على محبته من أول أمري حتى حصلت منه - ولله المنة - على كنز عظيم، وظفرت منه بذخر نفيس كريم..."[3]. ونتيجة نبوغه العلمي فقد برع في شتى أنواع العلوم عقليها ونقليها، فقها وعربية، ومنطقا، وأصولا، وآدابا. ولد رحمه الله تعالى بسجلماسة بتافيلالت سنة (1113ه) وبها بدأ تكوينه العلمي، ثم التحق بفاس وانكب على تحصيل العلم بها حتى كان له فيه شأن عظيم، ثم تولى التدريس بها إلى أن صار من أعلام شيوخ العلم بالحضرة الفاسية[4].

وقد سأل السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد الله العلوي الشيخ أبا حفص الفاسي حين بويع بالخلافة عن أعلم الناس وأعملهم فقال له: "الأحمدون، يعني أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، وأحمد بن عبد الله الغربي الرباطي، وأحمد بن محمد الورزازي... وكان بالمجلس أعيان علماء الحضرة الفاسية كالشيخ التاودي وغيره[5]. حج مرتين وأخذ العلم عن علماء الحجاز ومصر وتوفي -رحمه الله تعالى- بمدغرة تافيلالت سنة (1175ه)[6].

---

[01] الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين الطبعة، الخامسة عشر – ماي2002، ج.1ص.151.

[02] الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم و المشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار الغرب الاسلامي، ط2 1982، ج.2، ص.1099.

[03] الهلالي، أحمد بن عبد العزيز، فهرست بدر سماء العالي، تحقيق رشيد المصلوت الروداني، ط 1981، ص9.

[04] الكتاني، فهرس الفهارس، ج2/1099-1102.

[05] نفسه 1099/2

[06] الأعلام للزركلي، ج151/1.

التعريف بالكتاب

كتاب نور البصر شرح المختصر، كتاب فقهي رام مؤلفه الهلالي-رحمه الله- حل وشرح ألفاظ مختصر العلامة الشيخ خليل، كما هو جلي من خلال عنوانه.

وبالرجوع لسبب تأليفه نجد أن الشيخ الهلالي رأى مباحث وقضايا مشكلة في فقه خليل لم تتناول بالشرح والتحليل، ولم تأخذ حقها في البحث والمناقشة، فهمَّ بوضع شرحه هذا لإزالة غموضها وإثارة مواضيعها وعرضها للنقاش والمذاكرة بين طلبة العلم بأسلوب يشحذ الهمم، ويقوي العزائم، ويبعث القوة في النفوس لتسلق القمم.

يقول في هذا الصدد: «...فاعلم أولا أن هذا المختصر-وإن أكثر الناس عليه الشروح، وأتوا بما يثلج له الصدر وتنشط له الروح، حتى زادت الموضوعات عليه على الستين ما بين شرح وحاشية، وصارت مقاصد الكتاب بمجموعها واضحة فاشية- مازالت فيه مواضع محتاجة إلى البيان، وليس الخبر في ما قلته كالعيان. ثم فيما تداوله الشراح والمدرسون مواضع كثيرة مفتقرة إلى التحرير، وكنت أتمنى له شرحا متوسطا، لا مملا مفرطا ولا مخلا مُفرِّطا، مشتملا على تقريب معانيه، وتحقيق مبانيه، مطابقا في أحكامه للنُّقول، مطبقا لنصوصه على نوازل الوقت، تطبيقا تشهد لصحته العقول»[7].

لقد أعطى الكتاب منهجا واضح المعالم والأركان، في مهارات التأليف لمن يأتي بعده وينشد السير على طريقته في التحليل والتفسير. والكتاب-وإن لم يتمه مؤلفه لمباغتة المنية له- تناول شرح مقدمة خليل وأسهب في قضايا مختلفة ومتنوعة لا يسع لطالب العلم جهلها. وقد جاء في ثنايا شرحه ذكر مراتب المفتين وطبقاتهم، كما عرَّف بمجموعة من أعلام المالكية وذكر ضوابط وأحكام الفتاوى والقول المتفق عليه والمشهور والراجح والضعيف والقول المساوي لمقابله والترجيح بينها حال التعارض، كما عرج على ذكر كتبا حذر العلماء منها، وغير ذلك من القضايا والدرر الفقهية.

المطلب الثاني: تحذير نور البصر من أجوبة ابن سحنون

---

[07] الهلالي، أحمد بن عبد العزيز، نور البصر شرح المختصر، تحقيق أحمد فاضل و الحسين أبو الوقار، وعبد العزيز أيت المكي، طبعة المجلس العلمي بإنزكان ط1،2014، ص.73.

نبذة عن كتاب أجوبة ابن سحنون

يعتبر كتاب" أجوبة ابن سحنون" من أهم الكتب التي ألفت في فقه النوازل، ويظهر من خلال محتوياته أنه يشمل أغلب الموضوعات الفقهية، خاصة فقه المعاوضات والتبرعات والعبادات، مؤلفه هو محمد بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني المعروف بابن سحنون(256ه)[8].

حقق الكتاب في أول الأمر من طرف حامد العلويني، ثم أخرى من طرف الحسن أشفري، وقد أثبت المحققان في قسم الدراسة نسبة الكتاب لمؤلفه، وأن أصل الكتاب أجوبة أجاب بها المؤلف على المسائل التي طرحها عليه تلميذه الفقيه أبو عبد الله محمد بن سالم[9].

النقول عن الكتاب

نقل عن أجوبة ابن سحنون مجموعة من الفقهاء كالقاضي عياض مداركه والفشتالي في وثائقه و الونشريسي في معياره وآخرون ،وعلى سبيل المثال لا الحصر:

1/-الشيخ خليل، الذي نقل عنه في كتاب التوضيح في مواضع كثيرة، وقد عد محقق التوضيح نوازل ابن سحنون ضمن أهم مصادر كتاب التوضيح[10].

2/-الشيخ ابن سهل في نوازله المسماة: "الإعلام بنوازل الأحكام"، وهو كتاب معتمد يعول عليه كثيرون من الحكام وشيوخ الفتوى وكثيرا ما ينقل ابن سهل عن ابن سحنون، فقد جاء في تبصرت الحكام لابن فرحون: «ومن أحكام ابن سهل أيضا قال: وفي نوازل ابن سحنون...»[11]، وجاء في وثائق الفشتالي: «وحكى ابن

---

[8] القاضي عياض، أبو الفضل، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة بالمحمدية، ط أوقاف المغرب، سنة 1983.ج.4، ص.204-219.

[9] ينظر إلى ترجمته مفصلة في كتاب الأجوبة لمحمد بن سحنون بتحقيق حامد العلويني طبعة دار ابن حزم الأولى: ص.21-24.

[10] السافري، محمد المدني، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت بكلية الشريعة بآيت ملول آكادير، تقديم وتحقيق كتاب البيوع من كتاب التوضيح شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي،ج.1، ص.64.

[11] ابن فرحون، إبراهيم شمس الدين محمد، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تحقيق جمال مرعشلي، طبعة دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط2003 .ج.1، ص.96.

سهل عن ابن سحنون عن أبيه وعن ابن المواز أنه إذا أقر للغائب بالدين لا يقتضي بإقراره...»[12]، كما أشار عبد الرفيع التونسي في كتابه "معين الحكام على القضايا والأحكام" أن عيسى بن سهل ينقل عن ابن سحنون في أجوبته[13].

3/-ابن عبد الرفيع التونسي(733ه)، الذي نقل عنه في كتابه: " معين الحكام على القضايا والأحكام" في أكثر من موضع وفي أكثر من مسألة وعلى سبيل المثال لا الحصر: نقل عنه قوله: «لا يجوز نكاح العبد للحرة العربية»[14]، كما عد أجوبة ابن سحنون مصدرا مهما من المصادر التي عول عليها كثيرا في تقرير مسائله، وهذا ظاهر وواضح في فهرس المراجع والمصادر التي ختم بها محقق الكتاب.

4/-داود التملي الجزولي[15]، في "مختصر أمهات الوثائق وما يتعلق بها من العلائق"، وقد أشار محقق هذه الوثائق إلى اعتماد المؤلف على محمد بن سحنون فقال: «أما بخصوص فقه الوثائق فإن المؤلف قد اعتمد في ذلك على مصادر الفقه المالكي... وكتب في نوازل كنوازل ابن سحنون...».

ويتضح أن داود التملي قد نقل حرفيا عن ابن سحنون أغلب الأجوبة التي نقلها في كتابه مصرحا بقوله: «وفي أجوبة سحنون»، ويُذكر منها على سبيل التمثيل فقط:

-في باب الشهادة: نقل أسئلة وأجوبة كثيرة عن ابن سحنون تهم من لا تجوز شهادتهم[16]، ومظاهر التهمة في الشهادة[17].

---

[12] الفشتالي، عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك، وثائق الفشتالي، تحقيق أبي الفضل الدمياطي أحمد بن علي، طبعة مركز التراث الثقافي المغربي بالدار البيضاء، ط1، 2015. ص.81.

[13] ابن عبد الرفيع، إبراهيم بن حسن، معين الحكام على القضايا والأحكام، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط1989.ص. 128.

[14] معين الحكام، ص.168.

[15] هو داود بن محمد بن عبد الحق التملي التَنلي الجزولي الفقيه العالم الموثق، الصالح الزاهد توفي سنة 899ه.. ينظر المعسول:ج6/169، ومناقب الحضيكي:ج1/214.

[16] البوشواري، محمد، مختصر أمهات الوثائق وما يتعلق بها من العلائق - للفقيه سيدي داوود التملي الجزولي(ت899ه(، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، ج.462،2-463.

[17] نفسه، ج.1ص.265-279.

-وفي باب القضاء: نقل أسئلة كثيرة وأجوبتها عن ابن سحنون[18]، ونقل عنه في باب الحيازة والأيمان والضمان وفي الصيد والذكاة، والرعاة والدماء، واللقطة.

7/- ابن شاس في كتابه عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة نقل عنه في أكثر من موضع، وهذا مثال واضح في نقل هذا العالم الجليل من أجوبة ابن سحنون، في الفصل الثاني "وفي وجوه التحمل والأداء" حين قال: «...وهو نفس ما حكاه محمد بن سحنون في أجوبته، قال قلت: أرأيت الشاهد إذا طلب المشهود له بتأدية شهادته إلى موضع تدركه فيه المشقة والتعب، فأعطاه صاحب الشهادة دابة يركبها؟ قال لا بأس بذلك أيضا، ولا يقدح في شهادته.

قال محمد: وأنا أقول لمن كان على مسافة يوم أو أقل من ذلك فلا له أن يأكل طعام صاحب الشهادة، فإن فعل كان ذلك جرحة في شهادته، وإن كانت مسافة يومين أو ثلاثة، فلا بأس أن يأكل طعام صاحب الشهادة»[19].

9-/أبو إسحاق التونسي(433ه) في أجوبته: ذكر الدكتور الحسن أشقري أحد محققي "أجوبة سحنون" من خلال "مجلة المذهب المالكي" العدد الثاني: «وجدت وأنا بصدد البحث في إحدى الخزانات الخاصة مخطوط ضمن مجموع يحتوي على نوازل ابن هلال، وثائق ابن سلمون وأجوبة التونسي، ولما تصفحت هذه النوازل التي لا تتجاوز عدد صفحاتها 56 صفحة، ولم تكن لها مقدمة ولا حتى تاريخ النسخ، وجدته ينقل عن ابن سحنون، وترددت كثيرا هل هذه الأجوبة للتونسي أبي إسحاق؟ وهل له أجوبة فعلا، ولكني أطلعت في المعالم للمالكي أنه قال: " كان فقيها صالحا موصوفا بالفهم مقدما في أجوبته..."، وتبين لي فيما بعد أن هذه الأجوبة التي اطلعت عليها للتونسي فعلا، إذ لها نسخ كثيرة في أقطار سوس، فإنه ينقل عن ابن سحنون، فقد نقل عنه في فصل الصيد والذكاة، ومن أمثلة ذلك قوله: " ومن سؤال محمد بن سالم عن محمد بن سحنون قال: سألت عن من ذبح شاة فأصابه رش دم أيغسله أم لا؟ ونقل عنه في فصل النكاح، ومن أمثلة ذلك قوله: " مسألة لابن سحنون فيمن له على المرأة دين فقالت له تزوجني بذلك

---

[18] نفسه، ج1. ص.280-300.

[19] () ابن شاس، بو محمد جلال الدين عبد الله بن نجم، عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة الجواهر، دراسة وتحقيق حميد بن محمد لحمر، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان
الطبعة: الأولى،2003. ج.3، ص.1052.

الدين...ورضيت بذلك مهرا أنه يجوز". ونقل عنه في فصل الأطعمة، ومن أمثلة ذلك: " من كتاب سؤالات محمد بن سالم لمحمد بن سحنون وسألته عن الأئمة الظالمة الجائرة المحاربة...»، كما نقل عنه في فصل الشهادات وفي غيرها من فصول الكتاب»[20]. قد أشار فضيلته أن "أجوبة التونسي" موجودة في إحدى الخزانات الخاصة بقرية "آيت حمو" التابعة لإقليم الشتوكة آيت باها جهة سوس ماسة بالمملكة المغربية، وأنه يملك صورة منها[21].

بيان حقيقة التحذير

بالرجوع على "كتاب نور البصر"[22]، قال الهلالي: « وقد حذر العلماء من تآليف موجودة بأيدي الناس تنسب للأئمة ونسبتها باطلة، ففي نوازل ابن هلال حذر من الأجوبة المنسوبة لابن سحنون وما زال الأشياخ يحذرون الطلبة منها، وفي نوازل الشيخ عبد القادر الفاسي ما نصه: قال القوري: «أجوبة ابن سحنون لا يجوز الفتوى بما فيها ولا العمل عليها بوجه من الوجوه»، والمتمعن في هذا يجد أن الذي شكك في أجوبة سحنون هو شخص واحد، ألا وهو القوْري[23]-رحمه الله-، ونقله عنه تلميذه إبراهيم الهلالي في نوازله، وعبد القادر الفاسي في نوازله، ثم نقله عن الهلالي حفيده أحمد الهلالي في "نور البصر"، وعنه نقله النابغة الغلاوي في طليحيته[24]، وهؤلاء كلهم من العلماء المتأخرين، فالقوري عاش في القرن التاسع الهجري، والهلالي الجد عاش في القرن العاشر الهجري، وعبد القادر الفاسي عاش في القرن الحادي عشر الهجري، والهلالي الحفيد عاش في القرن الثاني عشر الهجري، والنابغة الغلاوي عاش في القرن الثالث عشر الهجري، ولم ينقل هؤلاء عن واحد من الأئمة المتقدمين الأعلام أن ابن سحنون لم تكن له أجوبة، أو أن تلك الأجوبة المنسوبة لابن سحنون فيها ما يخالف الشريعة أو المعتمد في المذهب المالكي، اللهم إلا ما كان له من

---

[20] الحسن أشفري،"ابن سحنون ورد دعوى انتحال كتاب الأجوبة"، مجلة المذهب المالكي، العدد الثاني لسنة 1427هـ/2006م،ص.170 و171.

[21] المصدر السابق: ص171 (الهامش)

[22] الهلالي، أحمد بن عبد العزيز، نور البصر شرح المختصر، تحقيق عبد الكريم قبُول، طبعة دار الرشاد الحديثة، ط1،2013. ص.252-253.

[23] هذا ما صرّح به مؤلف "نور البصر" في موضعه (ينظر الهامش 21 من هذا البحث) ، ولم أقف على هذا الكلام في نوزل كل من إبراهيم الهلالي وعبد القادر الفاسي.

[24] حين قال في البيت 121: ومنه الأجوبة للسحنونِ **** فعزوُها له من الجنونِ

الاختيارات والترجيحات في الفروع الفقهية التي تعود أحكامها إلى الاجتهاد والترجيح حسب ظروف المفتي والمستفتي وزمن ومكان الفتوى.

فالناقد لسِفر من الأسْفار عليه أن يوضح مكامن الخطأ في الكتاب الذي ينتقده، حتى يكون المتلقي أو القارئ على بينة من أمره، وهذا ما لم يحدث بالنسبة لأولئك الذين حذروا من نوازل ابن سحنون، بل تبين من خلال مختلف مخطوطات الكتاب، أن عددا غفيرا من الشيوخ والفقهاء المتقدمين جعلوا أجوبة ابن سحنون عمدتهم[25] في النقل واستقاء مادة مؤلفاتهم، وعلى رأسهم: ابن سهل وأبو إسحاق التونسي اللذان عاشا في القرن الخامس الهجري، والقاضي عياض الذي عاش في القرن الخامس والسادس، بالإضافة إلى ابن شاس الذي عاش في القرن السابع الهجري والشيخ خليل وابن عبد الرفيع التونسي والفشتالي، الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري، وكذلك داود التملي والونشريسي اللذان عاشا على التوالي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

وعليه يتضح جليا، أن أصحاب التراجم والطبقات الذين أشاروا إلى هذه النوازل ضمن كتب ابن سحنون، يستحيل نقلهم ذلك من غير مصادره الأصلية الموثوقة نظرا لعدالتهم ومكانتهم المرموقة في العلم والتعليم والإفتاء والقضاء، وإلا شككنا في أغلب ما نقلوه لنا عن المذهب المالكي ورجاله ومؤلفاته. كما أن الفقهاء والمؤلفين الذين جعلوا أجوبة ابن سحنون مصدرا من مصادرهم الفقهية والنوازلية، لا يمكن أن يخفى عليهم أمر انتحال تلك الأجوبة، وهم المحققون والمدققون والحفاظ للمذهب أكثر من غيرهم، وهم أقرب زمانا إلى ابن سحنون من الذين قالوا بانتحال هذه الأجوبة على ابن سحنون. كما نجد من خلال كتب الفهارس وكلام المحققين أن هذه الأجوبة جابت العالم الإسلامي شرقا وغربا، فقد وجدت نسخة في تركيا والمغرب وفي تونس ومصر وفي اسبانيا، ويستبعد أن تجوب هذه الأجوبة الآفاق المذكورة إن لم تكن صحيحة النسبة لفقيه كبير وشيخ نحرير في قيمة ووزن محمد بن سحنون رحمه الله تعالى.

ومن حيث المضمون فالمطلع على أجوبة ابن سحنون لا يجد فيها ما يتناقض مع الفقه المالكي، بل لا يجد بين ثناياها ما يتعارض مع الفقه الإسلامي بصفة عامة، فضلا عن أن يجد فيها ما يخالف الشريعة الإسلامية الغراء، فهو أحيانا يستشهد بالحديث الضعيف والموضوع، وهذا ليس عيبا فيه، وليس خاصا به، وقد لا يخلو سِفر من أسْفار العصور المتقدمة من هذا القدح، خاصة إذا استحضرنا المرحلة التي عاش

---

[25] انظر النقول عن كتاب أجوبة سحنون من هذا المقال.

فيها ابن سحنون، والتي قلت فيها المؤلفات المتخصصة في نقد السند ومتن الحديث، بل انعدم فيها اشتهار علم الحديث والجرح والتعديل. ومحمد بن سحنون رحمه الله كان يدلي بدلوه في العديد من المسائل الفقهية، لكن بعد جرده واستعراضه لآراء وأقوال من سبقوه من علماء وفقهاء المذهب المالكي، وسئل عن الفحل من الضأن والمعز إذا قطعت أنثياه وخصي بالحديد، أترى أن يجوز في الأضحية أم لا؟ قال (ابن سحنون): قال ابن القاسم لا يجوز، لأن ذلك من النقص الذي نهى النبي عليه الصلاة والسلام عنه في الضحايا والهدايا، وقال ابن وهب لا بأس بذلك، وهو بمنزلة فحول الإبل التي لا تخصى إلا بالحديد، وهو قول أيضا لابن القاسم، وتوفي رحمه الله ولم يدر على أي قول ثبت. قال محمد بن سحنون: وترك ذلك أفضل إلا أن يكون معسرا فلا بأس به[26].

والكتاب يعكس بجلاء وتبصّر من خلال مسائل فقهية متنوعة خصائص ومميزات عصر نهضة الأغالبة بالقيروان، فضلا عن مواقف علمية وفكرية لفقهاء وأعلام كان يهرع إليهم وقت الرخاء كما كان يهرع إليهم في وقت الشدة.

المطلب الثالث: تحذير نور البصر من أجوبة القرويين

نبذة عن كتاب أجوبة القرويين

اشتهر الكتاب بأجوبة القرويين، ضم بين دفتيه مسائل فقهية ترقى إلى مقام النوازل التي حلت ببلاد المغرب زمن جامع تلك النوازل، فكان متكأ النوازليين وملجأ القضاة والمفتين. الكتاب يعد من الكتب المفقودة وجامع أجوبته أحد تلامذة ابن أبي زيد القيرواني المصامدة، لكن لأهميته كانت عليه مختصرات مازالت محفوظة في الخزائن العامة والخاصة. اشتهر اختصارا باسم "أجوبة القرويين" دون نسبته لأحد. واستقراءً لمواطن وروده في التراث المالكي، يلاحظ أنه نادرا ما تأتي إحالتهم عليه باسم "الفصول" أو "سؤالات أهل المغرب"، وغالبا ما ترد عندهم باسم "أجوبة القرويين" أو "نوازل القرويين. ينسب الكتاب إلى عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزاوي أو النفزي القيرواني أبو محمد المتوفى سنة 386هـ.[27] قال عنه محقق الكتاب الحسن

---

[26] ابن سحنون، محمد، أجوبة ابن سحنون، تحقيق لحسن أشفري، فصل: الصيد والذكاة، ص.402.

[27] مصادر الترجمة: ترتيب المدارك (2/141-145). سير أعلام النبلاء (10/17). الديباج ص136. شجرة النور الزكية (1/96).

شجيد:« لا شك أن هذا الديوان النوازلي كان معتمد المالكية قديما وحديثا، وخاصة من انتصبوا للإفتاء، وألفوا فيه التآليف»[28].

النقول عن الكتاب[29]

تبوأ "أجوبة القرويين" مكانة سامقة بين مؤلفات العلماء قديما وحديثا، فكانت معتمد فقهاء المالكية عموما، والنوازليين منهم على وجه الخصوص.

ذكر الدكتور الحسن العبادي -رحمه الله- أثناء تعليقه على أجوبة القرويين: " لعل أجوبة القرويين تعتبر أول مجموعة معلومة لعلماء القيروان، ويكثر النقل عنها، ولا يعرف إلى الآن جامعها ولا حجمها، لأننا لم نقف على النسخة الأصلية منها وإنما وقفنا على مختصر منها...وإذا لم يعرف جامع هذه الجوبة، فمختصرها معروف الاسم، وهو يعلى بن مصلين الرجراجي"[30] .

ففي مواهب الجليل قال الحطاب: "ومن كتاب الفصول: سقوط نفقتها مدة هروبها وما تركت عند الزوج فما له نحلة يستأجر عليه"

وقال عليش:" في مسائل أبي عمران الفاسي وكتاب الاستيعاب وكتاب الفصول فيمن باع حرا ماذا يجب عليه؟ قال يحد ألف جلدة ويسجن سنة". وورد في موطن اخر عند الحطاب قوله: " قال في مسائل أجوبة القرويين في القائل لرجل: بع سلعتك من فلان؛ لأنه ثقة ومليء فوجده بخلاف ذلك، فقال: لا يغرم شيئا إلا أن يغره، وهو يعلم بحاله". وقد نقل أحد المشارقة نصا للجزولي قال فيه: قال الجزولي: ورأيت في بعض أجوبة القرويين: سئل أبو محمد بن أبي زيد عن رجل دفع إلى مناد ثوبا ليبيعه...»[31].

---

[28] ابن مصلين، يعلى، مختصر الفصول في أجوبة فقهاء القرويين في مسائل البادية وأهل الجبال الذين لاولي لهم ولا سلطان لأجوبة القرويين، تحقيق الحسن خالد شجيد، دار الفتح للدراسة والنشر، ط1، 2023، ج.1، ص.99.

[29] نفسه، ص.100و101.

[030]العبادي، الحسن بن أحمد الهشتوكي، فقه النوازل في سوس: قضايا و أعلام من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر، طبعة دار النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ط1999،1، ص.65

[031] ابن مصلين، يعلى، مختصر الفصول في أجوبة فقهاء القرويين في مسائل البادية وأهل الجبال الذين لا ولي لهم ولا سلطان لأجوبة القرويين، تحقيق الحسن خالد شجيد، دار الفتح للدراسة والنشر، ط1، 2023،ج.1، ص.100.

وفي كتاب الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة لأبي زيد عبد الرحمن التمنارتي ورد النقل باسم "أجوبة القرويين" فذكر صاحبه: «وأما إذا لم يعرف الصبي شيئا؛ لا حرفا ولا هجاء ولا غير ذلك؛ فلا حذقة له، قاله سحنون في أجوبة القرويين»[32].

وقال الشوشاوي في فوائده: «قال أبو محمد في كتاب الفصول: ولا تجوز شهادة المعلم مطلقا»[33].

كما أحال الكيكي عليه بقوله: « ومن كتاب الفصول فيما أجاب فيه فقهاء القرويين لابن أبي زيد...»[34]، وممن كانت لهم أيضا إحالات عليه باسم "أجوبة القرويين" الونشريسي[35]والتملي[36]ووردت الإحالة عليه عند القاضي عياض[37]والتسولي[38]، وغيرهما، باسم "نوازل القرويين".

بيان حقيقة التحذير

حذر الشيخ الهلالي من "أجوبة القرويين" ولم يجوِّز الفتوى بما فيها ولا العمل عليها بوجه من الوجوه، متبعا في ذلك من سبقوه من الأشياخ: "...وفي "نوازل" الشيخ عبد القادر الفاسي ما نصه: قال القوْري: "أجوبة" ابن سحنون لا تجوز الفتوى بما فيها ولا عمل عليها بوجه من الوجوه، وكذلك "التقريب والتبيين" الموضوع لابن أبي زيد، وكذلك "أجوبة القرويين"، وكذلك "أحكام" ابن الزيات، وكذلك كتاب "الدلائل

---

[32] التمنارتي،أبوزيد عبد الرحمن،الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة،تحقيق اليزيد الراضي،دار الكتب العلمية،الطبعة الثانية،2007, ص.505.

[33] نفسه، ص.304:

[34] الكيكي،محمد بن عبد الله،مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال،تحقيق أحمد توفيق،طبعة دار الغرب الإسلامي،الطبعة الأولى،1997, ص:.54

[35] الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ط1981،ج. 6, ص118.

[36] التملي،عبد الله بن ابراهيم بن داود،النوازل المجموعة من فتاوى المتأخرين،تحقيق رضوان بن صالح الحصري،دار ابن حزم،طبعة2016, ص.135.

[37] القاضي عياض وولده محمد،مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط1997،2،ص.10.

[38] التسولي،علي بن عبد السلام،أجوبة التسولي في مسائل الأمير عبد القادر،تحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح الناشر: دار الغرب الإسلامي الطبعةالأولى 1996, ص.102.

والأضداد"، فجميع ذلك باطل وبهتان"[39] .

ونظم ذلك التحذير من "أجوبة القرويين" النابغة الغلاوي قائلا:

كَذلك ذُو الفصول والدلائل لابن أبي زيد بِلا دلائل[40]

والقرويون إليهم تُنسب أجوبة وهي لزورٍ أنسبُ[41]

فالشيخ الغلاوي حذر من كتابي "الفصول" و"أجوبة القرويين" وكلاهما لابن أبي زيد القيرواني على انهما مختلفين، لكن من حقق "مختصر الفصول في أجوبة القرويين" أثبت أنهما سفر واحد ينسب إلى ابن أبي زيد القيرواني[42] .

وبالرجوع إلى نظم "البوطليحية" الذي حققه لخضر لقمار، نجد أن محققه يزعم أن المقصود بالقرويين في النظم هم فقهاء فاس وذلك نسبة إلى جامع القرووين الذي شيدته فاطمة الفهرية سنة 245هـ[43]، وهذا مجانب للصواب، في حين أن محقق البوطليحية أبو البراء فسَّر القرويين بفقهاء المالكية المنحدرين من المدينة التاريخية التونسية، التي بناها القائد الفاتح عقبة بن نافع (136هـ)، والتي اشتهرت بمدرستها المالكية طيلة قرون عديدة وذلك إبَّان الحكم الفاطمي لها[44]، وقد كان على صواب، لأن "أجوبة القرويين" ضم مجموعة من الفتاوى والنوازل التي أجاب عنها فقهاء المالكية من المدرسة المالكية القيروانية، وهذا ما توصل له محقق " مختصر الفصول في أجوبة القرويين": "فبناءً على هذه المعطيات يمكن القول

---

[39] نور البصر،تحقيق عبد الكريم قبول،ص.252.

[40] الغلاوي الشنقيطي،محمد،بوطليحيّة،تحقيق يحيى بن البراء،طبعة المكتبة المكية، ط.2, 2004, البيت120.

[41] نفسه، البيت122

[42] مختصر الفصول في أجوبة فقهاء القرويين، ص103

[43] الغلاوي الشنقيطي،محمد،نظم المعتمد من الأقوال والكتب في المذهب المالكي،دراسة وتحقيق لخضر لقمار،مذكرة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية –الجزائر- السنة الجامعية: 2004-2005, ص.99 (الهامش4).

[44] البوطليحية، بتحيق أبو البراء، ص.103.

بأن أجوبة القرويين كانت في أصلها رسالة جامعة لمجموعة من فتاوى أهل المغرب، وجهها يعلى بن مصلين لابن أبي زيد القيرواني وغيره من فقهاء القيروان كالقابسي وابن محرز...ممن ذكروا في هذا الديوان، فنسبها في أصلها لابن أبي زيد لأنه المقصود بها أصالة، ثم اختصرها رحمه الله، ففُقِد الأصل وبقي المختصر"[45].

ومنه يتضح لنا جليا أن "أجوبة القرويين" صحيح النسبة لابن أبي زيد القيرواني وما احتواه من أحكام فقهية كان مرجع الفقهاء في بلاد المغرب وأجوبته مبثوثة في كتب النوازل عند المتقدمين والمتأخرين. فرغم أن التحذير منها كان مصدره ابتداءً الشيخ القوْري رحمه الله (872هـ) جازما أن ما فيها لا يشبه قولا صحيحا[46]. فإن التحذير نفسه لا نجده عند غيره من الفقهاء المالكية سواء المتقدمين أو المتأخرين عن الشيخ القوْري باستثناء الشيخ ابن هلال(903هـ) والشيخ الزقاق (932هـ) والشيخ عبد القادر الفاسي(1091هـ) والشيخ الهلالي (1175هـ) وهؤلاء كلهم تكلموا بلسان القوْري معتمدين على تجريحه وتضعيفه لأجوبة القرويين.

والكتاب وثيقة تاريخية تؤرخ قدم تمسك الغرب الإسلامي حكاما ومحكومين بالثوابت الدينية عقيدة وفقها وسلوكا، وهذا ظاهر جلي في مسائل كثيرة من هذا السفر النوازلي العتيد.

المبحث الثاني: أسباب التحذير ومسوغاته

إن الشيخ القوْري الذي طعن في هذه الأجوبة(سحنون والقرويين) ربما –والله أعلم- له عذره، للمكانة العظيمة التي يحتلها في العلم وبين العلماء ونحن لا ننتقص من قيمة هذا الشيخ الجليل، وعليه فلا يستبعد أن يكون ذلك راجعا إلى كون نسبة كتاب الفصول في أجوبة القرويين إلى ابن أبي زيد القيرواني هي نسبة قول وعبارة وليست نسبة تأليف وعبارة، أو قد اطلع على نسخة من النسخ التي زاد فيها بعض النسَّاخ بعض الأجوبة كما جرى لأجوبة ابن سحنون، ويؤكد ذلك ما وقف عليه المحققان لكتاب "أجوبة ابن سحنون" حيث وجدا نسخ مختلطة[47] ونسخا مخطوطة أخرى غير مختلطة كانت المعتمدة في تحقيقهما للكتاب، حيث

---

[45] مختصر الفصول في أجوبة فقهاء القرويين، ص.111.

[46] نور البصر، ص.252.

[47] ابن سحنون، محمد، أجوبة ابن سحنون، تحقيق ودراسة: حامد العلويني، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 2000م، ص.18وص.91.

أكدا ما أشار إليه بعض النسَّاخ إما في مقدمتهم قبل البداية في كتاب الأجوبة، أو بعد انتهائهم من كتاب الأجوبة، فقد وجدا في بداية المخطوط الأم ما يلي: « كتاب فيه أجوبة الإمام الفقيه العالم الأوحد أبي عبد الله محمد بن سحنون رضي الله عنه، وهي النسخة التي هذبها وصححها بنفسه قبل موته بعامين، وفصلها على عشرين فصلا، فما وجدت من هذه النسخ المختلطة الأسئلة غير مفصل وغير متجانس، فاعلم أنه من النسخ الفاسدة التي زاد فيها المبطلون ما ليس فيها».

وهذا ما أكده محقق كتاب "مختصر الفصول في أجوبة فقهاء القرويين" الدكتور الحسن شجيد، الذي كشف لنا من خلال تحقيقه للكتاب أن تعاقب السنين على هذه الأجوبة، من القرن الرابع الهجري إلى الآن كان سببا في امتداد أيدي النسّاخ إليها استدراكا واستدلالا وتوسيعا واختصارا، بل وأحيانا مسخا، وإفسادا، وتزييفا، وخلطا. ولا يستبعد أن يكون هذا التزييف والخلط واقعان في تلك الفترة، خاصة إذا علمنا الحالة السياسية المضطربة التي كان يعيشها المغرب آنذاك. ومما يؤيد هذا الطرح ما أسفر عنه توثيق وتحقيق نسخ هذا الديوان، كما يؤكده ويجليه وصول إحدى هذه النسخ إلى دار السلطان، وهي النسخة الأميرية التي تزينت ذيولها بتعليقات سعيد بن عبد المنعم الحاجي (953ه) ثم وصلت إلى حفيده في فترة حكمه بتارودانت يحيى الحاجي (1035ه). فلا يستبعد أن تكون هذه الأجوبة آنذاك دستورا يتكئ عليه للنظر في أحوال الأمة خاصة وأنها مشخصة في كثير من مسائلها للحالة السياسية والاجتماعية في المغرب، ومقدمة لأقوال الفقهاء ذوي الباع الطويل في فقه مالك أمثال ابن أبي زيد والقابسي وغيرهما كثير[48].

من خلال ما سبق يظهر أن أصل التحذير من أجوبة ابن سحنون وأجوبة القرويين كان الشيخ القوْري فلا يستبعد أن يكون–رحمه الله تعالى- قد اطلع على نسخة من النسخ التي زاد فيها بعض النسَّاخ بعض الأجوبة التي لم تكن لا لابن سحنون ولا للقرويين، ويؤكد ذلك ما وقف عليه كل من حقق الكتاب، كما يمكن حمل دعاوى التحذير أنه راجع إلى الخلط الواقع في بعض النسخ نظرا لقِدمها، فامتدت إليها أيدي النسّاخ مرارا وتكرارا، استدراكا واستدلالا وتوسيعا واختصارا، بل وأحيانا مسخا وإفسادا وتزييفا وخلطا[49] .

أضف إلى ذلك أنه لم ينقل عن واحد من الأئمة المتقدمين الأعلام كابن رشد أو القاضي عياض - وغيرهما كثير- أن ابن سحنون أو ابن أبي زيد القيرواني لم تكن له أجوبة، أو أن تلك الأجوبة المنسوبة فيها

---

[48] مختصر الفصول في أجوبة فقهاء القرويين، ص..112-113

[49] نفسه، ص.112.

ما يخالف الشريعة أو المعتمد في المذهب المالكية، اللهم إلا ما كان لهما من الاختيارات والترجيحات في الفروع الفقهية التي تعود أحكامها إلى الاجتهاد أو الترجيح حسب الظروف المفتي والمستفتي وزمن ومكان الفتوى.

إن كُلًا من النقل بالواسطة وغياب التحقيق والتدقيق أثناء الحديث عن مؤلفات مالكية لها باع طويل في حفظ النوازل، وكذا عدم تعليل الهلالي السجلماسي للأحكام أثناء تحذيره من الكتابين-موضوع هذا البحث- واستخدام ألفاظ من قبيل باطل و بهتان و أقاويل الشيطان و تآليف لايشبه ما فيها قولا صحيحا،[50] مع تبنِّيه بعفوية كبيرة ما قاله السابقون من المالكية، يجعلنا نطمئن أن أجوبة ابن سحنون وأجوبة القرويين من الكتب المعتمدة في المذهب المالكي عند المتقدمين وأن الكتابين ذوي أهمية بالغة، إذ يضُمان إلى جانب أجوبة ابن سحنون وأجوبة ابن زيد القيرواني أجوبةَ غيرهما من فقهاء الغرب الإسلامي الذين عاصروهما أو كانوا قبلهما، فحفظا لنا بذلك جملة كبيرة من النوازل الفقهية التي لولا إثبات المؤلفين لها في كتابيهما لكانت عرضة للضياع، أو ربما ضاعت بلا رجعة.

المبحث الثالث: دور الباحث نحو تحذير التراث من التراث

يعد التراث الإسلامي بوجه عام والتراث المالكي بوجه خاص مما تشكل حول الوحي بشقيه: القرآن والسنة وآثار الصحابة رضوان الله عليهم، فهو تراث ارتبط بدين الحق واحتف به، وتخلقّ منه. حتى اشتهر المذهب المالكي بفقه النوازل بامتياز حيث خرج من الجمود على النص إلى فسحة الفكر والاجتهاد لمسايرة حياة الناس وتطورها عبر مختلف الأصقاع والعصور.

تعرض هذا التراث النفيس لعدة تشوهات على مدار التاريخ مرة على يد منافسيه[51]، لكونه تراثا حضاريا وأخرى على يد المنتسبين إليه عبر التشكيك والتحذير[52]. فكان لابد للتصدي لنفي التراث من الوجود في عدة جبهات وذلك عبر قراءته قراءة فاحصة ثم رصد فمواجهة مختلف التحديات التي تتربص به.

---

[50] نور البصر، تحقيق عبد الكريم قبُول، ص.252.

[51] شوقي بنبين، أحمد، مشاج من التراث، اعتنى به وأعده للنشر عزيز أبو شرع، مركز روافد، سلسلة دراسات وأبحاث، -3-، ص.179.

[52] وللأمانة العلمية: نجد تحذير بعض العلماء من بعض كتب التراث كان القصد منه حسنا، بل صوابا أحيانا حفظا لدين الأمة واستبعادا لما فيه نقص من جهة ضعف معتمده أو عدم جريان العمل عليه.

أولا بقراءة التراث:

قراءة التراث المالكي بنية الإفادة منه لا يمكن أن تكون إلا من منظور الحقبة التي نعيشها، وفي ضوء ما حصل من تطورات في المجالات الحضارية والعلمية والمنهجية. فقراءة التراث لا تكون إلا بمنظار الباحث المتخصص المتفاعل مع كل محطة من محطات تاريخنا المجيد.

إن التراث المالكي، كما غيره من الموروثات الأصيلة، لا يمكن فصله عن السياق الزمني والتاريخي الذي نشأ فيه، ولكن من الضروري أن نتعامل معه في الوقت الحاضر بشكل يعكس التغيرات الجوهرية التي طرأت على المجتمع والعلوم والفكر. ففي عالم اليوم، الذي يشهد تطوراً مذهلاً في مجالات متعددة مثل العلوم الإنسانية والتقنيات الحديثة، لم يعد من المقبول أن تظل قراءة التراث محكومة بمنظور تقليدي ضيق، بل يجب أن تتسم بالمرونة والانفتاح على التطورات المعرفية الراهنة.

وفي هذا السياق، لا بد من تأكيد أن قراءة التراث المالكي يجب أن تتم من خلال منظور الباحث المتخصص الذي يمتلك الأدوات الأبستمولوجية والمنهجية الحديثة التي تمكنه من تحليل النصوص والفكر المالكي بشكل نقدي وبحثي، بعيداً عن التبجيل المطلق أو التفسير السطحي. فالباحث الذي يتفاعل مع كل محطة من محطات تاريخنا المجيد لا يقرأ التراث فقط كوثيقة تاريخية ثابتة، بل يتفاعل مع المذهب المالكي كأداة للإجابة على تساؤلات العصر، بما يتناسب مع التحديات المعاصرة.

كما أن القراءة المتجددة للتراث المالكي-دائما بنية الإفادة- يجب أن تسعى إلى تجديد الفهم واستنباط الحلول التي تتلاءم مع متطلبات العصر الحالي، مع الحفاظ على الجوهر الروحي والأخلاقي لهذا التراث. وهذا يتطلب من الباحث أن يكون قادراً على توظيف أدوات علمية ومنهجية متقدمة، مثل المقارنة بمرونة بين مختلف المدارس الفكرية والفقهية، وتحليل السياقات الاجتماعية والسياسية التي أنتجت هذه الأفكار.

وعلى العموم لن يتأتى هذا إلا بتحصيل العلم والمعرفة عبر القراءة المتبصرة، فهي السبيل لمعرفة علل ركودنا وسبب تخلفنا وانحطاطنا والخروج من فلك التبعية لغيرنا. فالقراءة المتبصرة للتراث حركة للعقل في تفاعله مع النواميس ومفتاح المعرفة ومعركة بناء الذات وأساس كل تواصل ومفتاح نهضة الشعوب[53].

[53] ارحيلة، عباس أحمد، تراثنا في مسار التحديات، مركز روافد، سلسلة دراسات وأبحاث-5-، ص.52.

ثانيا بمواجهة التحديات التي تقف أمام الإفادة من التراث

إن اشتغال الباحث في مجال التراث يحتم عليه معرفة التحديات المختلفة التي واجهت هذا التراث وتواجهه خصوصا وأنه تراث مرتبط بالوحي الإلهي فهو حقيقة تاريخية قائم على الرسالة المحمدية، فكل من عادى الوحي وانتصب لمحاربته يتمنى تشويهه والقضاء عليه. كما يجب على الباحث الإلمام بتفنيد دعوى انغلاق باب الاجتهاد، بعد فهم السياق التاريخي الذي أنتج هذا النوع من الدعاوى[54]، لأنه سبب تراجع التوهج الفكري للأمة وحرمانها من مواكبة نهضة الأمم في ظل واقع سياسي واقتصادي متشردم وأطماع استعمارية دائمة ومتجددة. فالإنسان المسلم يعيش معارك غير متكافئة في لحظات اختلت فيها الموازين، وأصبحت تتلاعب بها الأزمات بشتى أنواعها[55]، وبالموازاة مع كل هذا لقد شكلت آليات نساخة الكتاب المخطوط عبر التاريخ قضية شائكة لا تقل أهمية عن ما سبق ذكره من التحديات الخارجية التي اعترضت الإفادة من التراث، فكانت من أخطرها تلك العمليات التي قد تمس المتن في معناه في حال وقوع الناسخ في هنات بقصد أو بغير قصد حيث ترتب على سوء النسخ مشكلات لا يمكن حصرها، تتصل بكتب التراث في كل المعارف العربية منذ بداية التأليف إلى عصر الطباعة[56] .

فالطالب الباحث القارئ للتراث الواعي بالتحديات يُنتظر منه تحقيقا علميا رصينا يتناول التراث بوصفه وعاء للهوية والخصوصية الحضارية للأمة، التي يمكن التمييز فيها بين الثوابت والمتغيرات، والحاجة القصوى لتجديد النظر فيها قائمة باعتبار الأصول والتحولات التي يعرفها السياق، الذي يظهر كفاءات المجتهدين في إدراك هذه اللحظات الفارقة التي بها يصبح التراث حيا وحاضرا قابلا للإحياء وتطور والإبداع.

---

[54] والتي يمكن إجمالها في: إغلاق باب إنشاء مذهب خامس أو إغلاق باب الاجتهاد خارج المذاهب الأربعة المعتمدة وأيضا إغلاق باب الاجتهاد على من لم تتوفر فيه أهليته.

[55] نفسه، ص.29.

[56] أمشاج من التراث، ص.99.

الخاتمة:

لقد أسفر هذا المقال عن جُملة من النتائج، تتعلق أساسا بمنهج النقد المتبع في تحذير الشيخ أحمد الهلالي من الكتابين اللذين كانا موضوع هذا البحث، وأسردها في نقطتين أساسيتين:

أولا: نقله تحذير من سبقوه من المشايخ حيث:

- في انتقاده لكتب المالكية اعتمد على النقل بالواسطة.
- غاب التحقيق أثناء حديثه عن مؤلفات المالكية المتعلقة بالفتاوى والنوازل، في حين نجد كلامه محققا من خلال حديثه عن كتب أخرى.
- حذر من كتب المالكية، والتي تبين من خلال هذا البحث المتواضع أنا كانت معتمدة عند المتقدمين، والتي نالت بالمقابل حجما أقل بكثير مقارنةً بحجم المواضيع التي تناولها كتاب "نور البصر".

ثانيا: عدم التعليل لأحكامه أثناء تحذيره من الكتب موضوع هذا البحث حيث:

- استخدم ألفاظا من قبيل باطل وبهتان وأقاويل الشيطان وتآليف لايشبه ما فيها قولا صحيحا.
- تبنيه بعفوية كبيرة ما قاله السابقون من علماء المالكية بدون تعليل.

لهذا فالتحقيق العلمي للكتاب المخطوط هو السبيل الوحيد للتعريف بالتراث وإنقاذ التراث بالتراث.

توصيات الباحث

وفي الختام أقترح ما يلي:

- أن يكون هذا البحث نقطة انطلاق لدراسات وأبحاث أخرى لها علاقة مباشرة بالموضوع.
- دعوة الباحثين إلى تحقيق كتب المالكية بغض النظر عما قيل فيها وعنها.
- يحتوي كتاب "نور البصر على شرح خطبة المختصر" على مواضيع كثيرة، تصلح أن تكون مشاريع بحوث أكاديمية.

لائحة المصادر والمراجع

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد بن عمر قاسم مخلوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، طبعة دار الكتب العلمية، ط،1 2003.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، طبعة دار الكاتب بطرابلس ليبيا، ط،2 2000.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، طبعة دار التراث للطبع والنشر بالقاهرة.
- الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين الطبعة، الخامسة عشر.
- الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم و المشيخات والمسلسلات، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط2 1982.
- الهلالي، أحمد بن عبد العزيز، فهرست بدر سماء العالي (هذا العنوان ينبغي التحقق منه، المعروف أن أحمد بن عبد العزيز الهلالي له فهرستان: كبرى وصغرى تسمى العجالة)، تحقيق رشيد المصلوت الروداني، ط 1981
- الهلالي، أحمد بن عبد العزيز، نور البصر شرح المختصر، تحقيق أحمد فاضل و الحسين أبو الوقار، وعبد العزيز أيت المكي، طبعة المجلس العلمي بإنزكان ط2014،1.
- القاضي عياض، أبو الفضل، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، مطبعة فضالة بالمحمدية، ط أوقاف المغرب، سنة 1983.
- السافري، محمد المدني، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت بكلية الشريعة بآيت ملول آكادير، تقديم وتحقيق كتاب البيوع من كتاب التوضيح شرح مختصر ابن الحاجب الفرعي.
- ابن فرحون، إبراهيم شمس الدين محمد، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تحقيق جمال مرعشلي، طبعة دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2003.
- الفشتالي، عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك، وثائق الفشتالي، تحقيق أبي الفضل الدمياطي أحمد بن علي، طبعة مركز التراث الثقافي المغربي بالدار البيضاء، الطبعة الأولى 2015.

- ابن عبد الرفيع، إبراهيم بن حسن، معين الحكام على القضايا والأحكام، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط1989.
- البوشواري، محمد، مختصر أمهات الوثائق وما يتعلق بها من العلائق - للفقيه سيدي داوود التملي الجزولي (ت899هـ)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا.
- ابن شاس، بو محمد جلال الدين عبد الله بن نجم، عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة الجواهر، دراسة وتحقيق حميد بن محمد لحمر، دار الغرب الإسلامي، بيروت -لبنان- الطبعة: الأولى،2003.
- الحسن أشفري،"ابن سحنون ورد دعوى انتحال كتاب الأجوبة"، مجلة المذهب المالكي، العدد الثاني لسنة 1427هـ/2006م.
- الهلالي، أحمد بن عبد العزيز، نور البصر شرح المختصر، تحقيق عبد الكريم قبُول، طبعة دار الرشاد الحديثة، ط2013،1.
- ابن مصلين، يعلى، مختصر الفصول في أجوبة فقهاء القرويين في مسائل البادية وأهل الجبال الذين لاولي لهم ولا سلطان لأجوبة القرويين، تحقيق الحسن خالد شجيد، دار الفتح للدراسة والنشر، ط1، 2023.
- التمنارتي، أبوزيد عبد الرحمن، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق اليزيد الراضي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية2007.
- الكيكي، محمد بن عبد الله، مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال، تحقيق أحمد توفيق، طبعة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1997.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ط1981.
- التملي، عبد الله بن ابراهيم بن داود، النوازل المجموعة من فتاوى المتأخرين، تحقيق رضوان بن صالح الحصري، دار ابن حزم، طبعة2016.

القاضي عياض وولده محمد، مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، طبعة دار الغرب الإسلامي، ط1997،2.

- التسولي، علي بن عبد السلام، أجوبة التسولي في مسائل الأمير عبد القادر، تحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 1996.

- الغلاوي الشنقيطي، محمد، بوطليحيّة، تحقيق يحيى بن البراء، طبعة المكتبة المكية، الطبعة الأولى 2004.
- الغلاوي الشنقيطي، محمد، نظم المعتمد من الأقوال والكتب في المذهب المالكي، دراسة وتحقيق لخضر لقمار، مذكرة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية –الجزائر- السنة الجامعية: 2004-2005.
- ابن سحنون، محمد، أجوبة ابن سحنون، تحقيق ودراسة: حامد العلويني، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى: 2000م.
- شوقي بنبين، أحمد، أمشاج من التراث، اعتنى به وأعده للنشر عزيز أبو شرع، مركز روافد، سلسلة دراسات وأبحاث-3-.
- ارحيلة، عباس أحمد، تراثنا في مسار التحديات، مركز روافد، سلسلة دراسات وأبحاث-5-.

أحكام نوازل الوقف زمن الجو ائح

نور الهدى صفر

المعهد العالي لأصول الدين. جامعة الزيتونة تونس

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى ترسيخ مكانة مؤسسة الوقف في الواقع المعاصر وتطويرها، وإبراز دورها الفعّال في مواجهة الطوارئ والجوائح التي قد تشهدها الدولة. كما تسعى إلى الإقرار بإمكانية تطور هذه المؤسسة واستمرار عطائها بما يخدم المصلحة العامة ويحقق مقاصد الشريعة الإسلامية في التعاون والتكافل الاجتماعي.

وتتضمن الدراسة كذلك بيان نوازل الوقف وأحكامها عند الضرورة، من خلال تناول حكم وقف المال العام، وحكم استعمال ريع الوقف زمن النوازل، ومسألة تغيير حكم شرط الواقف بما يتلاءم مع مقاصد الشريعة وظروف الزمان.

كما تعتمد الدراسة على المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي التحليلي مع عرض جوانب من الواقع الوقفي المعاصر، بهدف الوصول إلى نتائج علمية تسهم في تفعيل الدور الحضاري والإنساني لمؤسسة الوقف.

الكلمات المفتاحيّة: نوازل. الوقف. الجوائح

This study aims to consolidate the status of the waqf institution in the contemporary context and develop its mechanisms highlighting its active role in addressing emergencies crises and pandemics that the state may face over time it also seeks to acknowledge the potential for the evolution of this institution and the continuity of its contribution in serving the public interest and achieving the objectives of Islamic law in promoting cooperation and social solidarity.

The study further includes an examination of waqf related contingencies and their rulings when necessary covering the waqf and the modification of the waqf donor s condition in accordance with the objectives of waqf and the circumstances of the time. It relies on both the inductive and descriptive analytical methods along with an overview of the contemporary waqf reality aiming to reach well founded conclusion that contribute of the effective and humanitarian role of the waqf institution.

Key words:

المقدّمة

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد، شرعت الشريعة الإسلامية نحو غاية محققة وهي حفظ مصالح العباد ودفع المضار من ذلك جلب المصلحة ودرء المفسدة عن عباده، وبذلك تتحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة، كما أكدّ هذا المعنى الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ في قوله: (إنّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، فالشريعة، عدل الله بين عباده).

فمن فضل الله تعالى الذي شرّع لعباده منظومة الوقف وحثّ على إنشائها ووعد بالمجازاة لباعثيها والهدف من ذلك كله، بناء مجتمع مستّقر أساسه التكافل الاجتماعي الذي يبعث في نفس المؤمن مشاعر الأمان مع متغيرات الحياة اليومية التي لا تقوم على وتيرة واحدة بل يسودها التوتر بسبب بعض الظروف الطارئة.

لذلك كان لمؤسسة الوقف أهميّة بالغة في الشريعة الإسلاميّة لما يمكن أن تؤديه من نفع للذات البشرية من خلال ما تقدمه من مساعدات خدمة للمصلحة العامّة وترسيخا لمبادئ الإسلام.

إشكالية البحث:

يطرح هذا البحث إشكالا رئيسيا:

- إلى أي مدى كان الوقف مجالاً للنوازل المستجدّة بسبب جائحة كورونا؟

انطلاقا من الإشكالية الرئيسيّة يمكن طرح الأسئلة الفرعية التالية:

- ما حكم تغيير شرط الواقف في مواجهة جائحة كورونا ؟
- ما حكم وقف المال العام في تمويل نفقات جائحة كورونا ؟
- ما حكم استعمال ريع الوقف في مواجهة جائحة كورونا ؟

أهمّية البحث:

- يستمدّ هذا البحث أهميته من جدّة الموضوع وطرافته في أنه يخوض في مسألة نوازل الوقف المتعلقة بجائحة كورونا كوفيد-19، و تحليل التداعيات الاقتصادية، والاجتماعية، والصحية مع تقديم بعض الحلول.

- تكمن أهمّيته أيضا في تسليط الضوء على بعض البلدان المعتمدة على هذه المنظومة في تجاوز جائحة كورونا وعجز البعض الآخر عن تجاوزها بسبب إهماله لها، فأهمية هذا البحث هي الكشف عن قيمة هذه المؤسسة الشرعية اقتصاديا واجتماعيا في العصر الراهن وأزماته.
- بيان قيمة مؤسسة الوقف و سبل تطويرها لمسايرة مستجدات العصر.
- دراسة مؤسسة الوقف وعلاقاتها بالواقع الذي تعيشه الدول الإسلامية ومدى تجاوب هذه المؤسسة مع تجارب هذه الدول في حياتها العصرية.

أهداف البحث:

إنّ الهدف من بحثنا في هذه المسألة النقاط الآتية:

- فتح الآفاق أمام الباحثين للتعمّق في هذه المسألة لمدى أهمّيتها في العلوم الشرعية.
- بيان أهمية المؤسسة الوقفية ضمن بقية مؤسسات الدولة وإعطائها المكانة التي تستحق والتأكيد على مدى أهميتها في بناء الحضارة الإسلامية.
- ترسيخ هذه المؤسسة(الوقف) في الواقع المعاصر وتطويرها إلى مصدر ثابت في التنمية ومواجهة الطوارئ أو النوازل التّي يمكن أن تشهدها الدولة عبر الأزمنة.
- الإقرار بإمكانية تطور هذه المؤسسة وإعادة قراءة أحكامها وفق ما يقتضيه الواقع وتطلبه الظروف مع الحفاظ على جوهرها في خدمة المصلحة العامة.
- رصد أهم نوازل الوقف زمن جائحة فيروس كورونا المستجدة.

الدّراسات السّابقة:

اعتمدت في إعداد هذه الرسالة جملة من المراجع، كانت عونا لي في انتقاء مادّة الموضوع المشتغل عليه بنقد بعضها وهي الآتي ذكرها:

1. دراسة مريم عبد الرحمان الأحمد الأستاذة المساعدة في كلية الشريعة جامعة الكويت: بحث بعنوان نوازل الوقف المتعلقة بجائحة كورونا دراسة فقهية تطبيقية منشور في مجلة الشريعة جامعة الكويت(ماي 2020).

يُعدّ هذا البحث أطروحة دكتوراه في العلوم الاسلامية، يعتبر هذا البحث من أهم المراجع التي اعتمدت عليها، فقد هدفت هذه الرسالة إلى بيان أهم الأحكام الفقهية الخاصة بمسألة الوقف في أزمة كورونا وإبراز أهم نوازله التي تتمثل في حكم تغيير حكم الواقف وحكم الإنفاق على الدولة من مال الوقف وتحديد مصارف الوقف التي تعنى بالأمانة العامة في دولة الكويت.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي في المسائل المتعلقة بالموضوع وقامت بجمعها وتحليلها كما اعتمدت المنهج الوصفي في بيان أقوال الفقهاء مما يعرض من مسائل فقهية وأدلتها.

ولعلّ الإضافة التي حرصت على تحقيقها في بحثي هذا إلى ما أنجزته الدكتورة مريم عبد الرحمان التدقيق في مسألة حكم وقف المال العام لتمويل نفقات الدولة وحكم استعمال رعي الوقف في مواجهة جائحة كورونا.

2. دراسة علي محي الدين القره داغي: وقف المال العام ... أحكامه وأثاره: دراسة فقهية مقارنة (أفريل 2017 م).

يعتبر علي محي الدين القره داغي من أهمّ المفكّرين المعاصرين الباحثين في شأن الأوقاف إذ تميزت كتابته بالدقة وسعَة الاطلاع نظرا لتمكنه بحيثيات الوقف، وفي هذا المقام استفدت من بحوثه القيمة، وتكمن أهمية هذه الدراسة في البحث عن حقيقة وقف المال العام وبيان تكييفه الفقهي، خصائصه، ومسؤولية ولي الأمر على الحفاظ على المال العام مع التركيز على الضوابط الشرعية في إنفاق المال العام، وإبراز الفرق بين الوقف والإرصاد وهو ما ساعدني في انجاز هذه المذكرة نظرا لكون وقف المال العام من أهم الأحكام التي يجب التطرق إليها في مسألة الوقف، وما شد انتباهي في هذه الدراسة اعتمده للمنهج التحليلي التوليدي(سؤال/جواب).

4. دراسة وهبة الزحيلي: رؤية اجتهادية في المسائل الفقهية المعاصرة، دار المكتبي (1977): يتميّز هذا الكتاب بالمامه بأهمّ أحكام الوقف، فقد سعت هذه الدراسة إلى بيان أحكام الوقف العامة بطريقة معاصرة، وهو ما أفادني في فهم المسائل العامة للوقف.

منهج البحث:

أنجزتُ هذا البحث عبر مراحل، كان لا بدّ من إتباعها في بنائه، فكانت المرحلة الأولى هي مرحلة الاستقراء أي العودة إلى مجموع المصادر والمراجع للاستفادة منها وضبط بعض المعلومات وجمعها وتحليلها وتصنيفها، كما وقع ذلك في كل مسائل الموضوع...

وقام المنهج على مراحل أخرى وهي الوصف والتحليل، كان ذلك عرض جوانب من الواقع يتعلق بمؤسسة الوقف في الدول الإسلامية والغير الإسلامية أو في بيان آراء الفقهاء من المذاهب الأربعة مع نقل نصوصهم في ذلك عند الحاجة ثم تحليلها و الموازنة بينها ثم الترجيح في المسائل التي بان لي فيها ترجيح أحد الأقوال على غيره .

كما عزمت في هذا البحث على الاعتماد على بعض الكتب والدراسات الحديثة، والتزمت بما هو متعارف عليه من كتابة البحوث العلميّة في النقل والاقتباس والتوثيق والترجيح، كما ضبطتُ الأحاديث النبوية باستخدام منهج البحث العلمي في تخريجها.

خطّة البحث:

تتضمن هذه الدراسة خطة البحث المعتمدة على المحاور التالية:

المبحث الأول: حقيقة الوقف

المطلب الأول: تعريف الوقف لغة

المطلب الثاني: تعريف الوقف اصطلاحا

المبحث الثاني: حكم تغيير شرط الواقف لمواجهة الجائحة

المطلب الأول:تعريف شرط الواقف

المطلب الثاني:حكم تغيير شرط الواقف في الحالات الطارئة

المبحث الثالث: وقف المال العام لمواجهة الجائحة

المطلب الأول: حقيقة وقف المال العام

المطلب الثاني:حكم وقف المال العام لمواجهة الجائحة

المبحث الرابع: استعمال ريع الوقف في مواجهة الجائحة

المطلب الأول: ريع الوقف

المطلب الثاني: حكم الاستدانة من مال الوقف

المبحث الأوّل: حقيقة الوقف

المطلب الأوّل: تعريف الوقف لغة:

الوقف: مصدر وقف، والجمع أوقاف، ويطلق الوقف ويقصد به الحبس والمنع، يقال: وقفت الرجل عن الشيء وقفا: منعته عنه[1].

يقال: وقفت الدابة وقفا حبستها في سبيل الله قال تعالى: والوقف: الحبس (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) [2]، أي احبسوهم.

ومنه: وقف الأرض على المساكين – وللمساكين – وقفا حبسها لأنه يحبس الملك عليه، ووقفت الدابة والأرض وكل شيء[3].

الوقف: الحبس والمنع، وهو ثلاثي من الباب الثاني، يقال وقف يقف وقفا، ولا يأتي رباعيا إلا في لغة رديئة، ويشتهر استعمال المصدر باسم المفعول، فيقال: هذه الدار وقف، أي موقوفة، ولهذا فإنّه يثنى ويجمع عندئذ، فيقال: وقفان وأوقاف، ويأتي بمعنى السكون، يقال وقفت الدابة إذا سكنت[4].

وهو مصدر قولك وقف يقف وقفا، والفعل وقف ثلاثي يأتي متعدّيا ولازما، فقولك: "وقفت الدابة وقفا " متعدّ، وقولك: "وقفت وقوفا لازم"[5].

الوقف بفتح فسكون مصدر وقف الشيء وأوقفه، يقال: وقف الشيء وأوقفه وقفا أي حبسه، ومنه وقف داره أو أرضه على الفقراء لأنّه يحبس الملك عليهم، قال ابن فارس: الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكث في الشيء يقاس عليه[6].

يقال: وقف الشيء وأوقفه، وحبسه وأحبسه، كلّه بمعنى واحد[7].

وعليه، سمّي وقفا لما فيه من حبس ومنع شيئا لغاية مخصوصة، فيقال حبست بمعنى حبست واستبداله بكلمة أوقفت يعتبر لغة رديئة أي غير مقبولة، والأحباس تفيد الأوقاف.

المطلب الثاني: تعريف الوقف اصطلاحا

---

[1] ابن منظور، لسان العرب 359/9.

[2] سورة الصافات: 24.

[3] الزّمخشري، معجم أساس البلاغة، ج 2ص 507 .

[4] ابن منظور، لسان العرب، الفيومي، المصباح المنير، مادة وقف.

[5] المشيقح (خالد بن علي) النوازل في الأوقاف، ص25.

[6] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة وقف 135/6.

[7] البعلي، المطلع، د.ط، ص 285.

اتّفق الفقهاء المسلمون في التعريف الاصطلاحي (للوقف) رغم اختلاف آرائهم في حيثياته، وسأعرض أهم هذه التعريفات:

أوّلا: تعريف الوقف عند الحنفيّة: عرفه المرغياني[8] أنّه: حبس العين على ملك الواقف والتّصدق بالمنفعة[9].

تعريف الصاحبين[10] عن التعريفات السابقة فنجد أن الوقف: حبس العين على ملك الله تعالى وصرف منفعتها على من أحب[11].

ثانيا: تعريف الوقف عند المالكيّة:

عرفه ابن عرفة[12] بأنّه: إعطاء منفعة شيء مدّة وجوده لازماً بقاؤه في ملك معطيها ولو تقديراً[13].

ومن خلال هذا التعريف يتضح أن المالكية لا يخرجون العين الموقوفة عن ملك الواقف بل تبقى على ملكه ولو تقديرا، فالوقف ليس تفويت كامل للمملوك من قبيل معطيه وإنما تفويت نسبي يبقى على ملك صاحبه.

ثالثا: تعريف الوقف عند الشافعية:

فقد عرف الإمام النووي الوقف بأنه: حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته، وتصرف منافعه إلى البر تقربا إلى الله تعالى[14].

والمقصود من الوقف منع التصرف الشخصي في عين الوقف والانتفاع لمصلحة جهة معينّة لكسب رضاء الله ونيل ثواب الآخرة.

رابعا : تعريف الوقف عند الحنابلة :

---

[8] **الميرغياني**: هو شيخ الإسلام برهان الدين علي بن أبي بكر الميرغياني المتوفي سنة 593هـ صاحب الهداية، وكتاب البداية، وكفاية المنتهى، ومناسك الحج، انظر ترجمته في: تاج التراجم ص34، والفوائد البهية ص141.

[9] النسفي، كنز الدقائق، 202/5، ابن الهمام، فتح القدير203/6.

[10] **الصاحبين: محمد بن الحسن**: " هو أبو عبد الله الشيباني ولاه الرشيد القضاء فخرج معه إلى خراسان، ومات بالري سنة تسع وثمانين ومائة وهو ابن ثمان وخمسين سنة، (القارئ، علي بن سلطان محمد، الأثمار الجنية في أسماء الحنفية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، ط1، 2009، ج1 ص 249)**وأبو يوسف**: وهو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد، ولد سنة ثلاث عشرة ومائة... توفي سنة اثنين وثمانين ومائة " تلميذ الإمام أبي حنيفة النعمان(القارئ، علي بن سلطان محمد، الأثمار الجنية في أسماء الحنفية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، ط1، 2009، ج1 ص 240).

[11] تنوير الأبصار مع الدر المختار بهامش ابن عابدين ج 3 ص 494-495.

[12] **ابن عرفة:** هو محمد بن محمد ب عرفة الورغمي، إمام تونس وعالمها ومفتيها، من كبار فقهاء المالكية، تصدى للتدريس بجامعة تونس، وتولى الإمامة والخطابة بجامع الزيتونة، توفي سنة 803هـ،من مؤلفاته "المختصر الفقهي "و"الحدود" (الديباج المذهب 227، نيل الابتهاج274).

[13] محمد بن عبد الله بن علي الخرشي، حاشية الخرشي على مختصر الخليل، مع حاشية علي بن أحمد العدوي على الخرشي، ج7، بيروت، 1417هـ-دار الكتب العلمية 1997م، ص361.

[14] تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف للمناوي مخطوط ص 3 في مكتبة الأزهر تحت رقم 5581/709.

عرفه البهوتي بأنه: تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة الثمرة[15].

التعريف الرّاجح:

وبناءً عليه، فالتعريف الراجح للوقف هو: "حبس الأصل وتسبيل الثمرة[16]" أي جعل الشيء الموقوف على منفعة بحيث يصرف ريعه إلى جهة تقربا إلى الله تعالى.

إنّ تعريف الوقف عند المذاهب ينقسم إلى قسمين: القسم الأول لدى المذاهب الثلاثة الشافعية والحنابلة والحنفية تشترك في أن تكون المنفعة خالصة لوجه الله أي صرف منافعه في سبيل الله ويقوم على توجيه الوقف لفئة محددة، تفويت مطلق للمنفعة وهذا متفق عليه.

والقسم الثاني المالكية يعتمد على التفويت النسبي في طريقة أو كيفية التصدق، فالمالكيّة تنص على المنفعة المادية ولو بأجرة ولو بنسبة، والخلاف لفظي بدليل قولهم "و لو تقديرا"، كما أنّهم يمنعون من التصرف في الوقف بعوض أو بدون عوض، ويلزمون الواقف بالتصدق بمنفعة وقفه ولا يجيزون له الرجوع فيه.

والوقف يدخل في باب الصدقات الجارية (الصدقات المحرمات كما تلفظ عند الشافعية) التي شدّد عليها الدين الإسلامي تبعا لما يحتويه من خير فهو مصدر ثابت للعناية بالفقراء والأيتام وطلبة العلم إلخ ...

فالوقف يسهم بدور حيوي في الحد من الفقر ومعالجة بعض المشاكل الاقتصادية التي تواجه الأمة الإسلامية، ويقف سدّا منيعا وذرعا متينا أمام جميع مظاهر العجز في توفير بعض المنشآت العلمية والدينية، والسيطرة على بعض الأوضاع المتأزمة التي تمر بها الأمّة كما يعتبر الوقف حسب هذه التعريفات مظهر من مظاهر التكتل الاجتماعي والتضامني ويكون له الأثر الايجابي على الفرد باعتباره مالك الوقف في كسب رضاء خالقه والمساهمة إيجابيا في واقعه كما يكون لهذه الصدقة أثر ايجابي على الفرد والجماعة والأمة الإسلامية جمعاء.

المبحث الثاني: حُكم تغيير شرط الواقف لمُواجهة جائحة كورونا

المطلب الأوّل: تعريف شرط الواقف

الفرع الأوّل: تعريف الشرط لغة:

---

[15] البهوتي، شرح المنتهى الارادات 489/2.

[16] م.ن (بتصرف).

الشرط في اللغة يفيد الالتزام، فيقال: شرط الشيء شرطا أي التزامه، وشرط عليه أمرا أو شارطه أي ألزمه إياه، وتشارطا على كذا أي شرط كل واحد منهما على صاحبه، والشروط هي ما يوضع ليلتزم بها في بيع أو نحوه[17].

الفرع الثاني: تعريف الشرط اصطلاحا:

والشرط اصطلاحا: هو ما يلزم من عدمه العدم، أي: يلزم من عدم الشرط عدم الحكم، وخرج بهذا القيد المانع، فانه لا يلزم من عدمه وجود ولا عدم، والمقصود أنه يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته، أي أنه إذا انعدم الشرط انعدم المشروط ولكن إذا وجد الشرط فانه لا يلزم مع وجوده وجود المشروط ولا يلزم من وجوده عدم المشروط، والشرط نوعان[18]:

أوّلا: الشروط المطلوبة شرعا: مثل شروط الصلاة، أو شروط البيع، والشرط هنا ما يراد به: ما لا يتم الشيء إلاّ به، لكنّه ليس داخلا في حقيقته وماهيته، وبمعنى آخر ما يلزم من عدمه عدم وجود المشروط، ولكن لا يلزم من وجوده وجود المشروط أو عدمه، وبهذا المعنى هو أحد أنواع الحكم الوضعي، الشروط المطلوبة شرعا أي ما يوجبها النّص الدينّي قرآنا أو سنّة مثل شروط الصلاة وموجب إجراؤها أداءً صحيحا، أو شروط البيع وما يتطلبه هذا العقد من أسس تجعله سليما شرعا، والشرط هنا ما يراد به: ما لا يتم الشيء إلا به كشرط الطهارة في الصلاة فانه يلزم من عدم الطهارة عدم الصلاة أي عدم صحتها، وشرط البيع أن يكون موضوع البيع معلوما[19].

ثانيا: الشروط الجعلية: الشروط التي يشترطها أحد العاقدين، أو كلاهما، وهي الشروط المقترنة بالعقد، وتسمى كذلك: الشروط الجعلية (وهي الشروط التي يفرضها أحد المتعاقدين في الوقف، كالاشتراط في البيوع والنكاح وغيره)، وقد عرفها العلامة الحموي[20]، فقال: الشرط التزام أمر لم يوجد في أمر وجد بصيغة مخصوصة، والواقف: هو الذي قام بحبس أصل وتسبيل ثمرته[21].

---

[17] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، مادة (شرط).

[18] وابن النجّار، شرح الكوكب المنير، تحقيق محمد الزحيلي، ونزيه حمّاد، ط جامعة الملك عبد العزيز (434/1).

[19] ويسمّى أيضا خطاب الوضع، انظر: الآمدي، الأحكام، (127/1)، والتوضيح على التنقيح (90/3)، وتيسير التحرير (128/2)، وابن السبكي، جمع الجوامع مع شرح المحلي (86/1)، ونزيه حمّاد، ط جامعة الملك عبد العزيز (434/1).

[20] **الحموي:** أحمد بن محمد مكّي، أبو العباس، شهاب الدين الحسيني الحموي، توفي سنة 1098هـ = 1687م، مدرس من علماء الحنفية، حموي الأصل، مصري، وتولى إفتاء الحنفية وصنف كتب كثيرة منها "غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر لابن نجم (موقع المكتبة الإسلامية "الحموي أحمد بن محمد المكي").

[21] الحموي، غمز عيون البصائر شرح الأشباه والنظائر (225/2). وانظر في اعتبار نصوص الواقف كنصوص الشارع في الدلالة: السبكي، الفتاوى (13/2)، وابن القيّم، إعلام الموقعين، (238/1)، والهيتمي، الفتاوى الفقهية الكبرى (267/3)، وابن نجيم، البحر الرائق، (266/5).

الفرع الثالث: شرط الواقف:

شرط الواقف أو شروط الواقفين: هي ما تفيد وتشتمل عليه صيغة الوقف من القواعد التي يضعها الواقف للعمل بها في وقفه من بيان مصارفه، وطريقة استغلاله، وتعيين جهات الاستحقاق، وكيفية توزيع الغلة على المستحقين، وبيان الولاية على الوقف، والإنفاق، ونحو ذلك[22].

مثل: وقفت داري على أولادي، ومن لم يحافظ على الصلاة فلا شيء عليه في الوقف.

تأسيسا على ما ذكر فإنّ شرط الواقف هو شرط جعلي الذي بموجبه يتحقق الوقف وبذلك يكون كغيره من العقود ويحدده الواقف نفسه في حجة الوقف ضمانا لسلامة الغرض شرعا.

المطلب الثاني: حكم تغيير شرط الواقف في الحالات الطارئة (جائحة كورونا):

رغم أهمّية شرط الواقف ووجوب إجرائه في حجة الوقف إلا أنه يمكن تغييره في الحالات الطارئة، فالمراد به: انزياح أو عدول متولي الوقف عن بعض الشروط التي وضعها الواقف للعمل بها في وقفه، كأن يشترط الواقف الصرف على أشخاص أو جهات معينة أو وضع شروط محددة في توزيع المصارف على جهات أو أشخاص ونحو ذلك.

وتكون شروط الواقف: شروط باطلة، وشروط صحيحة، وشروط صحيحة في ذاتها لكن قد يطرأ عليها من الأحوال ما يجوز العدول عنها.

وحسب اعتبار معيار أركان الوقف تُصنّف شروط الواقفين إلى ثلاثة أصناف:

- الشروط المتعلقة بالموقوف إبقاء أو تغييرا أو غير ذلك.
- الشروط المتعلقة بالموقوف عليه من حيث تحديده وكيفية توزيع الغلة عليه.
- الشّروط المتعلّقة بالولاية على الوقف تحديدا للناظر (هو القيّم على الوقف أو المراقب له) وصلاحياته[23].

فكما حدّ الشرع من حرية الواقف في الجهة الموقوف عليها، فلم يصح وقفه على الجهات المحرمة شرعا أو التي لا خير فيها، حدّ كذلك من حرية الواقف في الشروط التي يشترطها في وقفه، بما يضمن عدم تنافيها مع المبادئ الشرعية العامة[24].

---

[22] انظر: أبو زهرة (محمد)، محاضرات الوقف، ص 136، ويكن (زهدي)، الوقف في الشريعة والقانون، ص50، والمناوي، تيسير الوقوف، ج1ص95، والبهوتي، شرح منتهى الإرادات 501/2.

[23] الحكمي (علي)، شروط الواقفين وأحكامها، (158-159).

[24] الزرقا (مصطفى أحمد)، أحكام الوقف: ص 142-143، ومحاضرات في الوقف، ص145، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، 271/1-272.

الفرع الأوّل: الشروط الباطلة:

مال الحنفية إلى اعتبار كل شرط كان فيه تفويت لمصلحة الوقف أو المستحقين فهو شرط باطل[25]، كاشتراط تأجير الوقف لمدة سنة وهو ما يخالف العرف مثلا، أو إذا ما شرط الواقف عدم الاستبدال، فللقاضي الاستبدال إذا كان أصلح[26].

فكل شرط كان فيه إهدار لمصلحة الوقف أو المستحقين فهو شرط باطل.

وما يبطل الوقف حسب الحنفية كل ما خرج عن مقتضى عقد الوقف من شرطي اللزوم والتأبيد، كما يبطل الوقف أيضا التصرف فيه كبيعه وصرف ثمنه في حوائجه دون المستحقّين، أو يوفى به ديونه أو يتصدق به، أو أن يضعه على ذمة تصرف ولده كملكية خاصة.

كما أقرّ يوسف بن خالد السمتي[27] بأن الوقف جائز والشرط باطل على كل حال، إلحاقا للوقف بالعتق[28].

واعتبر المتأخّرون من الحنفية أنّ هذا الرأي هو المختار للفتوى استحسانا، وإن كان

الرأي الأول هو المشهور في المذهب[29].

قد سعى أصحاب هذا المذهب إلى تعيين ضابط عامّ، فقالوا: إنّ" كل ما كان مفوتا لمصلحة الوقف أو مخالفا لحكم الشرع فهو لغو[30]"، كما أنّه كلمّا كان الشرط يؤدي إلى الإضرار بمصلحة المستحقين، أو لم تكن فيه فائدة شرعا، ولم يكن للواقف منه غرض صحيح فإنّه شرط باطل[31]، والشروط الجوهرية التي لا يمكن المساس بها ولا يمكن للمسلم أن يخالفها، وهي كالتالي:

- صيانة المال الموقوف بعد وقفه، لأنه صار من المصالح العامة.
- وصلاح إدارته وحسن استثماره.
- وعدم الإخلال بالأحكام التي ألزم الشرع الناس بها في معاملاتهم وأحكامهم[32].

---

[25] حاشية ابن عابدين 343/4.

[26] ابن نجيم، الأشباه والنظائر، ص325-326.

[27] **يوسف بن خالد السمتي:** يوسف بن خالد بن عمير السمتي يكنى أبا خالد، من بني كنانة، ولد سنة عشرين ومائة هجري في ولاية يوسف بن عمر الثقفي و سمي باسمه، وتوفي سنة تسعة و ثمانون ومائة هجري بالبصرة (ويكبيديا).

[28] الإسعاف في أحكام الأوقاف، ص 31.

[29] موجبات الأحكام وواقعات الأيام، ص 231، وأحكام الأوقاف، هامش ص 36، وأحكام الوقف في الشريعة الإسلامية، 262/1.

[30] العشوب (عبد الجليل عبد الرحمان)، كتاب الوقف، ص 45.

[31] أنفع الوسائل، ص116، أحكام الأوقاف، ص143،مجموعة القوانين المصرية المختارة من الشريعة الإسلامية، قانون الوقف، ص99 و390.

[32] الميمان (ناصر بن عبد الله)، مخالفة شرط الواقف –المشكلات والحلول ص3.

من الشروط الممنوعة على الواقفين الاحتفاظ بالمال الموقوف بعد وقفه لأنه يحول من ملكيتهم إلى الملكية العامة ويشترط أيضا أن لا يتدخّل الواقفون في أمور الوقف أو في شأن الحكام، أو شرط أن لا يعزل الناظر ولا يحاسبه الحكام، وإن ارتكب خيانة في الوقف[33]، أو أن لا يضمن ما يثبت عليه ضمانه شرعا من مال الوقف، أو اشترط استثمار الغلة بالطرق المحرّمة، أو شرط إنفاق شيء من الغلة في بعض السبل المكروهة شرعا، كما لو شرط رصد شيء من الغلة لمن يقرأ القرآن على قبره[34].

قد أقرّوا من الشروط الأخرى التي يمكن أن تتعارض مع مصلحة الوقف والحفاظ عليه، ومن هذه الشروط ألا يعمر الوقف إذا احتاج إلى التعمير وكذلك الإضرار بصلاح إدارته وحسن استثماره من الشروط الباطلة، لأنها تضر بعين الوقف وبحقوق المستحقين، والأولى في الوقف أن يبدأ بعمارته، كذلك إذا شرط أن لا يستبدل بعقار الوقف –إذا خرب ولم يمكن تعميره والانتفاع به، فالشرط باطل[35].

من الشروط الفاسدة التصدق بفاضل الغلة على من يسأل في مسجد كذا، لم يراع شرطه، فللقيّم التصدق على سائل غير ذلك المسجد أو خارج المسجد، أو على فقير لا يسأل[36].

كمثال على ذلك ما لو اشترط واقف الكتب –مثلا- أن لا تعار إلا برهن، فهذا الشرط أيضا فاسد، لأنّ يد المستعير يد أمانة لا ضمان عليها إلا بتعديها أو تفريطها[37].

اتّفقت المذاهب الفقهية الأربعة -الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة- على أنّ كل شرط ينافي مقتضى الوقف ويكون أمره مسألة محرمة شرعا فهو عقد فاسد، بالإضافة إلى أنّ الشرط الباطل لا يؤثر على صحة الوقف بل يُلغي الشرط وحده.

أخلص إلى القول من كل ما ذكر أنّ شروط بطلان الوقف واضحة كسائر العقود التي أقرها الشرع، فكل شرط يخالف نصا شرعيا أو كان معارضا لمقتضاه أو مصلحته هو شرط باطل.

الفرع الثاني: شروط صحيحة لا يجوز مخالفتها:

إذا خلت الشروط من الموانع السابقة فإنّها شروط صحيحة، كما لو شرط أن يبدأ من الغلة بقضاء ديونه، أو أنه إذا مات وعليه دين قضي من غلته ويصرف الباقي إلى الجهة الموقوفة، أو شرط أن يدفع الناظر

---

[33] ينظر: الإسعاف ص54 (بتصرّف).

[34] ينظر: البحر الرائق 246/5، والدر المختار 666/6 و690.

[35] ينظر: فتح القدير 221/6، البحر الرائق 225/5، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص225، وأحكام الأوقاف ص144-145، والقوانين المصرية المختارة ص 391، وأحكام الوقف في الشريعة الاسلامية274/1.

[36] الأشباه والنظائر، ص225، وأحكام الأوقاف، ص146، القوانين المصرية المختارة، ص391.

[37] حاشية ابن عابدين 684/3.

الاستحقاق للمستحقين في شهر معين من كل سنة، وأنّه إن خالف ذلك يخرج من النظر ويعزل، ومن هذا القبيل أيضا ما إذا وقف داره وشرط السكنى لزوجته ما لم تتزوّج، ومن ذلك ما لو وقف الإنسان على الفقراء –مثلا- وشرط إن احتاجت قرابته يرد الريع إليهم، فيصح الشرط، وإذا احتاج بعض قرابته ترد الغلة كلّها إليهم، فمثل هذه الشروط شروط صحيحة واجبة الإتباع، ولا تجوز مخالفتها بحال من الأحوال، وهذه الزمرة من الشروط هي التي لا تضر بمصلحة الوقف ولا تخالف حكم الشرع، بل تعبر عن إرادة الواقف في تعيين المال الموقوف، وواجبات العاملين، وكيفية توزيع الغلة، وليس لها علاقة باستثمار الوقف أو نحوه مما يتصور فيه طروء عوارض تستدعي مخالفة شروط الواقف في سبيل مصلحة الوقف والمستحقين[38].

كل شرط لا يخل بحكم الوقف، ولا يؤثر في منفعته، ولا يضر بالموقوف عليهم فهو شرط جائز معتبر يجب العمل به.

ومثاله: أن يشترط الواقف البدء بعمارة الوقف من غلته، أو عزل الناظر إذا خان، أو أن يكون النظر في أمر الوقف للأرشد فالأرشد من ذريته، فجميع هذه الشرط صحيحة، يصح الوقف معها ويجب الوفاء بها إلا في بعض حالات استثنائية، ومن هنا شاع على ألسنة الفقهاء أنّ من كان صحيحا من شروط الواقفين، فإنه ينزل منزلة نص الشارع، ويريدون بذلك أن الشرط الصحيح يجب العمل به، ولا يجوز مخالفته إلا لضرورة، أو مصلحة راجحة، لأنّه يعبر عن إرادة الواقف، ولا يُخل بأصل الوقف، ولا بمنفعته، ولا بمصلحة الموقوف عليهم، وليس فيه مخالفة للشرع[39].

كذلك يلحق بهذه الشروط عند الحنفية أيضا ما يشترطه الواقفون عند إنشاء الوقف يحتفظون لأنفسهم من خلالها بحق التغيير في مصارف الوقف والمستحقين أو النظارة، ونحو ذلك مما اشتهر في كتب الفقهاء –الحنفية- وفي حجج الواقفين بالشروط العشرة، وهي: الزيادة والنقصان والتفضيل، الإدخال والإخراج والتخصيص، التغيير والتبديل، الإبدال والاستبدال.

قد اتّفقت الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة على أنّ كل شرط غير ممنوع شرعا ولا منافيا لمقتضى الوقف فإنّه شرط صحيح وواجب الاعتبار به.

قال النووي: شروط الواقف مراعية ما لم يكن فيها ما ينافي الوقف[40].

هناك تفاصيل لهذه الشروط وقواعد معينة تحكم أعمالها أعرضتُ عنها، لكونها لا تدخل في موضوع بحثنا.

---

[38] عشوب (عبد الجليل)، كتاب الوقف 45-46، وإبراهيم بك (أحمد)، مصطفى أحمد(الزرقاء)أحكام الأوقاف، ص152و155.

[39] باشا (محمد قدري)، مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في المعاملات الشرعية، دار الكتب العلمية، سنة 1306هـ، ص68.

[40] النووي، روضة الطالبين، د.ط، ج5، ص334.

الفرع الثالث: شروط صحيحة في أصلها، لكن قد يطرأ عليها من المستجدات والطوارئ ما يسوغ مخالفتها: (مثال جائحة كورونا)

ذهب القانون الكويتي في مادته الرابع عشره: يجب العمل بشرط الواقف، ويجوز بقرار من اللجنة مخالفة الشرط الصحيح إذا أصبح العمل به في غير مصلحة الوقف، أو الموقوف عليهم، أو كان يفوت غرضا للواقف، أو اقتضت ذلك مصلحة أرجح[41].

فلا يسوغ مخالفة شروط الواقف الصحيحة في أصلها إلا في بعض الظروف العارضة التي يمكن أن تخل باستقرار وأمن الجماعة ودون ذلك وجب الالتزام بشروط الواقف.

أوّلا: كلّ ما يمكن أن يخالف صيغة الوقف ومقاصده يعتبر شرطا باطلا، كأن يتحول العقار إلى مصدر تهديد للمستحقين فيمكن تجاوزه أو استبداله.

ثانيا: كل شرط يتعذر الوفاء به في مصارف الوقف، فإنّه يعدل عنه إلى غيره كما لو أوقف مدرسة وشرط أن يكون طلابها من فئة معينة، فإنّ هذا شرط صحيح يعمل به ما أمكن، فإن تعذر وجود الطلاّب بتلك الصفة جاز مخالفة شرط الواقف[42].

ثالثا: يتعلّق بفائدة الوقف للمستحقّين فإن كانت هذه المنفعة تضر بكرامة المنتفعين يمكن مخالفة شرط الواقف فكل شرط يؤدي إلى الضّرر بالوقف أو المستحقّين، فإنّه يجوز مخالفته[43].

العقد الذي يقوم عليه الوقف يتطلب احترام شروط الواقف وما ينص عليه ولكن يمكن مخالفته إن اقتضت الضرورة أو تطلبت ذلك المصلحة العامة فيكون العدول ضروريا باعتباره أصلح وأنفع والحالات الموجبة لذلك متعددة بتغير الأحوال والظروف نذكر الجائحة المستجدّة جائحة كورونا (كوفيد-19) والتي كان ظهورها مباغتا لم يكن الفرد أو الدولة مستعدة للتصدي لها وقد يتطلب ذلك ضوابط تفاديا للفوضى وحفاظا على الشرط، ومن هذه الضوابط:

*أن يلتزم العدول بنبل المقاصد وما تخدم المصلحة العامة.

*أن لا يعرقل مصالح الوقف.

*وأن تكون هناك ضرورة تستدعي هذا الإيقاف لشرط الواقفين[44].

---

[41] مشروع قانون الوقف الكويتي، ص 172.

[42] الميمان، (ناصر) مخالفة شرط الواقف، بحث منشور على الموقع الالكتروني www.khair.ws/library بتاريخ29/4/2020 م.

[43] حاشية ابن عابدين 261/3.

[44] قلعة جي، الموسوعة الفقهية الميسرة، مصطلح (وقف).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[45]: وإذا ثبت في نصوصه –يعني نصوص أحمد- وأصوله،
جواز إبدال المسجد للمصلحة الراجحة فغيره أولى، وقد نص على جواز بيع غيره للمصلحة لا للضرورة[46].
فالمصلحة العامة يؤكدها شيخ الإسلام ويجعلها تبيح التحول عن شروط الواقف
أو شرط استبدال العين الموقوفة، كاستغلال الوقف والابتعاد به عن سبب الوقف الأصلي وتوظيفه في مجابهة جائحة كورونا، كتخصيص وقف مدرسة في تقديم خدمات صحية تتمثل في تلقيح المواطنين ضد هذه الجائحة.
وبناءً عليه، أقرّت المذاهب الفقهية الأربعة بجواز تغيير شرط الواقف عند الضرورة أو المصلحة الراجحة أو الطوارئ مثال جائحة كورونا.
كما تساهم إدارة الوقف أو الواقفين في دفع مضار هذه الجائحة، ومساندة الدولة بكل ما لديها في التصدي لما يمكن أن تتسبب فيه هده الأزمة التي تعجز فيها الدولة عن معالجتها.
إنّ الشروط العامّة أو القديمة لا يمكن أن تساعد في ذلك، فكان لا بّد من مسايرة طبيعة الظروف التي تمر بها الدولة بإعادة النظر في شروط الواقف حفاظا على سلامة الأفراد والروابط الاجتماعية واستقرار اقتصادها.

المبحث الثالث: وقف المال العامّ لمجابهة جائحة كورونا

المطلب الأوّل: حقيقة وقف المال العامّ:

الفرع الأوّل: تعريف المال:

* لغة:

المال في اللّغة يطلق على" كل ما يملكه الإنسان من الأشياء[47]".

---

[45] **ابن تيمية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النُمَيْري الحرّاني "ولد يو الاثنين عاشر ربيع الاول من سنة احدى وستين وستمائة ... وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة " العبادي، (اسلام)، سيرة شيخ الاسلام ابن تيمية، دار ابن كثير للنشر، عمّان، الاردن، ط1، سنة 2006، ص 6 و 434.

[46] مجموع الفتاوى 220/31.

[47] ابن منظور، لسان العرب، مادة (م ول)، 635/11، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (م ول)، 53/4.

قال ابن الأثير[48]: المال -في الأصل- ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق عند العرب على الإبل، لأنها كانت أكثر أموالهم[49].

* اصطلاحا:

المال: هو ما يمكن حيازته وإحرازه والانتفاع به انتفاعا معتادا[50].

قال ابن عابدين: المراد بالمال ما يميل إليه الطبع، ويمكن ادخاره لوقت الحاجة، والمالية تثبت بتمويل الناس كافة أو بعضهم[51].

وقال القاضي عبد الواهب[52]: هو ما يتموّل في العادة، ويجوز أخذ العوض عنه[53].

وعرف الشّربيني[54] المال بأنّه: كل ما له قيمة بين الناس، ويلزم متلفه بضمانه، ويباح شرعا الانتفاع به حال السعة والاختيار[55].

بينما قال البهوتي[56] بأنّه: ما يباح نفعه مطلقا، أو يباح اقتناؤه بلا حاجة[57].

أمّا محمد عبد الله العربي[58] فقد عرف المال بقوله: المال يشمل كل ما سخره الله لنا من خير في البر والبحر وفي ظاهر الأرض وفي باطنها[59].

---

48 **ابن الاثير**: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني ولد سنة خمس وخمسين وخمسمائة وتوفي في الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاثين وستمائة "الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج22، ص 354.

49 ابن الأثير، النهاية في غريب الأثر، 373/4.

50 الزحيلي (وهبة)، الفقه الاسلامي وأدلته، ط3زدمشق، دار الفكر العربي، 1989م45/4، والملكية ونظرية العقد، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ،ص51.

51 ابن عابدين، رد المحتار، 3/4.

52 **القاضي عبد الوهاب:** هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي التغلبي العراقي، الفقيه المالكي صنف في المذهب كتاب "التلقين "وغيره من الكتب، ولد سنة 365هـ، وتوفي سنة422هـ (الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج17، ص430).

53 القاضي عبد الوهاب، الإشراف على مسائل الخلاف ،271/2.

54 **الخطيب الشربيني:** "محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين :فقيه شافعيّ، مفسر. من أهل القاهرة. توفي سنة 977هـ 1570م. "الزركشي، خيرالدين بن محمود بن علي بن فارس، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، سنة 1986، ج6، ص6.

55 الخطيب الشربيني، مغني المحتاج، 342/2.

56 **البهوتي**: أبو عبد الله أحمد بن عبد الله بن يونس مولده في سنة اثنتين وثلاثين ومائة تخمينا. .. توفي سنة واحد وخمسين وألف " الذهبي ،محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج 10،ص457.

57 البهوتي، كشاف القناع، 464/2.

58 **محمد بن عبد الله العربي:** دكتور في الاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر، عمل أستاذا زائر بجامعة ام درمان وغيرها من الجامعات العربية. (مجلة الأمة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية-قطر، المجلد6، العدد68).

59 العربي (محمد عبد الله)، محاضرات في الاقتصاد الإسلامي وسياسة الحكم في الإسلام، 130/2.

تعدّدت تعاريف الفقهاء للمال فمن ذلك ما عرفه الشافعي بأنّه: لا يقع اسم المال إلا على ما له قيمة يباع بها[60].

وعرّفه الشاطبي[61] أنه: ما يقع عليه الملك، واستبد به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه، ويستوي في ذلك الطعام والشراب واللباس على اختلافها وما يؤدي إليها من جميع المتموّلات[62].

الفرع الثاني: تعريف العامّ:

من عمّ الشيء عموما: أي: شمل، والعام: الشامل، وخلافه الخاصّ[63].

وهو شمول أمر لمتعدّد سواء كان الأمر لفظا أو غيره، ومنه قولهم: عمّهم الخير إذا شملهم وأحاط بهم[64].

الفرع الثالث: تعريف المال العام:

يُراد (بالمال العام) في الاصطلاح: ما يقابل المال الخاص المملوك لشخص طبيعي أو اعتباري ملكية خاصة، وبالتالي فالمال العام يشمل: ما خصصته الدولة ومؤسساتها أو الأشخاص الاعتبارية العامة للمنافع العامة، سواء كان عقارا أم منقولا[65].

وبذلك يكون المال العام حسب الفقهاء هو كلّ ملكية لم يظهر لها مالك فتوضع عليها اليد وتصير إلى الملكية الجماعية أو العامّة.

قال الماوردي[66] وأبو يعلى[67]: هو كل مال استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم، وهو من حقوق بيت المال[68].

---

60 السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الفكر،604/1.

61 **الشاطبي**: أبو محمد ،عبد الله بن علي بن أحمد، اللخمي الأندلسي الشاطبي سبط الحافظ ابن عبد البر، كان مولده في سنة 443هـ، مات سنة ثلاث أو اثنين وثلاثين وخمس مائة وعاش تسعين عاما "الذهبي، محمد بن أحمد، سير اعلام النبلاء، ج20 ص 92.

62 الشاطبي، الموافقات، ط دار المعرفة، ج2، ص17.

63 يراجع: القاموس المحيط، ولسان العرب، والمعجم الوسيط مادة (ع م م).

64 الشوكاني، ارشاد الفحول، ط مصطفى الحلبي، ص 112.

65 السنهوري، الوسيط، دار النهضة العربية، القاهرة ،93/8.

66 **الماوردي**: " أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، مات في ربيع الاول سنة خمسين وأربعمائة " الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ج18، ص 64.

67 *أبو يعلى*: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفرّاء (ولد سنة 380هـ وتوفي 458) عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون. من أهل بغداد.

68 الماوردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانية، ص213، الفرّاء، (أبو علي محمد)، الأحكام السلطانيّة، ص235.

وقال الجويني[69]: وأمّا المال العامّ فهو مال المصالح، وخمس الخمس من الفيء، وخمس خمس الغنيمة، وما يخلفه مسلم ليس له وارث خاصّ، ويلحق بالمرصد للمصالح مال ضائع للمسلمين قد تحقّق اليأس من معرفة مالكه ومستحقّه[70]، فالمال العام حسب هذا التعريف يتجاوز الملكية الفردية ليأخذ بعدا أشمل ويوضع في خزينة عامة خدمة لمصالح جميع المسلمين تسمى بيت المال، ومصدر المال متنوع حسب هذا القول منه ما يأتي عن انتصارات المسلمين في الحروب من غنائم كالذهب والسلاح والخيول إلى غير ذلك، ومنه الفيء هو ما أخذه المسلمون من الكفار الحربيين من غير قتال.

وذكر في موطن آخر وظيفة المال العام: فإذا مال المصالح معدٌّ لكل مصلحة ليس لها على الخصوص مال، وكل مصرف قصر عنه المال المعدّ له، فمال المصالح يستتمه ويستكمله[71].

وعرّفه بعض المعاصرين بأنّه: المال الذي لا يدخل في الملك الفردي، وتمتلكه الدولة ملكية عامّة، وتخصّصه للمصلحة العامة[72].

أستنتج ممّا سبق ذكره أنّ المال العام هو الأصول التّي تجاوزت ملكية الفرد الواحد للمال أو الملكية الخاصة الشخصية له إلى ملكية جميع الأفراد دون تخصيص، خدمة للمصلحة العامّة ويقوم عليها ويحميها الإمام (الرئيس)، ويتجسد هذا الصنف من الملكيّة في بيت المال، مثل: إنشاء الطرقات والجسور والسكك الحديدية والمساجد...

الفرع الرّابع: حقيقة وقف المال العامّ:

يتمثّل مفهوم وقف المال العام في تعيين الدولة بعض الأملاك أو العقارات العامة ووقفها على بعض الأشخاص الطبيعيون أو الاعتباريون كمنتفعين، فوقف المال العام يقوم على تخصيص مثل هذه الموارد ليتأسس بها وقفا، حيث تبقى أركان الوقف ثابتة إلا أنّ الأطراف تتغير فتصير الدولة محل الواقف وهي المعطية أما الموقوف عليه فهم الأشخاص الطبيعيون أو الاعتباريين، وأقرّ الباحثون في هذا المجال ضابطين يحددان مدى صحة وقف المال العام:

---

[69] **الجويني**، شيخ الشافعية، إمام الحرمين أبو المعالي، عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله ابن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين الشافعي، صاحب التصانيف. ولد سنة تسع عشر وأربعمائة ... توفي سنة ثمان وسبعين واربعمائة. الذهبي، (محمد بن أحمد)، سير أعلام النبلاء، ج18، ص468.

[70] الجويني، غياث الأمم، ص 243.

[71] م.ن، ص 249.

[72] مفهوم المال العام ونظم حمايته في الشريعة الاسلامية، علي عبد الله الديلمي، مجلة الشريعة والقانون، جامعة الامارات العربية المتحدة، العدد (20) ص 118، سنة 2004م= 1426.

- أن يكون من مال يصحّ وقفه.
- أن يكون من المال العامّ، وليس من المال الخاصّ (المال الخاصّ هو ما يملكه الأشخاص
- الطبيعيون أو الاعتباريون ملكيّة خاصّة[73]).

المطلب الثاني: حُكم وقف المال العام لمواجهة جائحة كورونا:

في بادئ البدء، قبل الخوض في مسألة حكم وقف المال العام سأعرض إلى معنى الارصاد لغاية توضيح الفرق بين تسمية الارصاد والوقف.

ذكر في مخطوطة للسيوطي[74] أنّه قال: أنّ صلاح الدين جلس مع نور الدين فقال يا سيدي يا نور الدين إنّ العلماء اليوم إما أن يذهبوا إلى أبواب السلاطين وإما أنهم مساكين، فقراء ومحتاجين لماذا لا نوقف بعض الأراضي عليهم؟ فقال نور الدين لا يجوز لأنّ الواقف يجب أن يكون مالكا، فاستعانوا ببعض العلماء في ذلك الوقف، وطبعا كثير منهم خلفوا ووجدوا لهم فرصة أنّه لا يسمى وقفا وإنّما ارصاد، وفعلا هذا الارصاد بقي حماية للعلماء والمدارس الشرعية وكانت أموال الدولة[75].

الفرع الأول: تعريف الإرصاد :

-لغة:

الإرصاد لغة بمعنى الإعداد[76].

الارصاد: من رصد، أرصد، أي: أعدّ، وهذه العبارة (الإرصاد) مستخدمة في عصرنا هذا في مجال المالية العامّة، فيقال: أرصد (أو رصد) الحاكم هذه الاعتمادات المالية، وهي مبالغ محددة في الميزانية، لغرض الصحة أو التعليم أو التدريب[77]...

-اصطلاحا: الإرصاد اصطلاحا هو ما يخصّصه الإمام (الرئيس، السلطان) من أموال بيت المال لجهة عامة أو خاصة، سواء كان بلفظ الوقف نحوه وذلك مثل أراضي الدولة التي فتحها المسلمون عنوة، فيخصص الإمام بعضها لمصالح معينة[78].

---

[73] مسعود صبري، وقف المال العام دراسة فقهية، دار البشير، ط1، 2018، ص19،20(بتصرف).

[74] **السيوطي:** هو عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري جلال الدين السيوطي، إمام حافظ مؤرخ أديب، ولد سنة تسع وأرعين وثمانمائة، وتوفي سنة احد عشر وتسعمائة، له600 أهم مصنفاته: الاتقان في علوم القرآن، والرسالة الصغيرة... (الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج3، ص301).

[75] محاضرة علي القره داغي، جائحة كورونا ودور الوقف والزكاة في التخفيف في آثارها الاقتصادية والاجتماعية.

[76] ابن منظور، لسان العرب، مادة رصد.

[77] القره داغي، (علي محي الدين علي)، مقال وقف المال العام أحكامه وآثاره (دراسة فقهية مقارنة).

[78] وقد استعمله الحنفية بمعنى تخصيص ريع الوقف لسداد ديونه التي ترتبت عليه لضرورة اعماره، كما في حاشية ابن عابدين (376/3).

فإرصاد الأرض يفيد: إعدادها لصرف نمائها على الجهة التي عيّنها[79].

يطلق الحنفية الإرصاد أيضا على: تخصيص ريع الوقف لسداد ديونه التي ترتبت عليه لضرورة اعماره[80]، أي في حالة استثمار الإرصاد وكانت عليه ديون لأجل تجهيزه والانتفاع به يقع توظيف مال الاستثمار من أجل خلاص الدين الذي هيئ به الإرصاد مثل توظيف مردود قطعة أرض فلاحية وقع إرصادها وما تكلف ذلك من مستلزمات إبقائها في دين لذلك لا بدّ من تخصيص ما تدره من مال لأجل هذا الدين.

كما عرفّه ابن عرفة بأنّه: تمليك الإمام جزءا من الأرض[81].

بناء عليه، أتبين أنّ مفهوم الإرصاد يتجاوز الملكية الفردية من حيث الشخصيات الطبيعية أو الشخصيات المعنوية فهذا المصطلح يتعلق بما هو ملكية عامة واعتبارا لهذا المعنى فتصرف الحاكم في بعض الأموال العامة وتقديمها للمنتفعين يسمى رصدا فهو تخصيص الإمام غلّة بعض أراضي بيت المال لبعض مصارفه مثل أن يجعل الحاكم غلة بعض الأصول العامة التابعة لبيت المال على مصالح عامة، كالمساجد والمدارس ونحوها[82].

الفرع الثاني: الوقف أو الإرصاد:

ترتب عن المدارس الفقهية للوقف و الإرصاد توجهان في العلاقة بين الوقف والإرصاد:

الاتجاه الأوّل: الوقف غير الإرصاد، وهذا توجيه الحنفية والحنابلة، كما يتبين فيما يلي:

يذكر عن ابن عابدين الحنفي: أنّ أوقاف الملوك والأمراء إن علم ملكهم لها بالشراء صحّ وقفهم لها وروعي فيها شرط الواقف وإن لم يعلم شراؤهم لها ولا عدمهم فالظاهر أنّه لا يحكم لصّحة وقفها... بل يحكم بأنّ ذلك السلطان الذي أوقفها أخرجها من بيت المال وعينها لمستحقيها... عونا لهم على وصولهم إلى بعض حقهم من بيت المال فهو إرصاد لا وقفا حقيقة. وقال ابن عابدين تعليقا على قول الحصكفي[83]: الإرصاد من السلطان ليس بإيقاف البتّة وإنّما لم يكن وقفا حقيقة لعدم ملك السلطان له، بل هو تعيين شيء من بيت المال على بعض مستحقيه[84].

---

[79] مطالب أولي النهي، 278/4، طبع المكتب الإسلامي.

[80] رد المحتار على الدر المختار، 376/3، والموسوعة الفقهية، ج 107/3.

[81] شرح حدود ابن عرفة، ط المكتبة العلمية 1350هـ، ص 409.

[82] حماد، (نزيه)، معجم المصطلحات الاقتصادية، ص50، (بتصرف).

[83] **الحصكفي:** محمد بن علي بن عبد الرحمان بن محمد الحصني المعروف بعلاء الدّين الحصكفي(1025-108هـ=1616-1677م) هو فقيه، أصولي، محدث، مفسر، نحوي، مفتي الحنفية في دمشق، حيث ولد وتوفي بها (ويكبيديا).

[84] ابن عابدين الدر المختار وحاشية (رد المحتار), 195/4.

وقد أفتى أبو السعود[85] أنّ هذه الأموال هي من بيت مال المسلمين وليس من مال الحاكم[86].

وقد أطلق الحنفية مصطلح الارصاد أو التخصيصات لتمييزه عن الوقف الحقيقي لكون الملك من شروط الوقف، والحاكم لا يملك المال العام[87].

أمّا الحنابلة فلا يعتبرون وقف الإمام من بيت المال وقفا حقيقيا لأنهم يشترطون أن يكون الوقف من مالك، لذلك أقروا من جهة الارصاد وتخصيص شيء من بيت المال على بعض مستحقيه ليصلوا إليه بسهولة[88].

الاتجاه الثاني: أنّ الوقف والإرصاد معنى واحد، وهو رأي المالكية و الشافعية، وذلك أنّ الإرصاد حين يكون من الإمام فهو اعتبار أنّ الإمام بمنزلة وكيل الوقف، فلم يختّل فيه شرط الملكيّة غير أنّ أخص من الوقف باعتباره لا يكون إلاّ من الإمام، والوقف قد يكون من غير الإمام[89].

واعتبرت المالكية أن" وقف السلاطين على الخيرات صحيح مع عدم ملكهم لما حبسوه لأنّ السلطان وكيل عن المسلمين فهو كوكيل الواقف[90]".

وعين المالكية وقف الحاكم من بيت المال على المصالح العامّة، مع أنّهم يشترطون في الواقف ملكية المال المراد وقفه، واستدلوا على ذلك بأن الحاكم في هذا الوقف وكيل عن المسلمين فهو كوكيل الواقف، وقيد القرافي بصحة هذا الوقف بأنه يعتقد بأنه وكيل عن المالك[91].

وكذلك أقرت أئمة الشافعية وقف السلطان من بيت المال بشرط وجود مصلحة راجحة مع إبقائها على بيت المال وقد برهنوا على ذلك بفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سوادُ العراق[92].

الترجيح:

---

[85] **أبو السعود:** محمد بن مصطفى الأفندي الحنفي الملقب بعالم الروم، صاحب كتاب "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم "المشهور بتفسير أبي السعود ، توفي سنة 982هـ(البدر الطالع،ج1، ص261، والنور السافر، ص215).

[86] الحموي، غمز عيون البصائر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص334.

[87] ابن عابدين، رد المحتار، دار الفكر، ط2، بيروت، 1386هـ، ج4، ص184.

[88] البهوتي، دقائق أولى النهي، المكتب الإسلامي، ج2، ص424.

[89] الموسوعة الفقهية، ج107/3.

[90] الصاوي، أحمد بن محمد، حاشية الصاوي على الشرح الصغير.

[91] القرافي، الفروق، عالم الكتب، بيروت،ج3، ص6.

[92] الهيثمي، تحفة المحتاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج5، ص412 (بتصرف).

كشفت الأراء الاختلاف القائم بين المذاهب الإسلاميّة الأربعة في مسألة تعيين كلّ من الوقف أو الإرصاد وهذا يدّل على متانة العلاقة بينهما، فالفرق بين الارصاد والوقف أنّ العين الموقوفة ملكا للواقف، وفي الإرصادات كانت لبيت المال[93].

القول الراجح التوّجه الثاني لقوة حجته باعتبار أنّ صاحب الدولة راع لهذا المال ويخوّل له وقفه كوكيل على الواقف خاصة في الظروف الطارئة.

الفرع الثالث: التكييف الفقهي لوقف المال العام:

وضع الفقهاء المسلمون شروطا في تنفيذ الوقف من المال العام وصنفوا هذه الشروط إلى موانع و مبيحات، وذلك بسبب بعض المحاذير التي خشوا من الوقوع فيها.

- الموانع الشرعية للوقف من المال العام:

- تصريف هذه الأوقاف في أمور غير جدية والتفويت فيها استخفافا لغير فائدة تعود للمصلحة العامّة.
- استغلال الوقف من أجل المحاباة أو إرضاء لذوي القربى أو المعارف أو أصحاب المصالح، كما ورد في الدر المختار وحاشية ابن عابدين: وإن كان على معين وأولاده فانه لا يصحّ حتى وإن جعل آخره للفقراء[94].
- توجد أموال لبيت المال لا يجوز وقفها مثل مال الزكاة، والأموال التي هي مشتركة بين عموم الناس أو هي ملكية عامة مثل الماء والبترول والغاز ونحوه[95]...
- وقف مال لغاية تتطلب أقل من الموقوف.
- أن يقع الوقف على شخص أو أشخاص لا تشملهم مصارف المال العام.
- أن يوجه الوقف من الحاكم غير العادل إلى جهة تعينه سياسيا أو طائفة تدعمه

أو مرتبط بها أو ساعدته في اعتلاء كرسي الحكم.

- وجود بعض الفساد أو انتهاك للقوانين الشرعية في وقف المال العام.
- تكريس وقف المال العام لمشاريع وانجازات أولى من الوقف.

---

[93] الموسوعة الفقهية الكويتية ، الكويت،ج3،ص107.

[94] ابن عابدين رد المحتار على الدر المختار، ط إحياء التراث، 393/3.

[95] القره داغي، (علي محي الدين علي)، مقال وقف المال العام أحكامه وآثاره (دراسة فقهية مقارنة)، منتدى قضايا الوقف الفقهية الثامن، الكويت،2017، ص94.

ولئن تعددت الموانع فإنها تدّل على قيمة وقف المال العامّ وحرص الفقهاء على تصريفه وفق ضوابط شرعية وتصرّف الحاكم فيه تلبية للمنفعة العامّة باعتباره مؤتمنا عليه.

- أهمية وقف المال العام ومدى مساهمته في مواجهة جائحة كورونا:

كما ضبط فقهاء الإسلام الموانع سعيا للفائدة العامّة كذلك أقرّوا مجموعة من المبيحات لوقف المال العام: أسوة برسولنا الكريم - محمد عليه الصلاة والسلام -و قد تولى الوقف بنفسه من خلال أراضي مخيريق. والاقتداء بالصحابة : وقف عمر- رضي الله عنه- سواد العراق بمحضر من الصحابة وجعل منها خراج، كما أسس ديوان بيت المال للقيام على الأراضي[96].

- للمصلحة أي ما يفيد المسلمين، قال الإمام ابن تيمية لولي الأمر أن ينصب ديوانا مستوفيا لحساب الأموال الموقوفة عند المصلحة[97].
- لسدّ الذرائع (الذرائع هي ما ظهرها مباح ويتوصّل به إلى المحظور)[98] وحماية المال العام من وضع اليد عليه من قبيل عوام الناس أو أصحاب السلطة ونجد في فقه الحنفية أنّه إذا أبّده على مصرفه الشرعي يثاب، لا سيّما إذا كان يخاف عليه أمراء الجور الذين يصرفونه في غير مصرفه الشرعي[99]، ونقل القرافي[100] قول ابن وهب: فقد أفاد أنّ المراد من هذا الوقف تأبيد صرفه على هذه الجهة المعنية التي عينها السلطان ممّا هو مصلحة عامّة[101].
- لتفادي التأميم وقد تفطن فقهاء الإسلام إلى محاولات بعض الأمراء والسلاطين الاستيلاء على بعض الأموال العامة.
- حفاظا على أمن واستقرار الجماعة لاعتبار أنّ غياب الوقف للأموال العامّة يمكن أن يثير نزاعات بين الأفراد تتسبب في الفوضى وتزعزع بذلك الكليّات الخمس (الدين، العقل، النفس، المال، النسل، العرض).

---

[96] ابن الملقّن، البدر المنير، دار الهجرة السعودية 2004، هـ552/5، وابن حجر، التلخيص الحبير، العلمية 281/2، وحاشيتا قليوبي وعميرة علي شرح المحلي ،18/2.

[97] ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، دار الكتب العلمية، 1408هـ، 284/4.

[98] القرافي، الفروق، 32/2.

[99] البحر الزاخر الجامع لمذاهب علماء الامصار، 25/5.

[100] **القرافي**: هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمان القرافي، من فقهاء المالكية، انتهت إليه رياسة الفقه على مذهب مالك، توفي سنة 684هـ، من مؤلفاته: "الذخيرة في الفقه" و" الأحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام".(الديباج المذهب62، شجرة النور الزكية188/1).

[101] أنوار البروق في أنواء الفروق، 7/3.

- يساهم وقف المال العام في إعادة توزيع الثروة على الفئات الاجتماعيّة وتداولها بين المنتفعين بمختلف مستوياتهم.
- يساهم الوقف في بناء وحدة المجتمع اعتماد على الآيات والأحاديث أنّ المؤمنين أمّة واحدة، وهنا يأتي دور الواقف وهو السلطان أو الحاكم ليدعم التكافل الاجتماعي في مختلف مجالات الحياة فأجاز الفقهاء لولي الأمر أن يخصص جزء من المال العام لخدمة المصالح العامة، إلا أنهم لم يتفقوا على اعتباره وقفا حقيقيا، ومثال ذلك وقف عثمان رضي الله عنه بئر رومة لفائدة المسلمين[102].

وبناء على ما تقدم، يجوز للإمام وقف المال العام وأحيانا تقتضي الضرورة ذلك حفاظا على الأمة وأفرادها والتزاما بضوابط الشرع وحسب ما تقدم أيضا أنّ التصرف في الأموال العامة ووقفها خاضع لظروف الأمة ومتطلبات المجتمع ومتغيرات العصر لا بدّ للواقف أن يراعيها وأما اشتراط تحقق المصلحة من وقف المال العام فهي بديهية اعتمادا على ما تنصه القاعدة الفقهية " تصرفات الإمام على الرعية منوطة بالمصلحة[103]". تباعا للمسؤولية المنوطة بيد الحاكم وتحميله أمانة الحفاظ على حياة الأفراد وأمنهم كان لا بّد له أن يكون راع وحام لها في بعض الظروف الطارئة مثل (جائحة كورونا) ويمكن اعتبار النتائج الذي ولدتها هذه الجائحة أسبابا مساهمة في اتّخاذ الحاكم جملة من الإجراءات في مواجهتها وأهمّ مصدر يمكن اعتماده الأموال العامّة الموقوفة، كتخصيص بعض المدارس العمومية أو دور الثقافة في تقديم التلاقيح أو تخصيص مقدار من المال المستّمد من الأموال العامة في شراء مستلزمات وقائيّة مثل الكمامات أو المعقم وتقديمها للموظفين العموميين أو للفقراء، وتخصيص نسبة ماليّة من الأموال العامّة ووقفها على بعض من أضرت بهم جائحة كورونا وكادت تضعهم على خط الفقر أو إنقاذ بعض المشاريع الصغرى من الإفلاس والمؤسسات صيانة لكرامة العاملين فيها، ساهمت الدولة في تمويلها حتى تتمكن من النهوض من جديد كما أجري ذلك في العديد من الدول العربيّة والغير العربيّة.

المبحث الرابع: استعمال ريع الوقف في مواجهة جائحة كورونا

المطلب الأوّل: ريع الوقف:

---

[102] القره داغي، (علي محي الدين علي)، مقال وقف المال العام أحكامه وآثاره (دراسة فقهية مقارنة)، منتدى قضايا الوقف الفقهية الثامن، الكويت،2017، ص94 بتصرف.

[103] انظر تطبيقات هذه القاعدة، السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1403ه، ص121.

-لغة:

الريع لغة: النماء والزيادة[104].

قال الأزهري[105]: الريع فضل كل شيء على أصله[106].

-اصطلاحا:

ولا يخرج معنى الريع عند الفقهاء عن معناه اللغوي فهم يعرفون الريع بأنّه غلة المال وثمرته، ككراء الأرض وأجرة الدابة وثمرة الزرع[107].

ريع الوقف هو: تأصيل جزء من مال الوقف المغلّ لعمارة أصل الوقف، أو زيادة أصول متصلة به من أبنية أو غراس اقتضتها مصلحة الوقف الموجود، أو لإنشاء أصول جديدة، وإعطائها حكم الوقف، بحيث يعود ريعها للمستحقين[108].

وهو ما يخرج من الوقف من أجرة وغيرها[109].

فالمقصود من ريع الوقف غلة الوقف وثمرته.

وريع الوقف من حقّ الموقوف عليهم وملك لهم، سواء كانوا معينين كأولاد زيد، أو غير معينين كالفقراء والمساكين[110].

لا بد من حسن استثمار ريع الوقف وفق صيغ مشروعة حتى لا تقع المخاطرة أو المجازفة بالغلّة.

وقد أدركت بعض الدول دور الوقف وأهمّيته في تمويل بعض الشدائد والمساعدة التي يمكن أن يقدمها للمصلحة العامة وخير مثال على ذلك سلطنة عمان فقد تفطنت إلى قيمة الوقف كمصدر تمويل فأنشأت صندوق وقفي للخدمات الصحيّة في إطار مواجهة الجائحة العالمية كورونا، وقد أدرج مرسوم سلطني رقم 99/6 بتحديد اختصاصات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية واعتماد هيكلها التنظيمي، وإلى قانون الأوقاف

---

[104] مختار الصحاح مادة (ربع).

[105] **الأزهري:** هو العلامة أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي اللغوي الشافعي...و له كتاب "تهذيب اللغة" المشهور، و كتاب "التفسير"، وكتاب" تفسير ألفاظ المزني"، و "علل القراءات"، "الروح"...،مات في ربيع الآخر سنة سبعين وثلاثمائة عن ثمان وثمانين سنة.(الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء،ج16،ص316).

[106] المصباح المنير مادة (ربع).

[107] حاشية ابن عابدين 444/5،و شرح منتهى الإيرادات 490/2.

[108] (شبير) محمد عثمان ، مقال تأصيل ريع الوقف في الفقه الاسلامي ص 19، سلسلة ندوات (6)، دولة الكويت الطبعة الاولى 2016م.

[109] ابن عابدين، قرة عين الأخيار، 336/8.

[110] الاختيار 41/3، ومنح الجليل 83/4، ومغني المحتاج 376/2، 389-390، شرح منتهى الإرادات 489/2.

الصادر بالمرسوم السلطاني رقم 200/15 وتعديلاته، وإلى اللائحة التنفيذية لقانون الأوقاف الصادرة بالقرار الوزاري رقم 2001/23 وتعديلاتها، وإلى التنسيق بين وزارة الأوقاف ووزارة الصحة[111].

لتثبيت دور الوقف وتطوير مساهماته العمليّة في الدولة وجب إنشاء صناديق وقفيّة خاصّة بحالات الطوارئ.

وتُضبط طريقة توزيع ريع الوقف حسب ما نصت عليه وثيقة الوقف، من خلال نوعين من الوقف: الوقف المشترك، ولا يخضع لنظام الطبقات أي أن يجعل استحقاق غلّته ومنافعه لجميع الموقوف عليهم دفعة واحدة، يشترك فيه من يجد منهم، دون أن يتقدم بعضهم على بعض في الاستحقاق، كالوقف على الفقراء والمساكين، أو على طلبة العلم أو على ذرية فلان بدون ترتيب، وآخر يعتمد التصنيف الطبقي المرتب ذلك أن يجعل الموقوف عليهم جميعا طبقات مرتبة كالوقف على أولاده وذريته بطنا بعد بطن، والوقف على أولاده لصلبه، ثّم إخوته وأخواته، ثّم على الأقارب، ثّم على جهات برّ[112].

إلاّ أنّ هذا التوزيع لا يمكن أن يلتزم به الواقف في ظروف جائحة كورونا فالأولوّية لصناديق الوقف الصحيّة إلى حين مواجهة هذه الجائحة لتعود طريقة التوزيع إلى نظامها الأوّل.

يتكفل الوقف بالإنفاق على المسلمين وخدمة المصلحة العامة من ريع الوقف، فهو يعتبر من أهم المساندين للدولة في مواجهة بعض الظروف الطارئة التي تخل باستقرار البلاد في مختلف المجالات، فالوقف مؤسسة مكملة لبقيّة مصادر الدولة في تقديم الخدمات للمجتمع والنهوض به اقتصاديا وصحيّا واجتماعيّا ولا يبرز هذا التّكامل إلاّ في بعض الأزمات التي تجتاح الدولة.

لذلك لا بدّ من مراعاة ما يظهر من أزمات وطوارئ على البلاد كما وقع في فترة ظهور فيروس كورونا المستجد ذلك أنّ بعض الدول أمام عجزها في التّصدي لمثل هذه الجائحة قد تلجأ إلى الوقف والاستدانة منه.

المطلب الثاني: حُكم الاستدانة من مال الوقف:

للوقف دور كبير في مساندة الدولة لبعض الطوارئ التي تشهدها فكان لزاما عليها تمويلها ومساعدتها[113] وهذا يتطلب التزام الناظر وعدم تصرفه المباشر أو الشخصي في مال الوقف وتعود أسباب لجوء الدولة إلى الاستدانة من مال الوقف في ما يلي:

---

[111] (عبد المجيد العاني) أسامة، مقال الوقف زمن كورونا(2)، مجلة الاقتصاد الإسلامي، كلية الفارابي، بغداد، العراق، ص2.

[112] الزحيلي (وهبة)، رؤية اجتهادية في المسائل الفقهية المعاصرة للوقف، دار المكتبي، سوريا-دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1997م، ص57-58 (بتصرف).

[113] خيرة ويفي، دور التمويل الوقفي في تحقيق التنمية المستدامة، ص31 (بتصرف).

- قد لا تفي المصادر المحلية بحاجات الحكومة المالية وتمويلها.

- حضور التعامل بالربا في إقراض الدولة.

- عجز ميزانية الدولة في الإيفاء بسبب الظروف الطارئة والقوة القاهرة.

وقد رأى البعض أنّ الدولة يمكن أن تنتفع بريع الوقف من خلال الاستدانة إلاّ أن الفقهاء اختلفوا في مسألته: فالبعض جوزه والبعض الآخر عارضه.

القول الأول: لا يجوز: إن كان ريع الوقف عاجزا عن الإيفاء بمتطلبات الوقف نفسه ولا يكفي لمصاريفه، فلا يجوز الاقتراض منه، لانّ الأولوية له ويمكن أن يقع بسبب الاقتراض عجز في مال الوقف، ومراعاة لشرط الواقف ما أمكن، إذ الأصل حفظ الوقف والغلة[114].

ومن أنصار هذا الرأي بعض الحنفية[115]، والحنابلة[116] بل يعتبروه سبب لعزل ومحاسبة ناظر الوقف وهنا يمكن الاستدلال بقول البهوتي: كون مقترض يصحّ تبرعه، فلا يقرض نحو ولي يتيم من ماله، ولا ناظر وقف منه[117].

وقال ابن نجيم[118]:القيّم ليس له إقراض مال المسجد، قال في جامع الفصولين: ليس للمتولي إيداع مال الوقف والمسجد إلاّ ممن في عياله ولا إقراضه، فلو أقرضه ضمن وكذا المستقرض[119].

القول الثاني: يقول بالجواز، يجوز الاستدانة من مال الوقف إذا كان للوقف مال يفي بمتطلباته ومصاريفه و حصل فائض[120]، ففي هده الحالة ذهبت الحنفية والشافعية إلى جواز الاقتراض من مال الوقف بثلاثة شروط[121]:

---

[114] حاشية البجيرمي، 274/2.

[115] ابن نجيم، البحر الرائق 295/5.

[116] البهوتي، شرح المنتهى الإرادات 1000/2.

[117] م.ن، 225/2 (بتصرف).

[118] **ابن نُجيم**: هو زيد الدين بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن نجيم المصري الحنفي، الإمام الفقيه، ولد سنة 926هـ، وله مصنفات: البحر الرائق شرح كنز الدقائق في الفروع، حاشية الفصولين...(ابن نُجيم، الأشباه والنظائر، ص30).

[119] ابن نجيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، 209/5، (البغدادي)غانم بن محمد، ط دار الكتاب الإسلامي، ص:333.

[120] مريم عبد الرحمان أحمد، نوازل الوقف المتعلقة بجائحة فايروس كورونا المستجد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية،2002، ص291، (بتصرف).

[121] حاشية البجيرمي، 214/3، (الأنصاري) زكريا، الغرر البهية، 68/3.

- عند توفر مصلحة ومنفعة تقتضي ذلك، قال زكريا الأنصاري[122]: للإمام أن يقرض من مال بيت المال، إذا رأى المصلحة فيه[123].

- أنّ ما يستقرض يكون فائضا عن حاجة الوقف ومصاريفه.

- توثيق القرض: توفير كل الضمانات التي تخول للوقف استعادة المال المقترض من الدولة وضمان استرداده حفاظا على تلفه، من ذلك ما ورد في المادة 45 من مشروع قانون دولة الكويت بأنّه لا يجوز للناظر أن يستدين على عين الوقف، ويجوز له أن يستدين على ريع الوقف وفقا للشروط والضوابط الواردة باللائحة التنفيذية، كما نصت المادة78 على أن لديون الوقف ما لديون الحكومة من امتياز على أموال المدينين، ويتمّ تحصيلها بنفس الطرق المقررة لتحصيل أموال الدولة[124].

ويجوز لوزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أن يستدين من ريع الوقف الخيري المشمول بولايته لمصلحة الأوقاف الأخرى على أن يرد الدين من ريع الوقف المدين. وخلاصة مذهب الحنفية أنّهم لم يجيزوا الاستدانة إلا في حالة الضرورة أو الحاجة، وبضوابط حيث ذهب بعضهم إلى عدم جواز الاستدانة مطلقا إلا في حالة الضرورات التي تبيح المحظورات، مثل أن يكون الوقف مهددا بالفناء أو النقص المخل، ويجيز جمهور الشافعية الاستدانة على الوقف عند الحاجة إن شرط له الواقف أو أذن له القاضي ولذلك لو اقترض من غير إذن القاضي ولا شرط من الواقف لم يجز ولا يرجع بما صرفه لتعديه به وعلى ضوء ذلك أجازوا للناظر أن يستدين من مال نفسه أو من مال غيره وفي حالة الاستدانة من ماله فإنّ مقتضاها أنّ الناظر يتّولى الطرفين حينئذ[125].

فهذا الرأي الأول يساهم في الحفاظ على استقرار الدولة و تأمين الأفراد كما فعل عمر رضي الله عنه بالأراضي المفتوحة، حيث أوقفها حتى يكون للدولة مورد ثابت يعينها في نوائبها ولذلك قال عمر رضي الله عنه:

---

[122] **أبو زكريا الأنصاري**: هو أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، الخزرجيُّ أصلا، السنيكيّ مولدا، القاهريّ إقامة، الأزهري علما(824/1421م-926هـ/1520م)، المعروف بـ"شيخ الإسلام"، و"زين الدين" و" القاضي زكريا" (ابن العماد الحنبلي، ج10ص186،على موقع واي باك مشين).

[123] الأنصاري) (زكريا)، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، ط المطبعة الميمنية، (د.ت)، 86/3.

[124] مريم عبد الرحمان أحمد، نوازل الوقف المتعلقة بجائحة فايروس كورونا المستجد، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية،2002، ص292، (بتصرف).

[125] تحفة المحتاج (289/6).

لولا أن أترك آخر الناس ببانا[126] ليس لهم من شيء، ما فتحت على قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض خيبر ولكن أتركها خزانة لهم[127].

ويجوز الإقراض للدولة في حالات الطوارئ حيث ذكر الفقهاء أنه يجوز للدولة أن تقترض من أموال الوقف في حالة حدوث نائبة[128].

كما ظهرت إلى جانب الشروط ضوابط وضعها الفقهاء حفاظا على مال الوقف، وهي كالآتي:

- موافقة القاضي، أو وجود شرط الواقف الذي: أذن فيه بالاستدانة.
- أن تكون هناك حاجة لهذه الاستدانة، وأن يترتب عليها مصلحة للوقف أو درء مضرة ومفسدة عنه، وبعبارة أخرى أن تكون الاستدانة محققة لمصلحة، بحيث يكون الوقف بالاستدانة قادرا على الاستمرارية أو التطور والتنمية.
- أن تكون الاستدانة بطريقة مشروعة.

التّرجيح:

والأرجح من القولين القول الثاني لأنّ القائلين به وضعوا في اعتبارهم ما يمكن أن تتسبب فيه بعض الظروف الطارئة التي تؤثر سلبا على البلاد وكذلك ما يمكن أن ينتج عن بعض لنوازل أو الشدائد التي تتطلب تضافر جميع منابع التمويل بما في ذلك ريع الوقف تلبية للحاجيات وتفاديا لما يمكن أن تتسبب فيه هذه النوازل مثل كوفيد-19 من انهيار يجب على الدولة أن تواجهه ولا يمكنها بمفردها خاصة إذا كانت التمويلات الأخرى ضعيفة، فالحل المناسب هو اللجوء إلى الاقتراض من ريع الوقف.

كما لا يفوتني أنّ ريع الوقف يحدّ من الأطماع الخارجية وادعاءهم المساعدة لذلك فمساهمة الوقف في إصلاح ما تسبب فيه الكوفيد-19 من نتائج وخيمة يحافظ على مناعة البلاد واستقلالها.

---

[126] ببانا: أي معدما لا شيء له.

[127] أبو يوسف، الخراج، ص 24.

[128] فتح القدير (241/6).

الخاتمة:

ختاما، وبعد البحث العميق في مسألة نوازل الوقف المتعلقة بجائحة كورونا تبينتُ ما لمؤسّسة الوقف في الحضارة الإسلاميّة عبر العصور من قيمة وضرورة ملحة لحاجة المجتمع والدولة إليها، وما يمكن أن تشهده هذه المؤسسة من تطور وفق ما تتطلب الظروف وقد أقر بذلك فقهاء الإسلام وعلماء الشريعة.

النتائج:

وقد خلصتُ في البحث إلى عدّة نتائج أذكر أهمّها:.

- ينقسم شرط الواقف إلى شروط باطلة، وشروط صحيحة، وشروط صحيحة يمكن أن تتغيّر لما يطرأ عليها من المستّجدات.
- مراعاة شرط الواقف ويجوز تغييره عند الضرورة أو المصلحة أو حالات الطوارئ، والرجوع إليه متى انتهت الحاجة (مثال جائحة كورونا).
- وجود فارق جوهريّ بين وقف المال العام والإرصاد.
- أجمعت المذاهب الفقهية الأربعة على جواز وقف المال العام في حالة الطوارئ التي تواجهها الدولة ضمانا و حفاظا على مصلحة البلاد والعباد.
- إباحة انتفاع الدولة من ريع الوقف بالاستدانة لتمويل نفقات جائحة كورونا متى توفر فائض عن أصله، و انعدم وجود مصدر تمويلي آخر، مع الإيفاء بشروط ثلاثة: المصلحة، وتوثيق القرض، والضمان.
- حوكمة مال الوقف التي تعمل على ترشيد القوانين وترسيخها وضبط حسن التصرف في الريع حماية له من الفساد المالي والإداري.

التّوصيات:

أوصي في نهاية هذا البحث، واعترافا بقيمة مؤسّسة الوقف كمصدر شرعيّ، بما يلي:

- نأمل من البلاد التّونسيّة إعطاء أهمية لمنظومة الوقف و اعتبارها أحد مصادرها الأساسيّة في معالجة الأزمات في الظروف الطارئة.
- الاهتمام بمؤسّسة الوقف والعمل على تطويرها وفق ما تتطلب التقنيات الحديثة وتقريبها من الواقع وتركيز الصيغ الاستثماريّة الجديدة.

- نشر ثقافة المؤسّسات الوقفيّة بين المؤسّسات الحديثة والمجتمع المدني والتّأكيد على قيمتها ونجاعتها في تحقيق التنمية المستدامة ودفعها عبر الندوات والمحاضرات وغيرها من الوسائل.

في ختام هذا البحث، أرجو أنّني قد وُفّقتُ في التطرّق إلى أهمّ جوانبه، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله تعالى وما كان فيه من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان واستغفر المولى عز وجل منه هذا والله تعالى أعلم بالصواب، سائلةً المولى العلي القدير أن يبارك لنا وأن يعيننا على خدمة ديننا وتطبيق شريعتنا الإسلامية في حاضرنا ومستقبلنا، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا الحمدُ لله ربّ العالمين.

التحليل السيميائي في الخطاب الروائي الصوفي

– قواعد العشق الأربعون نموذجا –

محمد امفزع

دكتوراه في الأدب الحديث

مقدمة

يُعدّ الخطاب الروائي الصوفي مجالاً خصباً للدراسة والتحليل، لما يحمله من أبعاد دلالية عميقة وتراكيب سردية معقدة تعكس تجليات التجربة الروحية. وفي هذا السياق، تبرز أهمية التحليل السيميائي كأداة منهجية فاعلة لكشف الطبقات الخفية للمعنى، وفهم الآليات التي تتشكل بها الدلالة داخل النصوص. يتناول هذا المقال بالتحليل السيميائي رواية "قواعد العشق الأربعون"، محاولاً الغوص في بنياتها الخطابية والسردية للكشف عن كيفية بناء المعنى وتوجيه التأويل.

تتمحور إشكالية هذا المقال حول كيفية مساهمة البنيات السيميائية، وتحديداً بناء الممثلين واستخدام الضمائر، في تشكيل الخطاب الروائي الصوفي وتوجيه مسارات التأويل، مع تطبيق ذلك على رواية "قواعد العشق الأربعون". يسعى المقال للإجابة عن سؤال رئيسي: كيف يتم بناء الدلالة والمعنى في هذا النوع من الخطاب من خلال تحليل آليات التخطيب وبنية الضمير، وما هو الدور الذي يلعبه كل من الممثل والسارد في هذه العملية؟

أولا: البنيات الخطابية

أ- بناء الممثل

ب- بنية الممثلين في المتن السردي

ثانيا: الضمير وتسريد الحكي

أ- ضمير المتكلم "أنا"، الحضور المستر

ب- ضمائر ممثلي السرد

أولا: البنيات الخطابية

يمثل المكون الخطابي تمظهر البنية الدلالية في المستوى الخطابي عبر تحويل الشكل المجرد للمربع السيميائي والبنيات الأولية للدلالة إلى بنيات خطابية ظاهرة، وتتحدد إجراءات التخطيب في النحو الخطابي من خلال عمليات تأسيس الممثل باعتباره فاعلا إجرائيا لتحريك الفعل، ثم رصد بنيات التجذير واللاتجذير وتحيين فضاء التلفظ بما يجعل من تراكم صور الخطاب محفلا دلاليا يخلق دينامية تأويلية وفق مجموعة من العناصر من بينها: تأسيس الممثلين وذلك من خلال بناء الممثل، وبنية الممثلين في المتن السردي.

تفرز هذه الآليات الخطابية شكل العلاقات فيما بين عوامل التواصل وطبيعة العمليات التي تتحكم في إنتاج الدلالة، ووفق بعد تداولي يساهم في بناء التأويل، ويتعالق المكون السردي بالمكون الخطابي عبر عملية التحول التي تضبط شكل التوافق بين الفعل التركيبي ووظيفة العامل، أي تحديد المسار السردي لوضعية العامل الذات في علاقات التناقض أو الانسجام، والاتصال أو الانفصال التي يؤسسها مع باقي العوامل، كما يتحدد موقعه داخل برنامج سردي وبرنامج جيهي يحققان إمكانية المرور إلى تأسيس الممثلين في المستوى الخطابي وتأسيس ازدواجية الأدوار، الدور العاملي والدور التيماتيكي.

أ- بناء الممثل

يشكل الممثل وحدة معجمية إسمية تحدد توظيفات التركيب السردي السطحي للسيميائية الخطابية، بحيث يتعلق مضمونها الدلالي بالسمة الدلالية للشخصنة individuation بما يجعل منها صورة تظهر مستقلة عن الكون السيميائي، حيث يساعد هذا التحديد لمفهوم الممثل على تصنيفه منظور الفردي L'individuel أو الجماعي Le collectif أو التصويري Figuratif، عبر أنسنة الدور الذي يسند لعوامل السرد ضمن أشكال الاستجابة والتفاعل لدى الفرد، أو تحريك الجماد أو إنطاق الحيوان، ويتم إضفاء سمة الأنسنة Anthropomorphe على الممثل من خلال منحه علامة إسمية يمكن معها أن يحدد إحالة مرجعية وأن يحصل على دور تيماتيكي، كما هو الشأن مثلا مع أدوار الممثلين الصوفي والمتعصب والقاتل وغيرهم، فالممثل بهذا التحديد "هو فضاء لقاء واتصال بين البنيات السردية والبنيات الخطابية، بين المكون النحوي والمكون الدلالي، لأنه ينجز في ذات الوقت، على الأقل، دورا عامليا ودورا تيماتيكيا، وهما دوران يحددان قدرته وحدود فعله أو حدود كينونته"[1]

[1]- A. J. GREIMAS, Du Sens II,Essais sémiotiques, Edition du Seuil, 1983, P 25.

بهذا المعنى يشكل الممثل فضاء لتمفصل الدور العاملي والدور التيماتيكي فإذا كان العامل يتميز بطبيعته التركيبية فإن للمثل طبيعة دلالية، فلكي يتحقق دور الممثل يجب تحقق الشرطين الدلالي والتركيبي بأن يحقق دورا عامليا ودورا تيماتيكيا، ويرتبط الدور التيماتيكي بالممثل، باعتباره دورا دلاليا، وهو وحدة خطاب يحيل في التحديد الكلاسيكي على مفهوم "الشخصية"، كما يرتبط الممثل، من ناحية التنظيم البنيوي، بعناصر البنية العاملية التي تقوم على الحالات والتحولات والجهات، وبعناصر المستوى الخطابي، بما يخلق في هذا المستوى تراكبا بين البنية العاملية وبنية الممثل.

يشكل الممثل صورة حاملة لدور أو عدة أدوار عاملية وتيماتيكية تحدد موقعه داخل البرنامج السردي، ويحدد الدور التيماتيكي ارتباطه أو انتماؤه لمسار أو عدة مسارات تصويرية، لما يمثله من تكثيف للمسار التصويري في الخطاب، كما يحدد الدور العاملي موقعه التركيبي في البناء السردي، بعبارة أخرى يشكل العامل "دعامة لوظيفة تواصلية أساسية، تنتمي للتركيب السردي بينما يشكل الممثل وحدة معجمية دلالية ترتبط بالدور المزدوج الذي يقوم به الممثل الذي ينتج عن الجمع بين الدور العاملي والدور التيماتيكي"[2]

تتحدد علاقة الممثل بالدور العاملي من الناحية التركيبية بمجموعة من الأدوار العاملية، والتي تتحدد مورفولوجيا في المتن السردي ضمن المحتوى الجهي للإرادة الذي تعكسه الرغبة في إنجاز الفعل، وهو ما يجعل الممثل، من موقع الأدوار العاملية التي يملؤها، يرتبط كذلك داخل التركيب السردي السطحي، بواحد أو بمجموعة من الأدوار التيماتيكية التي تشيد المكون الدلالي للخطاب في البناء السردي، وتجعل منه موقعا لتمفصل البنيات السردية والخطابية.

يقوم الدور التيماتيكي باختزال البنية التصويرية في الخطاب إلى مسار تصويري واحد بحيث يسند هذا المسار إلى ممثل كفؤ يقوم بالإنجاز ويملأ موقعا أو عدة مواقع عاملية في المسار السردي، كما تحدد ازدواجية الربط بين الأدوار العاملية والأدوار التيماتيكية دور الممثل، ويرى غريماس "أن مفهوم العامل ذو طبيعة تركيبية ويظهر من تحديد أولي أن مفهوم الممثل لا يرتبط بالتركيب بل بالدلالة، إن الممثل لا يشتغل كعامل إلا إذا اشتمله التركيب السردي أو التركيب الدلالي"[3] كما يتميز الممثل "بأنه استثمار دلالي مجرد ذو طبيعة مفهومية، وليست له أية علاقة ضرورية مع فضاء العالم الطبيعي"[4] إضافة إلى توزيع الممثلين في

---

[2] - عبد اللطيف محفوظ: البناء والدلالة في الرواية، مقاربة من منظور سيميائية السرد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2010، ص: 67.

[3]- GREIMAS, Du Sens II, P 59.

[4] - عبد المجيد نوسي: التحليل السيميائي للخطاب الروائي، البنيات الخطابية – التركيب – الدلالة، شركة النشر والتوزيع – المدارس – الدار البيضاء، 2002، ص: 173.

الخطاب السردي تحكمه قاعدة "التوزيع الاختلافي للمثلين"[5] Distribution differentielle، وهو توزيع يقوم على المفارقة والاختلاف بين الممثلين والذي تتم به دينامية الخطاب إذ يتمثل التوزيع الاختلافي في بنية التناقض التي تجمع بين الممثلين حول تمثل الخطاب الصوفي وخطاب السلطة، التي تجمع بين سلطة السياسة وسلطة الدين، وبينهما خطاب العامة من الناس، في رواية قواعد العشق الأربعون، كما يتحدد التوزيع الاختلافي فيما يتضمنه المتن السردي من اختلاف بين أصناف الشخصيات المرتبطة بالممثل، والتي تحمل مؤشرات الشخصيات المرجعية أو التاريخية أو العابرة.

ب- بنية الممثلين في المتن السردي

تتراوح بنية الممثلين بين التوصيف بأسماء الأعلام، والتي يحضر بعضها بمرجعية تاريخية لها دور استباقي في تأسيس دلالات الخطاب وتتطلب معرفة مرجعية مسبقة، مثال ذلك الشخصيات المرجعية التالية:

جلال الدين الرومي: أحد أكبر علماء الصوفية في القرن الثالث عشر الميلادي.

شمس الدين التبريزي: الصوفي الظاهرة الذي تتلمذ على يديه العالم جلال الدين الرومي.

في حين تمثل أسماء: القاتل، التلميذ، البغي توصيفا للوظيفة التي يضطلع بها الممثل بهدف تنكير وإبهام إسمية الممثل.

وقد يتم الجمع بين إسم العلم والوظيفة، حسن المتسول، بيبرس المحارب، حسام التلميذ، مما يعطي وظيفة الممثل موقع الأولوية بدعم موقعه في المسار السردي وتحديد دوره في تنمية الإيهام والحقيقة في الملفوظ السردي.

بنية الممثلين في قواعد العشق الأربعون	
البنية الدامجة	البنية المدمجة
عزيز زهارا، إيلا روبنشتاين، الزوج ديفد. أفراد أسرة إيلا.	شخصيات تاريخية: شمس الدين التبريزي جلال الدين الرومي شخصيات خيالية: القاتل السيد

[5] - يعود هذا المفهوم لفليب هامون، بحيث يلعب التوزيع الاختلافي للمثلين دورا ديناميا في تنمية المسارات السردية في الخطاب وإبراز الأهمية الطبولوجية للمثلين في المقاطع السردية.

	التلميذ
	المتعصب
	علاء الدين
	كيرا
	كيميا
	سلطان ولد
	حسن المتسول
	سليمان السكران
	بيبرس المحارب
	البغي وردة الصحراء
	حسام التلميذ

ثانيا: الضمير وتسريد الحكي

يقوم البناء السردي في الرواية على بنية ضمير المتكلم "أنا" التي قامت عليها البنية المدمجة في قواعد العشق الأربعون، وتأتي أهمية دراسة الضمير في السرد باعتباره آلية لإنجاز الخطاب ضمن معينات (الأنا – الهنا – الآن) ولكونه كذلك يمثل أداة المشاركة في إنجاز القول لدى عامل التواصل الأول وتحديد وظيفة السارد في الحكاية، وهو ما يجعل من ضمير "أنا" للمفرد المتكلم، قاسما مشتركا في صياغة الملفوظ السردي وبناء الحكي، لأن عوامل التواصل تقوم بتأسيس بنية الضمير النحوي في عملية التلفظ من مواقع الذوات الساردة، الشيء الذي يجعل منها عناصر أساسية في تنظيم دلالات الخطاب وكذا في تنظيم المسارات التأويلية لدى عامل التواصل الثاني، المرسل إليه، وبالتالي فإن الأساس الذي قام عليه اختيار الضمير النحوي "أنا" هو تأسيس خطاب الإرسال.

في هذا الإطار، يميز إميل بنفنست، في دراسته لبنية وعلاقات الإضمار في الفعل، بين مفهومي الضمير الشخصي والضمير اللا شخصي، حيث يرى ضرورة بناء نظرية لغوية تقوم على دراسة التعارضات التي تميز مقولات الضمير، تتجاوز التصور المعجمي الذي يعتبر الضمير تجميعا لعناصر معجمية ونحوية من قبيل ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب، والتي لا تقدم لعناصر الاختلاف والتعارض فيما بينها، في هذا الإطار يقول بنفنست "إن وضع نظام موحد للضمائر يجمعها في شكل متوال ومرتبط بضمائر: أنا، أنت، وهو،

يجعلنا نعمل فقط على تحويل مجموعة من الفروق ذات الطبيعة المعجمية، داخل نظرية شبه لغوية، والتي لا تضيف أي شيء عن عناصر المقولة، أو حول محتواها والعلاقات التي تجمع بين مختلف الضمائر، بالتالي يجب البحث في كيفية تعارض كل ضمير مع الضمائر الأخرى والمبدأ الذي يقوم عليه تعارضها، لأننا لا نستطيع فهمها إلا من خلال ما يحدد الاختلاف والتعارض بينها"[6]

يوضح هذا النص أن اختيار الضمير النحوي في السرد يمثل شكلا من أشكال تنظيم الخطاب وتنظيم الدلالة التي تتحكم في مسارات التأويل، وأن الضمير الشخصي يتحدد من خلال علاقة الزوج "أنا/ أنت"، ويقتضي قول "أنا"، من لدن عامل التواصل، ضرورة استدعاء المخاطب "أنت"، بحيث يؤشر الضمير "أنا" على من ينجز القول ويحدد في نفس الآن الطرف المقابل في التواصل، فاستحضار الضمير "أنت" لا يتحدد إلا من خلال الضمير "أنا"، إن ثنائية "أنا/أنت" هي ما ينظم الشكل السيميائي للقول، "إن أنا تعني الذي يتكلم وتتضمن أيضا قولا على ذمة أنا: فبقولي "أنا"، لا يمكن لي أن لا أتكلم على نفسي. وفي المخاطب، "أنت" تتحدد ضرورة بـ "أنا"، ولا يمكن أن يتم التفكير خارج وضعية غير محددة انطلاقا من "أنا"[7] في المقابل فإن ضمير الغائب يؤشر على قول حول شخص أو شيء معين ليست له علاقة بضمير شخصي، إن "ضمير الغائب ليس بضمير شخصي، إنه صيغة الفعل التي تؤدي وظيفة التعبير عن مقولة الضمير اللا شخصي"[8] يحدد التقابل بين الضمير الشخصي واللا شخصي، في بناء الشكل السردي للمتن الروائي، شكل العلاقة بين عامل التواصل والوظائف التي يملؤها في بناء دلالة الخطاب، كما يحدد من جهة أخرى موقع العامل في الملفوظ السردي بما يجعل منه ساردا وفاعلا في تنظيم الحكي، يؤثر بشكل معين في الإيهام المرجعي لدلالات الحكي.

أ- ضمير المتكلم "أنا"، الحضور المستتر

---

[6]- Emile BENVENISTE. Problème de la linguistique générale, Tom I, Edition Gallimard 1966, P 226.

[7]- BENVENISTE. Ibid, P 228.

[8]- Ibid, P 228.

بالعودة إلى مقولة شمس التبريزي:

عندما كنت طفلا، رأيت الله

رأيت الملائكة

رأيت أسرار العالمين

فإن ما يقدمه هذا الملفوظ السردي من تجاوز لحدود المقبولية، يعود لكونه أنجز بصيغة ضمير المتكلم الذي يجعل الذات تأخذ موقع رؤية الله[9] والملائكة والأسرار، ويجعلها في مواجهة موضوع شكل عنصر خلاف بين علماء الإسلام، وهو رؤية الله يوم القيامة والبعث، ويجعل من الرؤية في زمن الطفولة مجرد أوهام، لكون التأويل في هذه الحالة هو في حاجة لبنية منطقية تسمح بقبول بناء صورة الرؤية التي تنجزها الذات المتكلمة، بالتالي فإن اللغة الطبيعية في هذه الحالة قد أوجدت حلا بلاغيا يسمح بوضع هذا النوع من الملفوظات ضمن خانة المجاز لتفادي السؤال عن كيف رأى شمس التبريزي ما رآه؟ كما وضعت الطريقة الصوفية أجوبة ممكنة تضع الرؤية لدى الذات العاشقة لله هي رؤية المعصوم في اتصاله بنور الخالق، وأنها كذلك هي رؤية الشمول والمخفي لكل الأسرار العابرة في المخلوقات بعد بلوغ درجات العشق الإلهي المنشود.

إن تكرار الرؤية لله والملائكة والأسرار هي مما يخرج بذات ال "أنا" من طبيعتها البشرية الضعيفة المحدودة القوى إلى طبيعة مجازية، تجعل علاقة الذات في تأويل الوجود لا متناهية مقابل ما تقدمه حدود المعرفة البشرية البسيطة لإدراك الحقيقة، وتجعل الأصل الذي يقوم عليه الإيمان هو نفي رؤية الله والملائكة وأسرار العالمين، وفق قدرات المخاطب "أنت"، كحقيقة ثابتة على الأقل في الحياة الدنيا، تتولد عنه أزمة في القول بين القائل، بضمير الأنا، وبين المقول له بضمير أنت، وتجعل من مهام المخاطب الضمني تأويل القول بما يحتمله من دلالة الحقيقة أو المجاز أو كرامات الصوفي الدرويش.

إن حضور "أنا" المتكلم في الزمن الماضي، زمن الطفولة، تعود بالقائل إلى لحظات الطفولة التي يكون فيها السؤال ببراءة عن كل شيء، عن مكان وجود الله والملائكة وأين يغيب أو يذهب الموتى بعد دفنهم، لعل مخيلة الطفولة أوسع مما هي في زمن الرشد، إنها الحرية التي تجعل تخيل أو رؤية الأشياء بالطريقة التي تحضر فيها

---

[9] - اختلف علماء المسلمين حول رؤية الله يوم القيامة، فالمعتزلة الذين أخذوا بمبدأ التعطيل نفوا رؤية الله ونفوا الأحاديث المذكورة في موضوع الرؤية، وأولوا الآيات القرآنية التي تفيد الرؤية مثل قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ القيامة، الآية: 22- 23.

التفاصيل والأفكار، وتمنح لها صور وتبث فيها حياة قبل تقييدها بالمنع والتحريم والتعطيل، حسب تفسيرات التحليل النفسي[10].

إن تأويل فعل الرؤية على بعد مجازي يجعل من رؤية الله وأسرار العالمين إحالة على رؤية ما لا يراه ذوو العقول البسيطة من العوام وتجعل من الرؤية موضوع إشراق تمنحه القدرة على استشراف المستقبل الذي يضع الذات فوق الزمن، تستطيع في هذه الحالة تجاوز وجودها الراهن ورؤية موتها:

- "ارتعش أمام عيني ضوء الشموع المصنوعة من شمع النحل والمنتصبة فوق المنضدة الخشبية المتشققة. وغمرتني هذا المساء رؤية شديدة الإشراق"[11]
- "كنت أريد أن أعرف المزيد عن موتي"[12]

تنكشف للراهب أسرار علوية بظهور ما لا يراه الآخرون، فهو في لحظة إشراق يرى موته في المستقبل، وكأن عامل الزمن ينتفي في هذه اللحظة، الزمن بما هو استمرارية يصير أبديا يتوقف ليتراءى كل شيء للعارف بالله كبرهان عن رفع الحجاب له ليبلغ المشاهدة وأنوار التجلي بالتجرد من كل تفاصيل الحياة الواقعية.

بالتالي يصبح تأويل موضوع الرؤية إثباتا لحضور الأنا مقابل الهو الفاعل الجهول والمتواري خلف الموت، هكذا تنضاف رؤية الموت إلى رؤية الله وأسرار العالمين، ولعل هذه الرؤية تنسلخ عن الزمن بما هو استمرارية لها نقطة بداية ونهاية لتتعالى في المجهول، ما بعد المعرفة التي تطالها قدرة الإنسان العادي، وهي أيضا نوع من تنامي حضور الأنا لدى الذات ستكون له نتائج في شكل العلاقات الجدالية مع باقي ممثلي الخطاب.

ب- ضمائر ممثلي السرد

تتحول بنية الضمير النحوي في التركيب السردي إلى سمة ضرورية، تقوم بإعطاء ذات الخطاب "أنا" مبادرة تأسيس عملية القول، ويصوغ من خلالها ضمير المتكلم علاقة اتصال الذات بالموضوع، بما يشكل موقف عامل السرد من الموضوع، الذي تجسده نماذج الأقوال السردية التالية:

القاتل:

---

[10] - بخلاف الضمير النحوي فإن التحليل النفسي يقوم على مقولات ضمائر الأنا – الهو – الأنا الأعلى، تمثل بنيات إضمار للشعور واللاشعور، وتحيل على بعدين أساسيين، بعد الزمن الماضي الذي تشكلت خلاله سيكولوجية الذات بين الأنا والهو من جهة وبين الأنا والأنا الأعلى الذي يشكل زمن الحاضر، كما يقدم الضمير النفسي إحاطة بالشعور الذي يمثل مضمونا معرفيا.

[11] - إليف شافاق: قواعد العشق الأربعون (رواية عن جلال الدين الرومي)، ترجمة: خالد الجبيلي، دار طوى للثقافة والنشر والإعلام – لندن، الطبعة الأولى، 2012، ص: 43.

[12] - الرواية، ص: 45.

يرقد ميتا الآن. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت عيناه تتبعاني حيثما وليت... [13]

السيد:

لم تعرف بغداد بوصول شمس التبريزي، لكني لن أنسى ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى تكية الدراويش البسيطة التي نمكث فيها.[14]

التلميذ:

ليس من السهل أن تكون درويشا، هكذا حذرني الجميع[15]

الرومي:

نهضت من السرير ونظرت من النافذة إلى الفناء الذي يغمره ضوء القمر. لكن حتى رؤية هذا الجمال الرائع لم تخفف شدة ضربات قلبي أو ارتعاش يدي... [16]

حسن المتسول:

"العذاب المقدس". أنا الأبرص العالق في اليمبوس، الذي لا يريد كثر، سواء أكانوا أمواتا أم أحياء، أن أكون بين ظهرانيهم[17]

البغي وردة الصحراء:

استيقظت هذا الصباح وقد غمرتني رغبة جامحة في الاستماع إلى خطبة الرومي العظيم[18]

سليمان السكران:

قبل حدوث تلك الجلبة، كنت أغفو مسندا ظهري إلى حائط الحانة، لكن الجلبة المنبعثة في الخارج، جعلتني أكاد أخرج من جلدي.[19]

المتعصب:

كانت الكلاب تنبح أسفل نافذتي المشرعة على مصراعيها. استويت في جلستي على السرير، وساورني الشك في أن هناك لصا يحاول اقتحام بيتي.[20]

---

[13] - الرواية، ص: 33.

[14] - الرواية، ص: 70.

[15] - الرواية، ص: 123.

[16] - الرواية، ص: 143.

[17] - الرواية، ص: 152.

[18] - الرواية، ص: 170.

[19] - الرواية، ص: 186.

[20] - الرواية، ص: 221.

علاء الدين:

بالصدفة لم أكن موجودا عندما اعترض الدرويش طريق أبي. فقد خرجت في رحلة لصيد الغزلان مع بعض الأصدقاء.[21]

كيرا:

إن التحسر على قدري لا يجدي نفعا. لكني على الرغم من ذلك، كنت أتمنى أن أطلع أكثر على الأمور المتعلقة بالدين والتاريخ والفلسفة، وعلى جميع الأمور التي يتحدث عنها الرومي وشمس[22]

كيميا:

ولدت في أسرة بسيطة من الفلاحين في أحد سهول طرطوس، وتبناني الرومي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري.[23]

سلطان ولد:

لما كنت الشقيق الأكبر سنا لعلاء الدين، فقد كنت دائم القلق عليه.[24]

حسام التلميذ:

بعد أن سمعت أمورا سيئة وغريبة كثيرة عنه، معظمها من معلمنا، فقد أحسست بالانكماش أنا أيضا عندما رأيته بلحمه ودمه في غرفة دروسنا.[25]

بيبرس المحارب:

لم أصدق أذني عندما تناهى إلي أن شمسا قد تجرأ على مواجهة عمي أمام تلامذته[26]

وردة الصحراء:

ظلت تتوسل إلي وهي تجهش في البكاء لمساعدتها، وفقد تورم وجهها، وأخذ صدرها يعلو ويهبط بقوة وبسرعة، حتى وافقت أخيرا على مساعدتها.[27]

---

[21] - الرواية، ص: 231.

[22] - الرواية، ص: 247.

[23] - الرواية، ص: 250.

[24] - الرواية، ص: 296.

[25] - الرواية، ص: 367.

[26] - الرواية، ص: 376.

[27] - الرواية، ص: 451.

هكذا نلاحظ أن الضمير في البنية المدمجة يؤسس عملية القول باعتماد الموضوع الذي يحققه عامل السرد، وهو ما يدفع إلى بناء نموذج آخر لموت البطل، يصبح فيها القول بضمير المتكلم الذي يبني "سيرة السارد" ويطمح أن تصبح تاريخا مادام القائل يبسط لحظات من حياته على دفعات متقطعة ومتداخلة لكنها تتكامل لرسم الدلالة الكلية وبناء التأويل الممكن.

ويصبح الضمير صوت السارد الذي يبحث عن تجميع الرؤى حول شخصية المركز، وهو ما يدخل ضمن نموذج الميتا رواية التي حققت تجاوز الحكي التقليدي وإدماج تقنيات جديدة تتحرر من السرد الخطي المتصاعد نحو الأزمة ثم الانفراج على العبرة إلى السرد القائم على تلقي المعرفة حول تاريخ الذات المليء بالاستيهام واللذة والألم والحلم والتذوق والحنين وتداعيات الماضي الطفولي.

بالمقابل تقوم البنية الدامجة على بنية ضمير السارد العليم الذي يؤطر الخطاب السردي الخاص بإيلا روبنشتاين مع إعطاء مساحة من القول بضمير المتكلم ضمن بنية تواصلية وحوارية بينها وبين عزيز زهارا وهو ما يجعل الملفوظ السردي يتوزع بين ضمائر السارد العليم و "أنا" المتكلم و "أنت" المخاطب.

"الطيور تغرد خارج نافذة المطبخ في ذلك اليوم الربيعي المعتدل. وبعد أن استرجعت إيلا المشهد في ذاكرتها، ليس ذلك الجزء من الماضي فقط، خيل إليها أن لحظة مستمرة لا تزال تجري في مكان آخر في الكون"[28]

يتموقع ضمير الذات في الفضاء، الذي يمثله فضاء المنزل بما يساهم في بناء المشهد الدرامي لحضور الأنا، الذي يتوزع بين الماضي وبين استمراريته في الحاضر إضافة لما أثاره مخطوط الكفر الحلو من توجيه مسار السرد وحصر عالم الذات في فضاء محدود يشكل نقطة الانطلاق لاكتساب كفاءتها في الإنجاز.

إن تأويل الذات للحظة المستمرة في مكان آخر في الكون مرده إلى الاستيهامات التي تثيرها الرغبة في التخلص من الماضي بما يؤهل الذات للاستعداد للتحول نحو الانسجام مع موضوع القيمة الذي يقدمه المخطوط في العشق والمحبة.

البيبليوغرافيا

[28] - الرواية، ص: 11.

لائحة المراجع العربية:

- عبد اللطيف محفوظ: البناء والدلالة في الرواية، مقاربة من منظور سيميائية السرد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2010.
- عبد المجيد نوسي: التحليل السيميائي للخطاب الروائي، البنيات الخطابية – التركيب – الدلالة، شركة النشر والتوزيع – المدارس – الدار البيضاء، 2002.

الرواية:

- إليف شافاق: قواعد العشق الأربعون (رواية عن جلال الدين الرومي)، ترجمة: خالد الجبيلي، دار طوى للثقافة والنشر والإعلام – لندن، الطبعة الأولى، 2012.

لائحة المراجع الأجنبية

- J. GREIMAS, Du Sens II,Essais sémiotiques, Edition du Seuil, 1983.

Emile BENVENISTE. Problème de la linguistique générale, Tom I, Edition Gallimard 1966

التكامل المعرفي بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية:
البحث في الأصول

رشيد ابن احساين

طالب باحث بسلك الدكتوراه

الكلية المتعددة التخصصات الرشيدية-جامعة مولاي اسماعيل

الأستاذ المشرف: د. لخلافة كريم

مقدمة

تعد الحاجة إلى اللغة من الأولويات لدى المهتمين بمختلف الحقول المعرفية، لكونها تمثل ذاكرة المجتمع، وأداة التواصل بين أفراده، وبذلك فإنها ملك مشاع يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ومقاصدهم في كل زمان ومكان، وحسب الظروف والأحوال.

ولما كانت اللغة مفتاح الوصول إلى المعاني والأفكار، اهتم بها العرب قديما وحديثا، وبحكم ارتباطها بالرسالة السماوية كثرت العناية بها، فلا تنظر في حقل معرفي إسلامي، إلا وتجد قضايا اللغة مبثوثة فيه بنسب عالية ، حتى قيل إن أكثر الخلافات بين الأصوليين والمتكلمين، ورواة الحديث، وممن يشتغلون في علوم الشريعة، إنما هي خلافات لغوية، كالخلافات القائمة بين أرباب الكلام من المعتزلة والأشاعرة حول كلام الله، وكذا المفارقات الموجودة بين الأصوليين مشارقة، وأندلسيين مغاربة.....

فتلك إحدى صور التداخل المعرفي بين الحقل اللغوي والحقول الشرعية، ولإثبات ذلك فإنني أهدف من مداخلتي تسليط الضوء على هذا التداخل القديم، وإماطة اللثام عن جذوره، انطلاقا من العلاقة الكامنة بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية، مركزا على قضايا **اللغة في علم الأصول، وعلم التفسير**، وهو ما يفرض علينا الكشف عن التكامل المعرفي بين اللغة و بين هذين العلميين.

من هذا المنطلق يمكن صياغة الإشكالية الآتية:

ما نوع العلاقة بين العلوم الشرعية باعتبارها إطارا معرفيا متعددا يسعى إلى ضبط الفكر والمجتمع، والعلوم اللغوية باعتبارها أداة منهجية صالحة للاستعمال؟

هل هي علاقة استقلال؟ أم علاقة تداخل، وتأثير وتأثر؟

انطلاقا من هذه الأسئلة المركزية التي لابد منها، يتحدد إشكال العلاقة بين العلوم الشرعية والعلوم اللغوية. وسنعمل في هذا المقال على الإجابة عنها في ضوء ما يمكن أن يفهم كمساهمة في تحديد الجذور الأولى للدرس اللغوي العربي داخل البيئة الإسلامية أولا، ثم التعريف بالاهتمامات اللغوية لعلماء الشريعة ثانيا.

وللإجابة عن الأسئلة الموجهة لموضوعنا، اخترنا منهجية الوصف والتحليل، وهذا تطلب منا تتبع آثار القضية المدروسة نظريا وتطبيقيا من خلال ما جاءت به كتابات الباحثين من آراء حول جذور "**التكامل المعرفي بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية من خلال البحث في الأصول**"

سأتناول الموضوع في مبحثين اثنين، أخصص أولهما لبيان التأثير الذي مارسته الشريعة الإسلامية في الميادين اللغوية كأولى صور هذا الترابط، وذلك من ثلاثة جوانب أساس: "النشأة والمنهج ثم المصطلح"، وثانيهما لإبراز موقع العلوم اللغوية من العلوم الشرعية على مستوى (علم الأصول و علم التفسير).

1- دور العلوم الشرعية في خدمة العلوم اللغوية:

تتجسد العلاقة بين الحقل الشرعي والحقل اللغوي في التأثير الذي مارسته الشريعة الإسلامية في الميادين اللغوية كأولى صور هذا التكامل والترابط المعرفي، ويمكن تناولها من ثلاثة جوانب أساس من حيث: النشأة والمنهج ثم المصطلح.

1-1- من حيث النشأة:

يورد الكثير من القدماء روايات حول نشأة الدرس اللغوي العربي ترتبط أساسا بفشو اللحن في المجتمع العربي الإسلامي غداة اتساع رقعته ، وتعدد أجناسه ولغاته، ومن بين هؤلاء الزبيدي في الطبقات، حيث يقول: " ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها، وماضي جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجا، وأقبلوا إليه أرسالا(طوائف)، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منها في الإعراب الذي هو حليها، والموضح لمعانيها، فتفطن له من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الاشفاق من فشو ذلك، وغلبته حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم، وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عنه، فكان أول من أصل ذلك وأعمل فكره فيه، أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، ونصر بن عاصم ، وعبدالرحمن هرمز. فوضعوا للنحو أبوابا، وأصلوا له أصولا، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم....."[1]

فالأسباب الكامنة وراء نشأة الدرس اللغوي العربي تعود إلى فشوا اللحن والخوف من ذهاب لغة العرب، وبالتالي لجأوا إلى تقييدها وتأسيس قوانين يقاس عليها صحيح الكلام من فاسده، أي إنتاج قواعد مستنبطة من استقراء كلام العرب الفصيح السليم في جميع الحالات. وإلى مثل هذا أشار أبو القاسم الزجاجي[2]، والسيوطي[3]، وغيرهم.

إن الرأي الذي ألمعنا إليه في غاية الأهمية، لأنه يبرز مسألة ارتباط نشأة الدرس اللغوي العربي بالعقيدة الإسلامية، وهو ما يعني بالارتباط بالعلوم الشرعية أساسا(الرأي الذي نتبناه)، فما طبيعة هذه العلاقة وهذا الاتصال؟

---

[1] - الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: أبو الفضل ابراهيم، ، 1954، دار السعادة، ط،1،ص:11.

[2] -الزجاجي، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق، الإيضاح في علل النحوي، تحقيق مازن المبارك، 1982، بيروت، ص89.

[3] - السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد بن سابق الخضيري، المزهر في علوم اللغة، ص:377.

لقد اشتهر الصحابة رضي الله عنهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوضيح معاني القرآن للمسلمين خاصة منهم عبدالله بن عباس، الذي يعد أول مفسر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وصلنا منه كتاب عن هذا العلم اسمه:" تنوير المقباس من تفسير ابن عباس". كان يفسر القرآن تفسيرا لغويا بالرجوع إلى الشعر وكلام العرب (جوامع كلامهما)، كما بحث على جمع المادة اللغوية، وكثيرة هي الألفاظ الغريبة التي اتضح له معناها من خلال ديوان العرب حتى اشتهر عنه قوله:" ما كنت أدري قوله تعالى:(ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها تعالى أفاتحك، أي أحاكمك إلى القاضي"[4]

في خضم هذه الحلقة تشكلت النواة الأولى للتفسير اللغوي مما دفع الحلواني في العصر الحاضر إلى القول بأن" علم العربية بفروعه المختلفة كان يعرض في مجال تفسير غريب القرآن، وأن ما ألفه اللاحقون في العصر الإسلامي أمثال أبي عمرو ويونس، والكسائي من كتب في معاني القرآن، إنما هي تطوير لمجالس ابن عباس، وحلقاته مع الاستفادة مما استنبط من قوانين اللغة، وما فسر به الحالات الإعرابية في قراءته[5]" وبهذا يكون ابن عباس باحثا عن الدلالات والمعاني في الخطاب الإلهي حسب اللغة، واتباع سنن العرب في كلامها.

وإذا كان علم القراءات من أولى العلوم التي نشأت مع نزول الآيات الأولى من القرآن، فإن قراءة القرآن كانت تتم بالتلقي عن الثقاة من المقرئين أمثال ابن مسعود، وزيد بن حارثة، عمر بن الخطاب...، ولما كانت القراءات متعددة، فإن كل مقرئ يشكل خصوصية من الناحية اللغوية، ولعل حادثة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، وتدوينه في كتاب واحد تعد إيذانا بإنشاء قواعد، ومنطلقات لغوية صحيحة يرجع إليها في ممارسة القراءات.

ما يبرز أن المسلمين كانوا يجدون صعوبة في فهم القرآن وقراءته بمختلف القراءات على الرغم من فصاحتهم اللغوية، مما يؤكد أن هذا الثابت يمثل ثروة لغوية كبيرة تحتاج إلى مفاتيح من نفس المادة كفيلة بإيضاح الإفهام، وتجلية المعاني، واستنباط الأحكام من الأوامر والنواهي.

ومفاد هذا الكلام أن العرب بدأوا في إنتاج الآليات المنهجية الأكثر تطورا (علوم الآلة) لتحقيق غرض الفهم، والحفاظ عليه بالحفاظ على اللغة ذاتها، يقول ابن خلدون محددا الهدف المقصود من نشأة الدرس

---

[4] - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، المجلد الثاني من الزاي إلى الفاء، إعداد وتصنيف يوسف خياط، ص:1045.

[5] - الحلواني ، محمد خير، المفصل في تاريخ النحو العربي ،الجزء الأول قبل سيبويه، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط1،ص:78.

اللغوي العربي:" فخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لها يقيسون عليها سائر أنواع الكلام."[6]

ليس معنى ذلك أن العرب لم تكن لها قوانين ، بل كانت لها قواعد أساس، متعارف عليها في الاستعمال اللغوي المطرد يوميا، وهي ما سماه ابن خلدون بالملكة، لكن إخراج هذه القوانين إلى الوجود، وهو ما يشكل سابقة نظرية، وعملية في آن واحد لم يتم إلا بظهور الإسلام، وظهور ما اصطلح عليه بالعلوم الشرعية.

ويعد أبو الأسود الدؤلي أول من نحا هذا المنحى، الشيء الذي ذكره النحاة والأدباء وأصحاب الطبقات، ولعل الزبيدي أكثرهم دقة في تحديد هذه المقاييس عند أبي الأسود بقوله:" وهو من استن العربية، ونهج سبيلها، ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف وحروف النصب والرفع، والجر، والجزم."[7]

وثمة علوم لغوية أخرى غير النحو تعود إلى الأسباب نفسها، مثل المعاجم العربية ككتاب العين للخليل، والرسائل اللغوية الكثيرة التي ألفها أبو زيد الأنصاري والأصمعي، وغيرهم من علماء البصرة والكوفة.

أما القراءات القرآنية فتعد من اللبنات الأساس في ظهور علم التصريف وعلم الأصوات، حيث كان علماء القراءات يؤكدون على ضرورة معرفة مجموعة من القواعد :كالمد والإدغام، والقلب والإظهار، والترقيق والتفخيم، والإمالة والغنة.....، ذلك أن الاهتمام بغريب العربية جاء من الاهتمام بغريب القرآن، خاصة وأن الطابع الذي تحكم في الفكر آنذاك هو النظرة الموسوعية التي تتشابك فيها الاختصاصات، والتي لن تستقل عن بعضها البعض حتى عصر التدوين، فالفقيه لغوي، واللغوي فقيه، وكذلك بالنسبة لسائر العلوم.

بناء على هذا الأساس دخلت القضايا الشرعية في صلب الدراسات اللغوية، وهكذا فإن أصول النحو أقيمت على غرار أصول الفقه(اقتداء بهم)، فإذا كانت أصول الفقه أربعة كما هددها علماء الشريعة(القرآن والسنة والاجماع والقياس)، فإن أصول اللغة أربعة كذلك وهي: النص والاجماع والقياس، ويدخل القرآن والسنة ضمن الأصل الأول كنصوص لغوية. "فأصول النحو أدلة النحو التي تفرعت عنها

---

[6] -ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: المقدمة، /1981،دار القلم بيروت، ط:4، ص:546

[7] - الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص:13.

فروعه، وفصوله، كما أن أصول الفقه أدلة الفقه التي تفرعت عنها جملته وتفصيله، وفائدته التعويل في إثبات الحكم على الحجة والتعليل والارتفاع عن حضيض التقليد غلى الاطلاع على الدليل"[8].

كما أن الصرفيين كانوا قراء، ومهتمين بهذا العلم غاية الاهتمام، كابن جني الذي دافع عن القراءات الشاذة في كتابه المحتسب، وألف المنصف في التصريف، وسر صناعة الإعراب، وكل الكتب النحوية حاملة لأبواب من هذا النوع.

نستشف مما سبق ذكره أن الخطوات الأولى للدرس اللغوي العربي تتصل اتصالا مباشرا بالعلوم الشرعية: فقها، وتفسيرا، وقراءة، وكلاما، وأصولا. فهل تتصل بها من حيث المنهج والمصطلح؟

2-1- من حيث المنهج:

إن المتتبع لتاريخ العلوم الشرعية يدرك لامحالة أنها قسمت إلى اتجاهين اثنين: الأول عقلي والثاني نقلي، وتمثلهما مدرستان في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وهما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة.

ففي البصرة سادت النزعة العقلية للفقه والتفسير وعلم الكلام، ويعد أبو حنيفة والحسن البصري، وأبو الأسود الدؤلي، من العلماء الذين اتبعوا منهج الرأي، حتى كثر الاجتهاد بالقياس، واستنباط الأحكام الشرعية بالاعتماد على الأدلة العقلية.

أما الكوفة فكانت النزعة النقلية هي السائدة، حيث اهتم أهلها كثيرا بالفقه والقراءات ورواية اللغة، أمثال: أبي عمرو الشيباني، وأبي عبيدا القاسم، والكسائي.

ولما كان أغلب النحاة واللغويين مبرزين في العلوم الشرعية قبل التأليف في العلوم اللغوية، فإنهم نقلوا الروح العامة التي طبعت منهج الحقل الشرعي إلى الحقل اللغوي. وهكذا أصبح النحو البصري نحوا يميل إلى القياس والعلة، ويدعو إلى التأويل، ويقول باطراد القواعد، ورفض الشاذ منها، ودليل ذلك كتاب سيبويه الذي يهتم بالقياس والعلل، ويتضمن مصطلحات من نحو(أقيس، جائز، جائز، شاذ.....).

أما نحو الكوفة فلا يميل إلى ما هو مطرد، ولذلك جاءت قواعدهم شاذة ومعقدة الفهم، ولعل "حتى" بين سيبويه والفراء أوضح مثال على ذلك، فإذا كان هذا المبحث واضح وسهل عند عمرو، فيكتسيه الغموض عند الفراء، خاصة عند استعماله لمفهوم التطاول.

---

[8] - ابن الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد: لمع الأدلة، دار الفكر بيروت،ط2، ص:125-126.

فعملية تقنين وضبط منهجية البحث في علوم الآلة جرت مجرى تقنين المنهجية في علوم الشريعة، وإذا تصفحنا مقدمات بعض الكتب النحوية واللغوية وجدنا ما يؤكد هذا الرأي في المنهج، يقول ابن الانباري في خطبة الانصاف:" إن جماعة من الفقهاء المتأدبين والأدباء المتفقهين بالمدرسة النظامية سألوني أن ألخص لهم كتابا لطيفا يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحوي البصرة والكوفة على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة، ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب".[9]

وفي مقدمة الخصائص يؤكد ابن جني أنه اتبع منهج علمي الكلام وأصول الفقه في تناوله للغة، وبالفعل فإن الأبواب اللغوية التي تناولها في الأصل تعد كلامية وأصولية، حتى دفعه انتماؤه الاعتزالي إلى القول:" إن علل النحويين وأعني حذاقهم المتقنين لألفافهم المستضعفين أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين".[10] وفي كلتا الحالتين تأكيد على تأثر النحاة بعلماء الكلام والفقه وإن بشكل متفاوت.

من خلال الأدلة المقدمة يظهر بجلاء، التأثير الذي مارسته العلوم الشرعية على العلوم اللغوية من الناحية المنهجية، ونتيجة هذا الارتباط المتناسق أن إنكار قاعدة، أو قانون ما في الحقل الشرعي يؤدي إلى إنكاره في الحقل اللغوي. فالظاهريون الأندلسيون ينكرون القياس والعلل في الفقه، واقتداء بهم ينكر ابن مضاء القرطبي القياس والعلل في النحو، كما ينتقد النحاة المشارقة، وهذا دليل حي على العلاقة التي تحكم الحقلين.

1-3- من حيث المصطلح:

لما كانت العلوم الشرعية التي أحدثت لفهم القرآن الكريم سببا مباشرا في نشأة العلوم اللغوية، فإن تأثيرها امتد إلى مجال المصطلح الذي تتحدد من خلاله المفاهيم المستعملة في الدرس اللغوي العربي.

فإذا نظرنا في كتب الصرف كلها مثلا، وجدناها مليئة بالمصطلحات القرائية، حيث إن ظهور علم التصريف رهين في مفاهيمه بعلم القراءات ، والتجويد الذي يهتم بصفات الحروف ومخارجها، وعلاقتها فيما بينها، كما يهتم بالظواهر والقضايا الصوتية، كالتنوين، والإدغام، والإمالة، والاعلال، والابدال.....، وقد أدرج سيبويه في الكتاب بابا كبيرا يهتم بالحروف ومخارجها وصفاتها، سماه باب الادغام ، والجزء الثالث من

---

[9] - ابن الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد: الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، بعناية محي الدين عبدالحميد، ،دار إحياء التراث العربي، ج1، ص:5.

[10] -ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ج،1،ط2 ،المقدمة و ص:48.

الشافية خاص بالإعلال والإبدال والقلب والإمالة، كما أن كتاب المزهر في علوم اللغة للسيوطي يحتوي على مصطلحات أهل الحديث(مراتب الحديث).

أما الخصائص، فالمصطلحات الأصولية والكلامية بادية فيه بشكل كبير، بل وهناك مؤلفات لغوية لا حصر لها اقتبست سلسلة هائلة من المفاهيم من مختلف العلوم الشرعية، مما يعطي الانطباع بأن الدرس اللغوي العربي أصيل في جهازه المفاهيمي، كما هو أصيل في نشأته ومنهجه.

2- موقع العلوم اللغوية من العلوم الشرعية:

في المبحث الأول، تأكد لدينا أن العلوم الشرعية كانت لها أسبقية تاريخية من حيث الوجود، فساهمت في إنشاء الآليات المنهجية، لكي لا تنغلق الثوابت الإسلامية على الفهوم، وتفسد الملكة اللغوية لدى المتكلم العربي.

فما موقع هذه الآليات اللغوية(علوم الآلة) من علوم الشرع؟

حينما تطورت علوم اللغة، ونضجت فيها الأبحاث، وتعمقت قضاياها التركيبية والدلالية عند النحاة والبلاغيين، صارت تمارس تأثيرا مقابلا في العلوم الدينية، وأصبحت بعض العلوم اللغوية مادة ومنهجا، ومصدرا رئيسا لتطور العلوم الشرعية، وعاملا بارزا في كثير من مباحثها. ونتيجة ذلك أن علوم الآلة وجدت مكانها في تلك العلوم، حتى صارت مطلب أهل الفقه والحديث والتفسير والكلام والأصول....

وقد أشار القدماء من كلا العلميين إلى ما يماثل ويؤكد هذا المذهب في مقدمات كتبهم يقول ابن فارس:" إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة بسبب حتى لا غنى بأحد منهم عنه ، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وما في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل كلمة عربية، أو نظم عجيب ،لم يجد من العلم باللغة بدا، ولسنا نقول إن الذي يلزمه من ذلك الإحاطة بكل ما قالته العرب، لأن ذلك غير مقدور عليه، ولا يكون إلا لنبي كما قلنا أولا، بل الواجب علم أصول اللغة والسنن التي بأكثرها نزل القرآن وجاءت السنة".[11]

يفهم من ذلك أن البحث في العلوم الشرعية، يفرض على الباحث أن يكون متوفرا على الحد الأدنى من الآليات المنهجية التي تؤهله لمباشرة عمله، والمقصود هنا بعلم أصول العربية والسنن التي بأكثرها نزل القرآن هو: " معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا، بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها".[12]

ومن بين أهم التصورات الموضوعة حول موقع العربية وآلياتها الإنجازية من الدين وعلومه، تصور الثعالبي الذي يقول: " والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ".[13]

---

[11] - ابن فارس، أحمد بن زكرياء، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي، القاهرة 1977م، ص: 50.

[12] - السكاكي، أبو يعقوب بن محمد، ، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص:75.

[13] - الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، حققه ورتبه، مصطفى السقا، دار الكتب، القاهرة، ط2، مقدمة المؤلف، ص: 14

وبالفعل فإن علماء الشرع كانوا يقطعون المفاوز طلبا للغة، ويديمون النظر في كتب البلاغة والنحو والمعاجم المهتمة بالألفاظ والمعاني، وذلك لتعلم روح الاستنباط ، والتسلح بالمنهج العملي، بل إن الفقهاء يفتون الناس في الفقه من كتب النحو، يقول أبو جعفر الطبري:" سمعت الجرمي يقول: أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه قال: فحدثت به محمد بن يزيد(المبرد) على وجه التعجب والانكار فقال: أنا سمعت الجرمي يقول هذا وأمأ بيده إلى أذنيه- وذلك أن أبا عمرو الجرمي كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سبيويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش".[14]

وإذا كان الفقه يراد به الفهم، واللغة تساعد على تركيزه، يمكن القول إن أبا عمرو الجرمي، استعصى عليه فهم الفقه والحديث، وبإطالة النظر في الكتاب والدربة فيه، تفقه انطلاقا من معرفته العميقة بالنحو.

فتلك وغيرها بعض الاهتمامات اللغوية لعلماء الشريعة، ولتحديدها أكثر، سنقتصر على ميدانين اثنين: ميدان علم الأصول، وميدان علم التفسير.

[14] - الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، المرجع السابق، ص: 77.

2-1- على مستوى علم الأصول:

يعد علم أصول الفقه الأداة المنهجية الضابطة التي يتم بها استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية (القرآن والسنة)، ولما كانت هذه الأدلة تمثل ثروة لغوية هائلة، جاء اهتمام الأصوليين باللغة العربية وسائر علومها، كمفتاح أساس وضروري للفهم الذي من أجله قامت العلوم الإسلامية لغوية كانت أو غير لغوية، وبحكم اشتغال علماء الأصول على هذين المصدرين الأصليين، اعتمدوا اعتمادا كبيرا على ما يقدمه النحو والبلاغة من وصف للغة، التي هي مادة النصوص الشرعية، فأخذوا ما قرره علماء اللغة من قواعد لغوية يتوصل بها إلى فهم نصوص الأحكام، وما خفي من الدلالات والمعاني، إذ يكفي أن نعلم أن تحديد الأمر عندما يرد في القرآن أو السنة بصفته أمرا لازما، أو غير لازم على وجه التربية أو التوجيه، أمر تتحكم فيه قراءة البلاغي لصيغته كأمر، وقد تحدث الآمدي عن هذا بقوله: " وأما علم العربية فتتوقف معرفة دلالات الأدلة اللفظية من الكتاب أو السنة وأقوال أهل الحل والعقد من الأمة على معرفة موضوعاتها لغة من جهة الحقيقة، والمجاز، والعموم، والخصوص، والاطلاق، والتقييد، والحذف والاضمار ، والمنطوق، والمفهوم، والاقتضاء، والإشارة، والتنبيه، والايماء، وغيره مما لا يعرف في غير علم العربية".[15]

فإلى جانب كون النص يعبر عن احتياج الأصولي إلى العلوم اللغوية، لمعرفة وجوه اللفظ المتعددة، فإنه يشتمل على جهاز مفاهيمي ضخم، يستعمله الأصوليون في تحديد الدلالات المتعددة كذلك ،بتعدد مقاماتها السياقية. ما يؤكد أن علم أصول الفقه من أهم العلوم الشرعية التي تعتني بدراسة المعنى، انطلاقا من استقراء الأساليب والمفردات اللغوية.

وتجدر الإشارة إلى أن وضعهم للقواعد والضوابط اللغوية، يرجع إلى اهتماماتهم اللغوية المبنية على دراسة اللغة العربية، واستقراء كلام العرب. وقد ساهم الأصوليون في إنضاج الدرس اللغوي العربي على المستوى الدلالي المعجمي، والدلالي التبعي(التداولي).

من هنا كانت خدمتهم للغة العربية وعلومها متميزة، كدراستهم لمراتب الألفاظ في إفادة المعنى بحسب الوضوح والخفاء، والعموم والخصوص، وفي مواقع عدة من الكلام، قال الشافعي:" فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وإن فطرته أن يخاطب

---

[15] -الآمدي، علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق العلامة الشيخ عبدالرزاق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع بالرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، ص:6-7.

بالشيء عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام، أو وسطه أو آخره".[16]

ومفاد هذا الكلام أن علماء الأصول استوعبوا العلوم اللغوية بشكل مدقق، ووظفوا ما انتهت إليه من قواعد خاصة وعامة بحسب وجوه الأدلة في كتاب الله تعالى، ويعد أبو إسحاق الشاطبي من أهم الأصوليين الذين اهتموا باللغة العربية، ومن بين الذين ساهموا في خدمتها بالتحديد في علم الأصول، بمنطق جديد يعتمد على المقاصد في فهم الشريعة الإسلامية، لأنه تلقى منذ بداية حياته علوما كثيرة ، خاصة منها علوم الشريعة، وعلوم الآلة، حتى أصبح بالدربة عالما أصوليا، ولغويا أصيلا.

وتعد القواعد اللغوية من أهم القضايا اللغوية التي تناولها الشاطبي في الموافقات، لكونها تمثل الوسائل الضرورية لفهم النص القرآني فهما دقيقا أولا، وفهم كل نص مصاغ باللغة العربية ثانيا، وسنقتصر على نموذج من هذه القواعد،لإبراز موقعها داخل علم الأصول، وهي **قاعدة:**

<u>التخصيص يجري باعتبار الانفصال والاتصال</u>

مدلول هذه القاعدة، أن تخصيص اللفظ العام المطلق في ضوء الاستعمال يتم باعتبارين لا ثالث لهما، يقول الشاطبي: "فالتخصيص إما بالمنفصل أو بالمتصل، فإذا كان بالمتصل كالاستثناء، والصفة، والغاية وبدل البعض، وأشباه ذلك، فليس في الحقيقة بإخراج لشيء، بل هو بيان لقصد المتكلم في عموم اللفظ.....، أما التخصيص بالمنفصل فإنه كذلك أيضا، راجع إلى بيان المقصود في عموم الصيغ، لا أنه على حقيقة التخصيص الذي يذكره الاصوليون"[17].

يفهم من هذا الكلام أن تخصيص العام عنده يتم حسب القرائن اللفظية المتصلة منها والمنفصلة، فالتخصيص بالمتصل تتحكم فيه القرائن اللفظية المتصلة، وقد حددها الشاطبي في: الاستثناء والصفة والغاية والبدل وغيره، كما هو الحال عند جمهور الأصوليين، وقد تكون هذه القرائن المتصلة باعتبار التركيب اللغوي للنص القرآني، إما ألفاظا مستقلة أو غير مستقلة، وفي كلتا الحالتين تبقى تابعة للجملة الدالة على العام، كما في قوله تعالى: " فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة

---

[16] - الشافعي، أبو عبدالله محمد بن ادريس، الرسالة، تحقيق محمد شاكر، دار التراث بالقاهرة ، ص:51.

[17] -الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح الشيخ عبدالله دراز، دار الحديث، القاهرة، ج3،ص:287-288.

من أيام أخر"[18]، يعني أن صوم رمضان على الأحياء، لكن ليس على العموم، بل يخصص منه من كان مريضا أو على سفر، فالمريض والمسافر مرخص لهما أن يفطرا.

أما التخصيص بالمنفصل، فيجري حسب القرائن اللفظية المنفصلة المتمثلة في الآيات التي ترد في أماكن أخرى من النص القرآني، أو الحديث النبوي الشريف، ومن ذلك قوله تعالى:" والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدة"[19]، فالحكم بالجلد يطال القاذفين جميعهم، الذين لم يأتوا بأربعة شهداء على قذفهم كبينة، فتم تخصيصه بالمنفصل في آية أخرى من نفس السورة، بإخراج الأزواج، بقوله تعالى:" والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم"[20].

هكذا فإن التخصيص بالمتصل والمنفصل، هو دراسة التركيب اللغوي للجمل، والألفاظ المستقلة وغير المستقلة، لبيان واستجلاء العمومات الشرعية.

وعلى كل فاهتمام الأصوليين باللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها ومعجمها، لا يجادل فيه أحد، بل إن اهتمامهم بالدرس اللغوي العربي في كتاباتهم يعد قديما، خاصة فيما يتعلق بالمعنى الدلالي، والمعنى التداولي، أو ما يسمى عندهم بالدلالة الأصلية، والدلالة التبعية، وكذا نظرية السياق، حيث إن سياق الأمر ليس هو سياق النهي، مع العلم أن الأمر والنهي لهما سياقات متعددة.

---

[18] - سورة البقرة، الآية:184.

[19] - سورة النور، الآية:4.

[20] - سورة النور، الآية:6.

2-2- على مستوى التفسير:

لما كان التفسير علما يفهم به كتاب الله تعالى، وتبين به معانيه، وتشريعاته، والقرآن الكريم متناسق النظم، متين اللفظ، قوي المعنى، محكم البناء، التجأ المفسرون إلى علوم اللغة (نحوها، وصرفها، وبلاغتها....)، فاستمدوا منها أدواتهم المنهجية، حيث إن الغنى الفني والأدبي ، "والنص القرآني منح للمفسرين فرصة الكشف عن الخصائص الإبداعية، والجمالية للغة العربية، فأجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في درجات البيان مختلفة، فمنها الجائز والمطلق، والمرسل وغيره، وبذلك حازت بلاغات القرآن الكريم عن كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة".[21]

ويعد كتاب الكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي وغيرهما، من النماذج المعترف بها، والتي أبانت عن اهتماماتهم اللغوية، حيث تنطلق من المبنى للوصول إلى المعنى، يقول عبدالقادر عطا في هذا الصدد: " لقد أجاد اللغويون بحث القرآن من وجوه العربية، إجادة ممثلة في تفسير أبي سعود العمادي، وأثير الدين أبي حيان، وجار الله الزمخشري".[22]

وإذا تصفحنا الكتب المهتمة بعلوم القرآن، وعلى رأسها التفسير، وجدناها تتحدث عن القضايا النحوية والبلاغية والصرفية.....، وعن أنواع الخطاب في القرآن الكريم(عامه وخاصه)، وقوانين فهمه، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي نموذج يجسد هذه الاهتمامات. لكونه يتضمن سبعة وأربعين مبحثا، منها تسعة عشر مبحثا لغويا خالصا، مثل دلالة الألفاظ في الحقيقة والمجاز، والخبر والإنشاء، المنطوق والمفهوم، وكتاب البرهان للزركشي شبيه به في هذا الميدان.

ولأبي حيان الأندلسي كلام نفيس يكون شاهدا على أهمية علم النحو في تفسير القرآن الكريم، في هذا الصدد يقول:" جدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير، وترقت إلى التحقيق فيه والتحرير، أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو في هذا الفن المعول عليه والمستند في حل المشكلات إليه"[23].

بناء على هذا الأساس يمكن الخلوص إلى القول، إن الاهتمامات اللغوية للمفسرين، لا تنحصر في استخدام اللغة لغرض الفهم، بل تجاوزته إلى الانتاج والتنظير، مما يشكل خصوصية لغوية يمكن إدخالها تحت إطار ما يسمى بالدرس اللغوي في كتابات المفسرين، وسائر المهتمين بعلوم القرآن.

---

[21] - الزركشي، بدر الدين محمد ، البرهان في علوم القرآن ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، بيروت،ج1، ص:5.

[22] - نفسه، ص:5

[23] - أبو حيان الأندلسي، محمد يوسف(1993): تفسير البحر المحيط، دراسة تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط،1، ج1، مقدمة المؤلف، ص:101.

فالمتأمل في طبيعة العلاقة الجامعة بين علم النحو باعتباره علما لغويا، وبين علم التفسير بكونه علما شرعيا، يجد أنها علاقة قائمة على التكامل والتعاضد، ففهم القرآن الكريم من خلال تفسيره يحتاج إلى عدة أدوات يوظفها المفسر، ومن أهمها علم النحو.

وقد تتبين العلاقة بين العلميين من خلال النصوص الأولى المرتبطة بنشأة علم النحو. وهي نشأة تؤكد على أن النحو العربي، ولج التفسير بعدما شاع اللحن وفسدت الألسنة، بل إن علم النحو من أهم الضوابط التي يحتاجها المفسر، ويجعلها أداة كاشفة للمعنى المراد، فهذا الزركشي يقول عن التفسير أنه:" علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات".[24]

ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير كذلك، لأنهما آلية لبيان خصائص البلاغة القرآنية، وما تحتوي عليه الآيات من تفاصيل المعاني، ووجوه الإعجاز، وأكد الزمخشري هذا بقوله:" لا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علميين مختصين بالقرآن: علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة"[25]. ويتضح ذلك من خلال المثال التالي:

قوله تعالى:" إياك نعبد وإياك نستعين[26]"

" وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، هذا هو كمال الطاعة. والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة، وإنما قدم (إياك نعبد) على (إياك نستعين)، لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم.....[27]"

يفهم مما سبق أن علوم البلاغة شأنها شأن علوم اللغة، إذ هي آلية تفسيرية يعتمدها المفسر في تخريجاته الدلالية، وتبعا لذلك تكون هذه العلوم وغيرها، مصدرا ووسيلة لفهم القرآن الكريم، واستخراج أحكامه ومعانيه، واستكناه بنيته السطحية والعميقة.

---

[24]- الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن المرجع السابق ج2،ص:108.

[25] -الزمخشري، محمود بن عمر جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل، تحقيق :عبدالسلام شاهين دار الكتب العلمية، بيروت، ج1،ط1، ص:7.

[26] - سورة الفاتحة، الآية:5.

[27] -ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر،1969، ص ص:24-25.

خاتمة:

عالجت في هذه المداخلة موضوع: "التكامل المعرفي بين العلوم اللغوية والعلوم الشرعية: البحث في الأصول"، وقد توصلت بالنتائج الآتية:

- ❖ أن العلاقة بين العلوم الشرعية والعلوم اللغوية، علاقة تلازم وتأثير وتأثر وليس علاقة استقلال، حيث إن الدرس اللغوي العربي مدين لعلوم الشريعة في وجوده ونضجه، نشأة ومنهجا ومصطلحا.
- ❖ أن العلوم اللغوية تشكل مدخلا لفهم العلوم الشرعية، فأي مجتهد في دائرتها لا بد له من امتلاك ناصية اللغة العربية، ولا يمكن لأمر كهذا أن يتحقق، إلا بالتضلع في علوم اللغة (نحوا وصرفا وبلاغة ومعجما...)، هذه العلوم تتكامل فيما بينها تكاملا يخدم العلوم الشرعية.
- ❖ أن غرض الفهم السليم هو السبب الحقيقي في نشأة الدرس اللغوي العربي، أما اللحن فقد زاد من تقوية هذا الاتجاه.
- ❖ أن علوم اللغة والبلاغة تمثل آليات ضرورية لفهم النص القرآني فهما دقيقا أولا وفهم كل نص عربي مصاغ باللغة العربية ثانيا.
- ❖ أن لعلماء الشريعة اهتمامات لغوية جديرة بالاهتمام والدرس، وأخيرا فإن العلوم اللغوية والبلاغية لها موقع مهم في العلوم الشرعية.

وخير ما نختم به هذا العمل قوله تعالى:

" وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"[28] صدق الله العظيم.

---

[28] - سورة التوبة، الآية:105.

المصادر والمراجع المعتمدة:

- ✓ - القرآن الكريم برواية ورش عن نافع المدني، عنيت بطبعه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، مطبعة فضالة 1400هـ.
- ✓ - ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد: لمع الأدلة، دار الفكر، بيروت، ط،2.
- ✓ - ابن الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد: الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، بعناية محي الدين عبدالحميد، ،دار إحياء التراث العربي، ج.1.
- ✓ - ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي، القاهرة 1977م.
- ✓ - ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر،1969.
- ✓ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، المجلد الثاني من الزاي إلى الفاء، إعداد وتصنيف يوسف خياط.
- ✓ -ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان،ج،1 .ط1.
- ✓ -ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: المقدمة، دار القلم بيروت، ط:1981/4.
- ✓ - أبو حيان الأندلسي، محمد يوسف، تفسير البحر المحيط، دراسة تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1،مقدمة المؤلف.(1993).
- ✓ - السكاكي، أبو يعقوب بن محمد، ، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ✓ - السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر محمد بن سابق الخضيري، المزهر في علوم اللغة.
- ✓ - الحلواني ، محمد خير، المفصل في تاريخ النحو العربي ،الجزء الأول قبل سيبويه مؤسسة الرسالة، بيروت(1979)، ط1.
- ✓ - الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، حققه ورتبه: مصطفى السقا، دار الكتب، القاهرة، ط2.
- ✓ - الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح الشيخ عبدالله دراز، دار الحديث، القاهرة، ج3.

- ✓ - الشافعي، أبو عبدالله محمد بن ادريس، الرسالة، تحقيق محمد شاكر، دار التراث بالقاهرة.
- ✓ -الآمدي، علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق العلامة الشيخ عبدالرزاق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع بالرياض، المملكة العربية السعودية، ط1.
- ✓ - الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية، بيروت،ج1، ط1.
- ✓ -الزجاجي، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق، الإيضاح في علل النحوي، تحقيق مازن المبارك، 1982، بيروت.
- ✓ - الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: أبو الفضل ابراهيم، ط1، 1954، دار السعادة.
- ✓ - الزمخشري، محمود بن عمر جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، ج1، ط1.

التّعاون من الكلِّيَّة الخُلُقِيَّة إلى المَلَكة الاجتماعية

مطالعة في الذائقة الأخلاقية الإسلامية

د. خالد عبد القدوس

دكتوراه في الفقه وأصوله

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين- جهة الشرق، المغرب

مقدمة

يُدخلنا الحديث عن الكُلّيّة الخُلُقية إلى المجال الأخلاقي في الفكر الديني، حيث تبدأ سلسلة من المسائل الوجدانية في التفاعل على درجة معيارية إزاء الفعل أو السلوك، يظهر أن الإسلام لم يُدرجها بوصفها مفردات منفصلة أو أحكامًا جزئية، بل أسّس لها كقيم أكثر فاعليّة تنتمي إلى دائرة العقل الوجداني، كل قيمة تحيل إلى أخرى، ومن ثمّ صارت مكوّناً مفهوميّا إسلاميّاً ومنطقًا كليًا يجعل من مجموع الشُّعب الإيمانية المتناسقة محاور متداخلة في منظومة واحدة.

وهذا ما يدل على أنّ الخطاب الدّيني سعى لتوليف أكبر قدر ممكن من الفضائل الجزئية في عملية استقرائية ووفق مبدأ جامع، قد امتلك عنصر الانسجام النظري الذي يمنح تلك الفضائل عنفوانها وغايتها، على أساس أنّه يرى بأنّ هذه الصيغة هي أكثر الطرق ضماناً لتحصيل المصلحة السلوكية، وبناء عليه نتحدث عن وظيفة الكليّة الأخلاقية في إحراز ما يمكن أن نُسميه «الكمالات الاجتماعية»، أي تلك الكُليّات الإطلاقية التي لا تنحصر في مقام دون مقام، أو حال دون حال، بل تتظافر فيما بينها لتعبّر عن قواعد حاكمة وملاكات كُبرى تُسعف في تهذيب الضمير الاجتماعي وتأسيس الذائقة الأخلاقية الإسلامية، أي تلك النقطة التي تجمع بين العمق القيمي والفاعلية الاجتماعية.

إنّ هذه الدراسة تعاطت مع موضوع الفكر الأخلاقي الإسلامي المعاصر، لتلفت النظر إلى أنّ الأخلاق ليست مجرد تقنين للسلوك، وأبرز مثال جرى تناوله التعاون بوصفه ضرورةً أخلاقية وفلسفية ينهض

عليها الوعي الإنساني، ومن ثمّ يغدو التعاون في قلب الكمالات الأخلاقية، فحينما ينطلق الحديث عن الإنسان الفاضل لا يُقاس بهالته أو بعبادته أو علمه أو بما يملك، بل بقدر ما يكون عونًا وملاذًا يرفع المعاناة، ومن ثمّ فالبحث عودة إلى أنموذج أخلاقي دال ومعبّر، وهو الكلام عن مفهوم التعاون من عدّة زوايا، كأن يجري الحديث عن استعادة مركزية الإنسان بوصفه كائنًا اجتماعيّا أخلاقيّاً، لا مجرد رقم نفعيّ في سوق المصالح.

إنّ هذه الدراسة معنية بفجوة بحثية هي فقدان عنصر المعالجة التكاملية للقيمة الخلقية، فالتعاون داخل النسق الأخلاقي في البحوث الدّينية يجري مقاربته غالبًا في سياقات جزئية أو وعظية، ممّا يولّد معطيات اجترارية تستبعد جوهر قيمتة بوصفه كلية مركزية ترتبط بفلسفة المنفعة وتهذيب الضمير الاجتماعي، فلا تنطلق البحوث في هذا النوع من المفردات الأخلاقية م قراءة فكرية للأخلاق المعاصرة تعيد للتعاون تصوّراته العميقة بوصفه مبدأً جامعًا للكمالات الاجتماعية.

ومعنى ما نرومه كأهداف للدراسة، تحرير المفهوم الأخلاقي من التناول الوعظي السطحي إلى القراءة الفكرية، فننطلق إلى إعادة بناء العلاقة بين التعاون وفلسفة المنفعة، في ضوء التوازن بين المصلحة والكمال الإنساني، ويغدو عبر هذا الأنموذج تبيين وظيفة الكليّات الخلقية في تهذيب الضمير الاجتماعي، وتحقيق الكمالات الاجتماعي، بمثابة الملتقى بين الأخلاق الفردية والاجتماعية.

أمّا حينما يتعلّق الأمر بالمفاصل الأساسية لهذا الموضوع، فيمكن الحديث عن ثلاثة محاور: الأوّل يعدّ التعاون من الأصول الأخلاقية الإجماعية، ويساعد على تحديد مفهوم الكلية الخُلقية وأهميتها في بناء الأخلاق الإسلامية، وهو ما يذهب إليه مبحثَيْ: حجيّة الكليّة الخُلُقِيَّة وتجذير التعاون الإتساني. وما ذهب إليه االمحور الثاني كفيل بتوضيح فلسفة المنفعة في الإسلام والاتجاه إلى تغليب الضمير الاجتماعي، فتقوم فكرة مبحثه الأول حول نظرية المنفعة في الإسلام، ويتولّى مبحثه الثاني نقلة الضمير الاجتماعي في الإسلام: من المصلحة إلى الكمال الإنساني. وقد تعاطت فكرة المحور الثالث مع الرّوافد التأسيسة والثقافية للتعاون وتداعياته المعاصرة، فكان الحديث في المبحث الأول عن حثُّ الشريعة على النّجدة والمروءة والتَّسَخّي، وتسليط الضوء على الصورة الأدبية للفضيلة الاجتماعية. بينما يكشف المبحث الثاني تداعيات هذا المناخ الحضاري الدافئ على الفكر الإسلامي المعاصر، في صورة إنسانية الاقتصاد الإسلامي.

هذا البحث على منوال دراسات حقل فلسفة الأخلاق الإسلامية، يتكوّن من مناخ نظريّ وتأمليّ في إفادة بناء مفهوم الكليّة الخلقية لا مجرّد وصفها، فتوجّب عدم تجميع النصوص المتصلة بالتعاون، بل يستدعي منهجية القراءة البنائية التركيبية بشكل يبرز القيمة العمدة في تشكيل الكلّية الأخلاقية، وعلاقتها بفلسفة المنفعة وتهذيب الضمير الاجتماعي في الرؤية الإسلامية المعاصرة، لذا سيتبع البحث المنهج التحليلي المفهومي، بل وأحياناً كثيرة يعطي مجالاً لاستخدام المنهج التركيبي البنائي.

❑ المحور الأول: التعاون من الأصول الأخلاقية الإجماعية

▪ المبحث الأول: حجيّة الكليّة الخُلُقِيَّة

المقصود هنا حجيّة الكليّة الخُلُقِيَّة، وهو ذات المعنى المقصود من حجيّة الأحكام المبتنية على القواعد الصحيحة والمبادئ العامة للشريعة. فمُضافا لِما مرّ من الاستدلال على وجوب التعاون في إطار ثوابت الشريعة ومقاصدها، فقد استقرَّ عند الفقهاء البناء على الجبليّة الفطرية وإمضاؤها، فتارة نتكلّم عن الأدلّة الشرعية، وتارة عن بناء العقلاء.

نحتاج أوّلا أن نبحث عن معنى الكليات، وماذا يمكن أن يُستدل به على نفاذ أحكامها، بِلِحاظ أنّ الإنفاق من الثوابت الأساسيّة الأصيلة في الإسلام، عرّف د. الريسوني الكليّات بأنّها: "المعاني والمبادئ والقواعد العامة المجردة، التي تشكل أساسا ومنبعا لما ينبثق عنها وينبني عليها من تشريعات تفصيلية"[1]. فيكون المعنى الاصطلاحي العام للكليات الأخلاقية هي المعاني الخُلُقية العامة التي تعدّ منطلقا ينبني عليه تفاصيل كثيرة، وجزئيات لا حصر لها من السلوك الإنساني، أو هي أصول الأخلاق وقواعد لفروع الآداب الأخرى.

تصوّر العلماء شدّة الارتباط بين الكمالات الخلقية وبين السجية الإنسانية أوالفطرة البشرية، وأنّ الأصل عدم الفصل بين الطبع الإنساني الأصيل والمثل العليا، وأخذا بهذا الأصل يقول المعرّي[2]: "إنّ فعل كلّ ما هو جميل خير وأحسن من فِعل ما ليس بجميل، ولو لَمْ يَجْنِ المرءُ من وَراء الجميل وفعله إلاَّ أنّه خير

---

[1] الريسوني، أحمد، الكُلِّيات الأساسية للشّريعة الإسلامية، مصر، القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط 1، 2013م، ص 40.

[2] المعرّي، أبو العلاء، أحمد بن عبد الله بن سليمان، عالم وشاعر مطبوع بأسلوب المتنبي، له: اللزوميات، ورسالة الغفران، وسقَط الزَنْد، و شرح ضوء السقط، ومجموعة مدائح ومراث "الدرعيات"، توفي عام (449هـ). ترجمته في : دائرة المعارف، ص 374.

وأحسنُ وأسمى وأرفع، لكان في ذلك الغَناءُ كله"[3]. ويقول الفيروزابادي، في ماهية الطبع: "الطَبْع، والطبيعة، والطِّباع: السّجِيَّة التي جُبل عليها الإنسان، وفي الحديث: الرّضاع يغيّر الطِّباع[4]. والطِّباع: ما رُكِّب في الإنسان من المطعم والمشرب وغير ذلك من الأخلاق التي لا يزايلها"[5]. ومقتضى كلام الفيروزآبادي أنّ مختلف الأخلاق تتعاقب على سَجِيَّة المرء، وأنّ الطبع نابع عن ما رُكِّب في سلوكه من أخلاق، وبموجب هذه القاعدة التركيبية في السلوك، النزوع الأخلاقي للإنسان يستمدّ الخير والشر معا، مع أنّ النزوع الأخلاقي الحميد له الصدارة في الرسوخ في النفوس.

حين كان العلماء أمام هذه الحقيقة، جوّزوا أن تُبحث قواعد صدور أوامر وقوانين وتعاليم تنطلق من المقررات الأخلاقية على وجه الإلزام وتوجيهها في مجال تنظيم وتدبير المسائل المجتمعية، يقول الفارابي[6] في نظام المدينة الفاضلة: "يلزم مدبّر الأمّة أن يجعل ويرسم في نفوس أقسام الأمّة والمدينة هيئات وملكات إراديّة تحملهم على ذلك الائتلاف والارتباط بعضها ببعض والتعاضد بالأفعال"[7].

- **المبحث الثاني: تجذير التعاون الإتساني**

إذا كان الأصل الذي أتناوله يطلق القول بتجذُّر التعاون ورسوخه وسط الكمالات الأخلاقية وتمكنه منها، فإنّي أكاد أقول إنّ التعاون من الأصول الأخلاقية الإجماعية الذي أخذت به جميع الأمم، ورغم وضوح هذه الحقيقة فإنه لم يمنع هذا من أن يذهب العلماء والباحثون إلى نطاق واسع من التنويه، ومن تلك الشواهد كلمة جعفر البرمكيّ[8] المشهورة، وهي من أروع الخطب التي أُلقيت في التعاون والتناصر، لمّا هاج التمّرد في

---

[3] البرقوقي، عبد الرحمن، الذّخائر والعبقريات، معجم ثقافي جامع، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1360هـ، 1941م، ج 1، ص 5.

[4] قال ابن ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد (ت620هـ)، المغني، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ود. عبد الفتاح محمد الحلو، الرياض: دار عالم الكتب، ط 3، 14017هـ، 1997م، ج 8، ص155: "كره الإمام أحمد الارتضاع بلبن الفجور والمشركات... ويكره الارتضاع بلبن الحمقاء كيلا يشبهها الولد في الحمق، فإنه يقال: إن الرضاع يغيّر الطباع". وقال الألباني، محمد ناصر الدّين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمّة، الرياض: مكتبة المعارف، ط 1، 1412هـ، 1992م، ج 4، ص 65 : "منكر جدا".

[5] الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد على النجار، القاهرة، وزارة الأوقاف، ط 3، 1416هـ، 1996م، ج 3، ص 494.

[6] الفارابي، محمد بن محمد بن طَرْخان، أبو نصر(339هـ). عالم تركي المنتسب، انتقل إلى بغداد. له: العقل والمعقول، والنفس، وقوى النفس، والجوهر وغيرها. مصادر ترجمته: دائرة المعارف الإسلامية، ص 404.

[7] الفارابي، محمد بن محمد (339هـ)، كتاب الملّة، تح: محسن مهدي، لبنان، بيروت: دار المشرق، د. ط، د. ت، ج 3، ص 65.

[8] جعفر بن يحيى البرمكي، ولد عام 150هـ، اشتهر ببلاغة منطقه وتضلّعه في الفقه، وعلمه بالفلك، وهو صفيّ الخليفة هارون الرشيد ووزيره. قتل جعفر بأمر الخليفة هارون الرشيد عام (187هـ)، مصادر ترجمته: المسعودي، مروج الذهب، ج 6، ص 261.

الشام، فأرسله الرشيد لإصلاح أحوالها، فلما ألقى الخطبة، انصرفت الجموع واعية بقيمة الاعتصام والتآزر: "أوصيكم بالألفة، وأحذركم الفرقة، وآمركم بالاجتماع، وأنهاكم عن الاختلاف. قال الله : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا [آل عمران: 103]. فأمر بالجماعة في أوّل الآية، ثمّ لن ينقض حتى نهى فيها عن الفرقة، توكيدا للحجّة وقطعاً للمعذرة"[9].

ولن أحاول التّقصي في استكناه حقيقة التعاون وميزاته الاجتماعية، فذلك أوسع من أن يُحاط به في مجال ضيّق، وحسبي الإشارة هنا إلى ما استقرّ في وعي المجتمعات بقيمة التعاون لخدمة قضاياهم المشتركة، وامتداد التعاون في تحقيق النهضة الاقتصادية والعمرانية للمجتمع، وأيُّ ثقافة أخرى مخالفة لهذه الكليّة الخلقية تُخِلُّ بالحياة الاجتماعية.

إذا كان الإطار العقائدي والفكري للتعاون، حمل النصوص الكافية للدلالة على أنّ الشارع في شريعته قد أرشد إلى التعاون، مضافا إلى إثبات أنّه من القضايا الأخلاقية، ومن مستقلات العقل. فإنّ هذا لا يعفي، مع ذلك، من ضرورة خلع لباس التأصيل عليه:

أ_ من الكتاب: قال الله : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) [المائدة:2].

ب_ ومن السنة: قوله : دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك .[10]

ج_ ومن ناحية إجماع الفقهاء: قائم على وجوب التعاون والتعاضد، ولم يخالف في ذلك أحد. قال الزّمخشري: "لا تَمْنَعِ الْمَعْوَنَ والمَاعُون، حتّى يَنْعَاكَ النَّاعُون. إنَّ مَثَلَ تَوْسِيعِكَ عَلَى أَخِيكَ وقَدْ أَضَاقَ، وَحَقْنِكَ مَاءَ وَجْهِهِ أَنْ يُهْراقَ، مَثَلُ الْعَيْنِ الْغَدِيقَةِ، فِي حَرِّ الْوَدِيقَةِ، ذَاكَ مِنْ ذَوَائِبِ الخَيْرِ والنَّواصي، وَحَقِيقٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ التَّواصي"[11] .

---

[9] محمد ماهر حماده، الوثائق السياسية للعصر العباسي الأول، لبنان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 4، 1985م، ج 3، ص 176.

[10] رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك، وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم، (692/2)، رقم: (995).

[11] جار الله، محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي، الزّمخشري، (ت537ه)، أَطْوَاقُ الذَّهَب، ص 70.

د_ ومن جانب المعقول: يمكن القول أنّه ليس من الطبيعي أن يعيش الإنسان عيشة رغدة ومن حوله في معاناة، لذا فالتعاون نزعة بشرية يتوقف عليها اعتدال حياة الانسان، والوصول إلى تحقيق الحياة الاجتماعية المثلى. فيعتبر في مصاف الجذور العميقة للعلاقات الاجتماعية، فأضحى عنصرا مهما في حيوية العلاقات الاجتماعية لأن دلالته تهيئ الأرضية الصالحة لتحقق الرؤية الأخلاقية القائلة بأنّ نمط العلاقات ينبغي أن تتحرّك في خط التعاون والمسؤولية الأخلاقية للإنسان، وليس على مستوى خط التنافر والسيطرة والاستعلاء والعداء، وهي فكرة تقترب ممّا يطرحه د. عبد الله بن بِيَّه، وهو يعدِّد التحمُّلات الأخلاقية للدّين، فالإسلام "قرر بذل المعروف وإطعام الطعام ودفع جزء من المال (الزكاة) للفقراء، تكريساً للتكافل والتضامن في المجتمع، وشرع الحوار وسيلة للمناقشة حول قضايا الاختلاف حتى مع المخالف في الدين، قال تعالى ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:125] . ونسترسل في الحديث عن تشخيص طبيعة التعاون، فهو يكون داخلا بنحو من الأنحاء تحت عمومات نصوص الشريعة الإسلامية وإطلاقاتها، وبقيد الضوابط والقواعد التي تشخِّص المصالح والمفاسد، يقول د. أحمد الرَّيْسُوني عند تعرضه للتصور الإسلامي للتعاون: "كل ما هو بر وتقوى، وكل ما فيه بر وتقوى، فهو مأمور به، ومأمور بالتعاون عليه، وكل ما هو إثم وعدوان، وكل ما فيه إثم وعدوان، فهو منهي عنه، ومنهي عن التعاون عليه"[13]. وبهذا يتضح أنّ التعاون مشروط ومتأطّر بالأحكام المجتمعية التي تنبثق من الشريعة الإسلامية، بما تُقضى به مصالح الفرد وحاجات الأمة "والإسلام الحنيف قد قيّد التعاون بقيد إنساني رفيع القدر عالي القيمة، إذ شرط فيه أن يكون تعاونا على البر والتقوى، وحرَّمه إن كان تعاونا على الإثم والعدوان"[14].

❑ المحور الثاني: فلسفة المنفعة في الإسلام وتغليب الضمير الاجتماعي

▪ المبحث الأول: نظرية المنفعة في الإسلام

---

[12] عبد الله الشيخ المحفوظ ولد بيه، خطاب الأمن في الإسلام وثقافة التسامح والوئام، الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ط 1، 1419هـ، 1999م، ص 36.

[13] د. الريسوني، أحمد، الكُلِّيات الأساسية للشّريعة الإسلامية، ص 122.

[14] مجموعة مؤلفين، الموسوعة الإسلامية العامّة، إشراف: د. محمود حمدي زقزوف، القاهرة: وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د. ط، 1424هـ، 2002م، ص 391.

لقد حظيت نظرية المنفعة[15] عند علماء الأخلاق باهتمام فائق، فيُدّعى أنّ المنفعة بمثابة الأمارة على المصالح والمفاسد، والالتزام بتبدّل الأحكام إلى ما يوافق هذا الأصل، ولا يعدو التشريع أن يكون متصيّداً من ذوق الناس وكلماتهم في موارد المنفعة. ولكي تتضح معالم ومفهوم فلسفة المنفعة من الناحية النظرية عند فلاسفة الأخلاق، نقف في ذلك مع د. محمد سعيد رمضان البوطي وهو ينصرف إلى تناول هذه النظرية بالنقد والتوهين: "الميزان الذي اتخذه علماء الأخلاق لضبط المصالح ومعرفتها ميزان دنيوي مجرد. إذ اعتبروا أن أمر الدنيا وما فيها من مظاهر اللذائذ والآلام من صنع مَن فيها وابتكارها، فهم أصل تعيمرها وهي ثمرة سعيهم فيها. فكان لابد أن يصبح ميزان الخير والشر عندهم ما يتواضعون عليه، أو ما يبدو لهم من التجارب والخيرات، أو ما يستقل به الإحساس والوجدان البشري"[16].

بقيد الفقهاء، معاني المنفعة تختلف عن سابقتها عند الفلاسفة، فالمنفعة التي تدخل في تشخيص المصالح الفردية والعامة، هي ما لا تخرج أو تتصادم مع منظور الشريعة. نعم، يمنح التشريع للمنفعة صفة تشريعية ثانوية ونوّطها بها، وفق قواعد وضوابط اجتهادية خاصة، لتستوعب الشريعة بها جميع الحركات الإنسانية وسكناتها، ولا يقال العكس. يقول أبو زهرة: "وليست المنفعة مرادفة للهوى، لأن الهوى قد يكون انحرافا نفسيا، ومجاوبة للأنانية الشخصية، وبهذا يكون مناقضا للمنفعة، لأن المنفعة المقصودة في الأخلاق كما نوهنا هنا هي المنفعة التي تعود على أكبر عدد في البناء الاجتماعي، بأكبر قدر ممكن"[17]. القصد من ربط المنفعة هنا بالبناء الاجتماعي هو الخلوص إلى ارتباط المنفعة المعتبرة بالمناخ الإسلامي الذي تتفاعل معه، والبراءة من المنفعة التي تفيد مجرد نزعة بشرية نحو المصالح والأهواء اقتضتها طبيعة الإنسان.

مبادئ الشريعة وقواعدها وفلسفتها في التشريع لا تتلون بالرغبات النفسية، ولا تتوقف موازينها على مطلق مزاج الأفراد أو المجتمعات واختلاف الميول والأحاسيس. إنّما يأتي التعامل مع الواقع الاجتماعي مع الحفاظ على هوية التشريع وأصوله ووأهدافه، وهذه هي الفكرة التي طبعت الحياة الاجتماعية الإسلامية

---

[15] ممّا يجب تسجيله الإشارة إلى أنّ لمذهب المنفعة أو النفعية Utilitarisme فيلسوفان شهيران، أحدهما (بنتام)، والآخر (استيوارت ميل)، وأورد هنا تعريفا للفرد النفعي، كما في المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، د. جميل صَليبا، لبنان، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، د. ط، 1982م، ج 2، ص 499: "النفعي من الرجال من يؤثر المنفعة على كل شيء، والنفعي من الأشياء ما يترتب عليه النفع ويرادفه النافع. وقد يطلق النفعي زراية على الرجل الذي لا يفكر في المثل العليا".

[16] البوطي، محمد سعيد رمضان، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، دمشق: مؤسسة الرسالة، د. ط، 1993 م، ص 23.

[17] أبو زهرة، محمد، تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط، 1385هـ، 1965م، ص 54.

بطابعها، يقول أبو زهرة: "الغاية الإنسانية العالية هي فعل الخير وتجنب الشر، وما من جماعة فاضلة إلاّ جعلت الخير أساس اجتماعها، والابتعاد عن الشر عنصر اتحادها... والمذهب الذي راج في العصور الأخيرة، وقد اعتبر أساسا للقوانين الحاضرة، كما اعتبر أساسا لكل مجتمع فاضل هو مذهب المنفعة، وهو أن تكون الفضيلة أو الخير هو الأمر الذي يكون فيه أكبر نفع ممكن لأكبر عدد من الناس"[18]. هذا ما يخص النقطة الأولى التي تبيّن أنّه لا يمكن القول بإطلاقية المنفعة في كشف مناطات الأحكام.

أما ما يتعلق بالنقطة الثانية وهي في التطبيق العملي لمساحة المنفعة، فتتلخص في مبدأ: الغاية والمنفعة تبرران الوسيلة، حيث ذهب فلاسفة الأخلاق إلى حدود بعيدة في تطبيقات المنفعة، فلا يغيب عندهم أنّ غاية المرء التي يرجوها لا تحدّها حدود معينة، ورأوا أنّ الوسائل التطبيقية ليس لها إلاّ الاستجابة والمطاوعة، بخلاف ما تجمع الشريعة على تحريمه، فضلا عن العقل الراجح، عندئذ يقال بتقييد الوسائل، بما هو مشروع، ولا يمكن تقديم تنازلات في المبادئ الأساسية للشريعة، وإنّما المطلوب مراجعة المنفعة، وتقويم وسائلها وتعديلهما بما يتلائم مع النظام التشريعي الواقع، وما يتوقف عليه إكمال النفوس وإصلاح أخلاقها.

ومن يصح أن يُعزى إليه مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) من فلاسفة الأخلاق هو الكاتب الإيطالي الشهير نيقولا مَكْيافيلي[19]، وقد يدعو بعضهم نهج المنفعة بنهج المكيافيلية، وفي نطاق استهجان الأساليب المكيافيلية للنظرية الفلسفية للمنفعة، يقول د. أحمد الرَّيْسُوني: "يُذكر هذا المبدأ (يشير إلى مبدأ الغاية تبرر الوسيلة) عادة مقرونا بالرفض والإنكار، نظرا لما ارتبط به من معاني الدناءة والخسة، بفعل الممارسات التي تمت بمقتضاه، وبحكم التاريخ الذي رافق رواج هذا المبدأ"[20]. وهنا تحفّظ الفقهاء كثيرا على معنى الوسائل، فلا بدّ من الحفاظ على المبادئ والمفاهيم الإسلامية في التعامل مع المقاصد وعلاقتها بالوسائل في إطار التصور المقاصدي الرصين الذي يلحظ مقصود الشرع أولا، وليس بالضرورة التكيّف مع ضغوط المنفعة، يقول د. أحمد الرَّيْسُونِي: "من أهم القواعد التي يرتكز عليها الفكر المقاصدي، ويهتدي بها في نظره

---

[18] تنظيم الإسلام للمجتمع، ص 54.

[19] نيقولا مكيافيلي Nicola Macchiavelli، ولد ومات بفلورنسا بإيطاليا (1469_1527م)، عمل في الوظائف السياسية، ثم أبعد من مهامه بعد سيطرة أسرة المديشي على الحكم في فلورنسا، من مؤلفاته: المطارحات، والأمير.

[20] الريسوني، أحمد، نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم السياسية، مصر، القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط 1، 1431هـ، 2010م، ص 391،392. بحذف.

وفقهه: قاعدة التمييز بين المقاصد والوسائل، مع ما ينبني على ذلك من وضع كل منهما في موضعه وإعطاء كل منهما منزلته ووظيفته... والشرع فيما يأمر به وينهى عنه... قد يطلب فعل شيء لأن بواسطته يمكن الوصول إلى ما هو مطلوب حقيقة، وهو مقصود الشرع فيما أمر به. وقد يطلب ترك شيء لأنه يقود ويفضي إلى ما يقصد الشرع منعه واجتنابه"[21]. إنّ ميزان المصالح في الشريعة الإسلامية مضبوط بمنافع الدنيا والآخرة معا، بل النظرة إلى مصالح الدنيا محكومة بسلامة المصالح الآجلة.

لقد فرعت المفاهيم التصورية المقاصدية عن هذا، ملاحظة تأثير الغايات على أحكام الوسائل، مع المحافظة على الموقف العام للشريعة، حيث لم يشق عليهم أن يجمعوا بين الغايات والوسائل النافعة، دون الميوعة التشريعية التي تقود أفكار وخيارات المجتمع في إطار الأطروحة الفلسفية العامة للمنفعة، ويمضي د. أحمد الرَّيْسُوني في استعراض هذه الملكة التشريعية العالية، فيقول: "وإذا كان من غير الممكن قبول مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) على عمومه، وعلى علاته، وعلى ما شحن به من آراء مكيافيلية، فإن من غير السليم أيضاً ما يتجه إليه كلام بعض الكتاب الإسلاميين، من إنكار لكل تأثير للغايات على أحكام الوسائل، مما يؤدي إلى جمود في الفكر والعمل، بل قد يؤدي بالمسلمين إلى تفويت الكثير من مصالحهم المشروعة"[22]. وإنّ لهذا الأصل حضورا في أكثر من باب في كتب أصول الفقه، وأكثر ما يمكن أن نستفيده هنا هو أنّ فلسفة المنفعة في الإسلام، تقوم على أساس من ذلك التصور الاجتماعي الذي لا يجعل تطبيقها خارجا عن موارد الشرع، بل تعبيرا عن كمال الشريعة في استيعاب المنافع البشرية وقدرتها على مواكبة مصالح الإنسان، ولا داعي إلى أن أتثقل المطلب بالمزيد فيقحم عليه ما ليس منه.

---

[21] الريسوني، أحمد، الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ديسمبر 1999م، ص 77. بحذف.

[22] د. الريسوني، أحمد، نظرية التقريب والتغليب، ص 394.

المبحث الثاني: الضمير الاجتماعي في الإسلام: من المصلحة إلى الكمال الإنساني.

الثابت في التشريعات الإسلامية أنّها تتميّز بانسجامها ومواءمتها مع الفطرة، لأن الله ﷻ يعلم كنه فطرة الخلق، من احتياجاتهم ونزعاتهم النفسية، في حين تعجز الأنظمة التقنينية عن إدراك جميع احتياجات الانسانية. وقد مرّ _ سابقا_ كيف تنبني المنفعة على التكوين الفطري، والأخلاق الغريزية، فالأصول والمبادئ العامّة والكلية للشريعة تنسجم مع فطرة الإنسان من غرائز وميول، ومنها انشداده إلى العدل ومكارم الخلاق، ونفوره من الظلم والمساوئ، وكل ما تتجافى عنه الفطرة السليمة. فالإنسان الطبيعي الذي لم يتأثر بمساوئ مجتمعه، ولم يكن خاضعا لبعض التراكمات التي تشوّه الفطرة، يدرك بعقله المحاسن والمساوئ، والخير والشر. ويرى هنا جمال الدين العطية: "أنّ من الممكن أن تكون الفطرة أساسا لتشخيص مقاصد الشريعة في حالات غياب النص"[23].

وهذه الجزئية مرتبطة بمبحث استناد التعاون في جوهره إلى ارتكازات عقلية فطرية يدركها الإنسان، وتنسجم معها تشريعات الإسلام، على مستوى الحقوق الطبيعية مثلا، كحق الغذاء، وحق السكن وحق الملبس وغيرها، فهي حقوق فطرية، وكذلك الحقوق العامة، كحق الرعاية الاجتماعية للفئات الهشّة ونحوها. القضية الدامغة هنا هي تميّز الشريعة بالواقعية، إذ لم يمنعها ملاحظتها للمثل الأخلاقية العليا، أن تأخذ بعين الاعتبار الواقع القائم وتشرع له ما يعالجه. فراعى التشريع واقع الحياة من حيث جانب الخير وإرادة النفع، بمعنى: "أنّه ليس شريعة (يوتوبيا)[24] شرع لجمهورية أفلاطون، أو للمدينة الفاضلة للفارابي"[25]. وهذا المنهج الواقعي يبعد التشريع عن الاستسلام للخيال المفرط والأوهام الطوبائية النظرة. ومن مظاهره في التشريع مراعاة واقع الإنسان من حيث غرائزه ودوافعه، وأحواله واستعداداته، فلم تُخِل بظروفه الكونية والحياتية المحيطة به، وإنّما ارتبطت الشريعة بالجوانب الفطرية، وجاءت بالأحكام التي تحقّق إشباعا لحاجاته سواء على مستوى الفرد، أم الأسرة، أم المجتمع، أم الدولة.

وعلى هذا تعرّض الفقهاء لدور الشريعة الإسلامية في تهذيب الضمير، وقد كان هدف التعرّض بالبحث عن هذا الاعتناء الشديد للإسلام بالشأن الاجتماعي والمسير في دربه، هو التوصّل إلى ما يعدّ أخصب الطرق

---

[23] العطية، جمال الدين، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، سوريا، دمشق: منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر، د. ط، 2003م، ص 24.

[24] اليوتوبيا، مفهوم فلسفي، يعني المكان الذي يبدو كلّ شيء فيه مثاليا، ولا توجد فيه أيّ نوع من أنواع شرور المجتمع.

[25] القرضاوي، يوسف، مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1414ه، 1993م، ص 110.

لمسايرة الناس للتشريعات الاجتماعية، وإنّ تعقب جملة من أقوال العلماء قد يفي باستبانة المعنى الذي أريد، كقول أبي زهرة: "وإن التكافل الاجتماعي المنبعث من النفس ابتداء أجدى على المجتمع من تكافل بقوة القانون من غير اعتماد على الإيمان والضمير الديني، لأن ما يبنى على القانون قد يوجد في النفس ما يبرر مخالفته، أما ما يعتمد على الضمير الديني أولا، ثم على القانون ثانيا فإن المؤمن يطيعه على أنه أمر من الله الذي يعلم السر وأخفى[26]" . ففي رأيي ما قاله أبو زهرة يرتد إلى المَلَكة الاجتماعية التي تنمو في نفوس الناس أوقظتها تعاليم الشريعة. وهذه نقلة مهمّة إلى الشؤون الاجتماعية.

وأظن أنّ الذي أوردت مفيد في استبانة طبيعة المنظومة الدينية التربوية التي تتجاوز حدود الطابع القانوني والاجتماعي والسياسي، فالتشريع في جميع الموضوعات التي تتصل بأنشطة الإنسان ومجالات الحياة، سواء أكانت فردية، أم جماعية، ينمو من بذر الإيمان والوجدان، بل يذهب أبعد من ذلك حين اقتصر على الحد الأدنى من التشريعات، في تحديد حدود ما ينبغي وما لا ينبغي، وتحريك أحكام العقوبات، لحل المشكلات القانونية والحقوقية الممتدة إلى عمق البنى الاجتماعية، ففي هذه الصورة لا ينفع مجرد تحديد الحقوق والواجبات وإجراء الحدود من وجهة تشريعية لفض المنازعات على أرض الواقع، بل يجب أن نتحرك على مستوى المقاربة الفقهية الأخلاقية، ومحاولة الجمع بين الاثنين.

وأتوقع أن يُجاب عن هذه الإشارات، بأن المقرّرات القانونية لا يصحّ تصوّر إمكان إهمال مقتضياتها لعلمنا بإسهام الشريعة في تكوين حوافز الاستجابة كما ذكرت، طبعا، إن ذلك لا يقول به أحد، والفقهاء أنفسهم لا يتجاهلون دور القوانيين في تمثل الحقوق. وإنّما قصدت أنّ التشريع العصري يؤدي وظيفته بضميمة المقاييس الشرعية إليه.

---

[26] أبو زهرة، التكافل الاجتماعي في الإسلام، القاهرة: دار الفكر العربي، مطبعة المدني،1991م، ص13.

❑ المحور الثالث: الرّوافد التأسيسة والثقافية للتعاون وتداعياته المعاصرة

▪ المبحث الأول: الصورة الأدبية للفضيلة الاجتماعية.

مما يستيقنه دارس مسائل وقضايا العمل الاجتماعي في المجالات الحياتية المختلفة أنّ التعاون هو المصداق الواضح لتأهيل العمل الإنساني في هذا المضمار، وإذا كانت الدراسة تِلْو الدراسة تجمع على أنّ للتعاون مكانته الأولى في الشؤون الاجتماعية، وتعدّه المبدأ الأساس في كافة مفاصلة وجزئياته، فإن هذا لا يجوز أن يصرفنا عن الوقوف على روحية النّص ودلالاته على قيمة الإنفاق وتقرير دوره في حياة الفرد والمجتمع، وإن شئتَ قلتَ: هو أمر يتطلّبه منحى الارتكاز إلى الدعائم والقواعد، فلم يكن مع هذه الحال إلاّ أن انبثق _على الصعيد الفكري _ النتاج العلمي الإسلامي التراثي الذي استقر على أنّ التعاون يعدّ من أخصب الطرق لتحقيق مصالح المجتمع وحاجاته.

فثمة إذن ما يفيد أنّ المناخ الديني هو الذي فرض انبعاث فقه العمل الاجتماعي، وتطوّره في تطبيقات معاصرة تفرضها الحاجات المتغيّرة والتحوّلات الزمانية والمكانية المستمرّة. ومن أجل عرض ما أذهب إليه في هذا البحث، فقد آثرت أن أشخص أوّلا مقدار تحفّي الشريعة بالنّجدة والمروءة والتَّسَخّي، وملاحقة مسألة التعاون في روافدها الثقافية القديمة، من خلال حرص القرآن الكريم على أن يُسند للتعاون اهتماما تخصيصيّا مركّزا لتوطين ذهن الإنسان المسلم على بناء ثقافة المشروع المجتمعي، فأصبحت قضية التعاون أسمى من أن تكون جزئية فقهية. قال الله ﷻ:﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:2]. ثانيا ،تعضيد السنّة العملّ الاجتماعي، وتقرير القيم والمعاني والحِكَم الاجتماعية، بما يحقّق العدالة الاجتماعية التي يتبنّاها الإسلام، ويخدم الحاجات العامة للمجتمع، واستلهام صيغ تشريعية متطورة للعمل الاجتماعي من مؤشراتها العامة سيرة النّبي ﷺ التي أوحت بالروح الاجتماعية والإنسانية فقد "ذكروا النّبي ﷺ، فقالوا: لم يَضَعْ دِرْهَما على درهم، ولا لَبِنَةً على لَبِنَةٍ. ومَلَكَ جزيرةَ العرب، فقبَض الصدقات، وجُبِيَتْ له الأموالُ، ما بين غُدْرانِ العِراق إلى شَحْرِ عُمانَ[27] إلى أقصى مَخالِيف[28] اليمنِ، ثم تُوُفِّيَ وعليه دَيْنٌ، ودِرْعُهُ مرهونةٌ. ولم يُسْأَلْ حاجة

---

[27] ساحل البحر بين عمان وعدن.

[28] المخلاف: الكورة، وهو عند أهل اليمن، واحد المخاليف، وهي كورها أي المدن والأصقاع.

قَطُّ فقال: لا. وكان إذا سُئِل أعطى، وإذا وَعَدَ أو أطْمَعَ، كان وَعْدُه كالعِيان[29]، وإطْماعُه كالإنجازِ. ومدَحَتْه الشُّعراءُ بالجود"[30].

هذه الأمثلة المسوقة هي صورة مصغرة ومختزلة عن ما انطوت عليه السنّة من قيم التعاون، وقد وُجِدت مؤلفات حديثية خاصّة تستوعب أحاديث التعاون والبذل، تصلح أن تقدم بين يدي الموضوع.

لا نحتاج إلى جهد كبير في فحص الأدب العربي ومطولاته، للإبانة على مركزية التعاون، وعدّه من سجيّة الأخيار والفضلاء، والأمثلة على هذا السلوك في الأدب العربي قبل الإسلام وخلاله أمثلة كثيرة، جاء في دائرة المعارف الإسلامية: "ولا تفتأ قصص الكرماء تثير الإعجاب لدى القراء المسلمين، خاصة حينما تُقابل بقصص البخلاء. وعلاوة على ذلك فالإسلام قد أدخل معنى (الصدقة) لتجمع بين مفهوم الكرم كما عرف قبل الإسلام، مع مفهوم التعاطف مع حاجة المتلقي لتكون فضيلة من أكبر الفضائل"[31].

إنّ في كتب الأدب والتراث عموما، مواقف كثيرة معبّرة عن مستوى عال من الفكر الاجتماعي السائد، ولعلّ أبرز ما عرف من هذه التمثلات الاجتماعية: الحجابة، والرفادة، وقرى الأضياف، والجود، وذم البخل، وعقد الأحلاف... يقول الخوارزمي: "الحجابة حجب بيت الله الحرام. الرفادة شيء كان فرضه قصي بن كلاب على قريش لطعام الحجاج، وكان كل منهم يخرج صدرا من ماله على قدر طاقته، فيجمعون مالا عظيما لإطعام الحج، كانوا يترافدون على ذلك. السقاية سقي الحاج"[32]. هذه قيم أثيلة متجذرة في الثقافة العربية، وأود أن أفيد هنا أنّي لا أقصد متابعتها بالتأريخ أو بالتحليل، وإنّما أنتهج إسقاط معطياتها على الشأن الاجتماعي، فهي مدروسة بتفصيل في أي مصنف أدبي للثقافة العربية القديمة.

---

[29] العيان: مصدر عاين الشيء، أبصره. والمعنى أنّ وعده في الوثوق بتحقّقه كالشيء المشاهد.

[30] الذّخائر والعبقريات، ج 1، ص 97.

[31] دائرة المعارف الإسلامية، ص 10027.

[32] الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت387هـ)، مفاتيح العلوم، راجعه وعلّق حواشيه: محمد كمال الدين الأدهمي، قام بطبعه وتصحيحه وترقيمه، عثمان خليل، مصر: ط 1، 1349هـ، 1930م، ص 79، 80.

وإذا كان من ملحظ يمكن أن يقف عليه الناظر إلى حلف الفضول[33] فهو التعبير عن نزعة اجتماعية واضحة نحو التماسك والتعاضد لمصلحة المجتمع، بعد أن أدرك الناس في جزيرة العرب قبل الإسلام مساوئ التشتت والتشرذم، قال الخوارزمي: "حلف الفضول كانت قريش تتظالم في الحرم، فتحالفوا على أن ينصروا المظلوم، فذلك حلف الفضول"[34]. فهذا الحلف معاهدة عقدت بين بني هاشم وبني المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، قبل بعثة النّبي ﷺ بنحو عشرين سنة، لفتت السنة الأنظار إليها، واجتذبتها نحو الالتقاء مع ثقافة الإسلام، للوفاء بالقيم والمبادئ الاجتماعية.

ومن المعالم الكبرى في سيرة النبي ﷺ تعاقده على كل تعاون إنساني، فقد قال ﷺ: "لقد حضرت بدار عبد الله بن جدعان حلفا، ما يسرني به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت ."[35] ﷺ

بقدر ما ألحت هذه المجتمعات على تقوية روابط الاجتماعية فيما بينها ودعم وجودها بالأحلاف، فإن الثقافة العربية قد حرصت بالقدر نفسه على التنفير من البخل والترفع عنه، والإشعار بأهمية الجود في حياة المجتمع وتحبيبه إلى النفوس، وقد كان ولا شك هذا عاملا قويا يدفع الناس إلى مزيد البذل والعطاء.

وتطلب ذلك ضبط مفهوم البخل ودلالاته اللغوية ورصد طبيعته النفسية، يقول الفيروزابادي: "البُخْل_ بالضم، وبالفتح_، والبَخَل _بالتحريك_، والبُخُول مصادر بَخل يبخل، كعلم يعلم، فهو باخل من بُخَّل_ كَرُكَّع_، وبخيلٌ من بُخَلاءَ"[36].

واصطلاحا: "البُخْل: إمساك المقتنَيَات عمّا لا يحِقُّ حَبْسها عنه. ويقابله الجود. والبُخْل ثمرة الشُّحّ، والشُّحُّ يأمر بالبُخْل، كما قال النّبي ﷺ: "إيّاكم والشُّحّ، فإنَّ الشُّحَّ أخلك مَنْ كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخِلوا،

---

[33] سبب التسمية: أن ثلاثة من قبيلة جرهم، هم الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث، قد عقدوا قديما نظيرا لهذه المعاهدة، فلما أشبه فعل القرشيين فعل هؤلاء الجرهميين الأُول المسمون جميعا بالفضل، سمي الحلف حلف الفضول.

[34] مفاتيح العلوم، ص 79، 80.

[35] رواه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية، (367/6)، برقم: (12719) وأورده محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت230ه)، كتاب الطبقات الكبرى، تح: د. علي محمّد عمر، مصر، مدينة 6 أكتوبر: الشركة الدولية للطّباعة، ط 1، 1421ه، 2001م، ج 1، ص 129.

[36] الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ج 2، ص 227.

وأمرهم بالقطيعة فقطَعوا[37]، فالبخيل من أجاب داعي الشحّ، والمُؤثر مَن أجاب داعيَ الجود، والسخاء، والإحسان"[38]. قال د. أحمد الرَّيْسُونِي: "فالمغزى العام هو أنّ الإنسان أوتي الأموال والخيرات، لينفقها لا ليمسكها، وليستعملها فيما ينفعه وينفع غيره، لا ليكون هو عبدا لها مستعمَلا في جمعها وحراستها"[39].

ورأوا أنّ ذمّ البخل من الأساسيات والبدهيات: قال أبو حاتم: "ولقد ذم البخل أهل العقل في الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا، فمنه ما أنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

كأنّما نُقِرتْ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ والنَّدَى عَمَلُ

"وأجمَعَت الأمَمُ كلُّها بَخيلُها وسَخيُّها وممزوجُها[40]، على ذمّ البخل، وحَمْد الجود"[41]. وقال الفيروزابادي: "والبُخْلُ ضربان: بخل بقنيات نفسه، وبخل بقنيات غيره. وهو أكثرهما ذَمًّا. وعلى ذلك قوله ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء:38]"[42].

وساقت بعض المصادر المهتمة بتعداد الألقاب جميع الألفاظ التي تطلق على البخيل إمعانا في ذمّ شخصيته الخالية من المعايير الاجتماعية الذوقية ، مثلما صنع اللّبابيدي[43] فأورد عشرات الأسماء للبخيل، وهي: "الْحِلِزُّ، اللِّحِزُ، الأَصْلَدُ، الْمُزَبَّدُ، الأَحْرَدُ، جَمَادُ، النَّحَامُ، العُرْضُومُ، الكَلْثَبُ، الكُلاثِبُ، الكَلْبَثُ، الكُلْبُثُ، الكُلابَثُ، الحَجَّامُ، المُجْمَدُ، الشَّدِيدُ، المُتَشدَّدُ، الحَقَلَّدُ، الحَصِرُ، الحَصِيرُ، الحَصُورُ، اللَّكِزُ، القَتورُ، العَضَمَّرُ، الفِلَّزُ، القِبْر، الجَلْحِزُ، الجِلْحَلزُ، الجِبْزُ، الضِّرْزُ، الضَبِيسُ، الكِيِّصُ، الكَيِّصُ، القَعْلُ، الدِّفْناسُ، الرِّصَّاصَةُ، القِعْبِرِيُّ، الفَلَنْسُ، الجِلْحَانُ، المِعْزِيُّ، المِلْزابُ، العَاكِلُ، الصِّنَّوْرُ، الحِصْرَمُ، الزُّغْبُبُ، الكَنُودُ،

---

[37] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت751ه)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط 2، د. ت، ج 2، ص 216.

[38] الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ج 2، ص 227.

[39] د. الريسوني، أحمد، الكُلِّيات الأساسية للشّريعة الإسلامية، ص 121.

[40] ممزوجها: من امتزج فيه السخاء والبخل، فكان وسطا بين الكريم والبخيل.

[41] الذّخائر والعبقريات، ج 1، ص 98.

[42] الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، ج 2، ص 227.

[43] أحمد بن مصطفى البَابِيدي، من أهل دمشق، توفي سنة 1318ه، قال عنه صاحب (معجم المطبوعات العربيو والمعَرَّبَة): "له كتاب لطائف اللُّغة، وهو يشتمل على غريب اللغات اللّطيفة المعاني، الدَّقيقة المباني على كثير من الأمثال والحكم". مصادر ترجمته: معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، ليوسف إليان سركيس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د. ط، د. ت، ج 2، ص 1586.

الكَتيتُ، المُتَشَمِّسُ، الشَّكِعُ"[44]. وبلغة تعبيرية بيانيّة يورد الجاحظ[45] رسالة تُنَوِّه بالجود، ويَنْعَى فيها على البُخلاء مذهبهم، قال: "المُمسِكُ معذَّبٌ، يَحْصِر نفسه، وبالكدِّ لِغيره، مع لُزوم الحجة، وسقوط الهِمَّة، والتعرُّض للذمّ والإهانة، ومع تحكيم المِرَّة السوداءِ في نفسه، وتسليطها على عِرضه، وتمكِينها من عيشه، وسرورِ قلبه"[46].

وتكوّن نوع آخر من التطبيقات الاجتماعية استهوى العرب هو قِرى الأضياف، ومما يعطي صورة عن حجم التفاخر بقرى الأضياف والإشادة به، ما جاء في الذّخائر والعبقريات: "وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتَنُّوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوانَ الكرم والنجدة والمُروءة، ووضَعوا له آدابا ودساتير. ذلك هو قِرى الأضياف[47]". فهذه ملامح تثبت ما أشرت إليه في البدء من أن المرتكزات السابقة أصل يلاذ به في إقرار رعاية العمل الاجتماعي ومقتضياته، وليس بالإمكان الإكثار من الشواهد لأنّ فيما قدمت كفاية لإبراز المناخ العقائدي والفكري للتعاون.

- **المبحث الثاني: أنسنة الاقتصاد الإسلامي.**

ومضيا على مسلك البحث وجدت أنّ موضوعا كموضوع التعاون، فرصة لأتقصّى مجموعة من الطروحات الاجتماعية المهمّة، تلفت إلى الإمكانات الفقهية في تحقيق التضامن والالتحام، ولعلّ المنفعة الحديّة فرع عن هذا، وفي سبيل التوضيح: لو أنّ هناك إنسانا، شرع يتناول لقيمات من الطعام، فإن اللقمة الأولى تكون مفيدة، والثانية أقل، والثالثة أقل، وهكذا تتراجع منافع ما يتناوله، إلى أن تصل منفعة لقمة معينة هي الصفر، لتأخذ قيمة اللقمة التي تليها رقما سالباً، أي تتحوّل المنفعة إلى مضرة بعد حدّ معيّن من الطعام. فإذا أسرف الشخص في طعامه، فإن الذي زاد عن حاجته يصيبه بالضرر، بدلا من النفع. في حين

---

[44] البَابِيدي، أحمد بن مصطفى الدّمشقي (ت1318هـ)، مُعجمُ أسماءِ الأشياءِ المُسَمّى اللطائف في اللغة، دراسة وتحقيق: أحمد عبد التواب عوض، القاهرة: دار الفضيلة، د. ط، 1997م، ص 111.

[45] الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكنائي (ت255هـ)، كاتب شهير من أئمة البلاغة ومتكلّم. وهو من شيوخ معتزلة البصرة. له: كتاب الحجج في النبوة، كتاب المعرفة، كتاب خلق القرآن. ترجمته في: الأعلام للزركلي، ج 5، ص 74.

[46] الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، البخلاء، حقّق نصه وعلّق عليه: طه الحجاري، القاهرة، كورنيش النيل: دار المعارف، ط 5، د. ت، ص 121. ومعاني المفردات كالآتي: جشوبة المأكل: غلظه وخشونته. والمسك: الجلد، والمراد النفس والشخص. والهامة: الرأس. واللئيم: الشحيح. ولزوم الحجة: مع قيام الحجة عليه في بخله. وسقوط الهمة: العجز عن جلائل الأعمال. المرة السوداء: المزاج المضطرب بكثرة المخاوف والقلق، ومعناه أن مخاوفه من الفقر تتمكّن منه فتنغص عليه حياته.

[47] الذّخائر والعبقريات، ج 1، ص 118.

لو أنفق هذا الفائض، وقدّمه لشخص آخر فقير، فإنّ هذا الفقير سيحقّق منفعة. وبهذا فإنّ الإنفاق يعزّز المنافع الكليّة للمجتمع، بتحويل ضرر الثري إلى منفعة له ولغيره. فإذا حصل الإنفاق، رجع الاستهلاك عند الثري إلى الحد النافع الذي يحميه من ضراوة الإسراف. وارتفع عند الفقير إلى الحد النافع الذي يحميه من ضرر الفاقة. وحينما تعتقد المجتمعات هذه التصورات، وتتمسّك بهذه الأدبيات، فإن من الطبيعي أن ينعكس ذلك على سلوكها الحضاري، ومن هنا يتكوّن العمل الاجتماعي.

من الأخطاء المنهجية التي يقع فيها كثير من الباحثين، استحداث العمل الاجتماعي، ونسبته بتمامه إلى الغرب، بل لا أحسب أن المجتمعات الغربية قد روضت جميع أذواق أفرادها على الفضيلة والمحبة والوداد، كما يتصوّرون، إذ ليس بمقدور أحد أن يجحد ما يتطبّع عليه الناس هنالك من الإثرة والأنانية، التي تعمّقها الليبرالية المجرّدة من المحتوى الإنساني، بمنطقها الرأسمالي الذي يعلي من القيمة النفعية والفردانية، والذي يرتكز على النزوع المادي، يقول د. رفيق يونس المصري: "وهناك في الغرب من يقف في وجه مساعدة الفقراء، ومن يرى أن الأغنياء إنّما صاروا أغنياء بعلمهم وعملهم وكفاءتهم، وهو معنى قوله تعالى على لسان قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: 78]، وأن الفقراء لا محل لهم في المجتمع، إن لم يساعدوا أنفسهم بأنفسهم، بالعمل والسعي بالتغلب على فقرهم، وهو معنى قوله تعالى، على لسان هؤلاء وأمثالهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: 47]"[48].

والاقتصاد في ما يقدّمه الدرس الحديث: "العلم الاجتماعي الذي يهتم بتحليل الأنشطة التجارية، وبمعرفة كيفية إنتاج السلع والخدمات... ويعرّف الاقتصاديون (المتخصصون في علم الاقتصاد) الاقتصاد بأنّه العلم الذي يُعنى بدراسة كيفية إنتاج السلع والخدمات وتوزيعها"[49]. ولا يمكن هنا الغياب عن الاتجاهات الاقتصادية، ومحاولة الكشف عن جوانبها الفكرية السارية في البناء النظري للتعاون، بالقدر الذي يتطلّبه المقام:

تأطير الاقتصاد بالحرية هو محور النظام الرأسمالي، دون اعتداد يُذكر بالنزعة الإنسانية أو المضمون الاجتماعي، يقول د. يوسف القرضاوي: "فروح النظام الرأسمالي يتجلى في تقديس الفرد ومصلحته الشخصية وحريته التي تكاد تكون مطلقة في تملكه المال وتنميته وإنفاقه، وخلق تلك العقلية النفعية

---

[48] المصري، رفيق يونس، المحصول في علوم الزكاة، سورية، دمشق: دار المكتبي، ط 1، 1426هـ، 2006م، ص 112، 113.

[49] مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط 2، 1419هـ، 1999م، مج 2، ص 410، 411.

الفردية الانتهازية، التي لا تهتم بغيرها ما لم يكن من ورائه كسب، ولا يعنيها مصلحة المجتمع ولا سيما إذا اصطدمت بمصلحته، ولا يشغلها إلاّ منافسة الخصوم والتغلب عليهم، تلك العقلية التي لا يهمها إلاّ الربح المادي بأكبر قدر ممكن، وبكل سبيل مستطاع"[50].

إنّ عدم الملكية الفردية هو قاعدة جوهرية للإقتصاد الاشتراكي[51]، وكذلك الصراع الطبقي، وتحويل المجتمع الإتساني إلى بؤرة من التوترات الاجتماعية، فتأثير الاشتراكية أو الشيوعية لا يتوقف على خصوص المضمون اقتصادي، أو المتعلق به من تحديد أساليب توزيع الثروة والملكية الجماعية ورسم السياسات الاقتصادية العامة لوسائل الإنتاج، بل يشمل حتى الجانب الأهم فلسفة القيم والدين.

ولا ريب في أن أساس الأيدلوجية الاشتراكية المعارض لغريزة حب التملك، لا تتفق مع الفطرة ومخالفة للعقلانية، يقول د. مناع القطّان: "حاولت المذاهب الاشتراكية ولا تزال تحاول أن تفلسف الاشتراكية فلسفة يقتنع بها الناس بأنّ أموال الدولة أموالهم حتى يصلوا بالإخلاص الذي يعمل به المرء في ماله الخاص، ولا شك أن هذا أمر خيالي يتنافى مع الإحساس الفطري ولا يقبل المرء إلاّ ما يتّفق مع فطرته"[52].

على صعيد آخر الاقتصاد الاسلامي في مفهومه العام، كما تدل الصياغة اللفظية: "مجموعة الأصول والمبادئ العامة الاقتصادية الثابتة والمستخرجة من القرآن والسنة، ومجموعة التطبيقات الاقتصادية المستندة إلى تلك الأصول والمبادئ العامة، والتي تحكم وتنظم الحياة الاقتصادية للمجتمع الاسلامي"[53]. وقيل: "مجموعة الأصول الاقتصادية العامة التي نستخرجها من القرآن الكريم والسنة النبوية، والبناء الاقتصادي الذي نقيمه على أساس تلك الأصول"[54]. يُلاحظ على التعريفين أنّهما يُعرفان الشيء بنفسه، وهو في صناعة الحدود الدّور. لهذا نلتفت إلى غيرهما من الإطلاقات، يقول د. رفيق يونس المصري: "الاقتصاد الإسلامي هو الاقتصاد الذي ينظر إلى الاقتصاد الوضعي بعين الفحص والمراجعة والتمحيص

---

[50] يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، القاهرة: مكتبة وهبة، ط 1، 1415هـ، 1995م، ص 81.

[51] اصطلاح الاشتراكية كما في الموسوعة الإسلامية العامة، ص 153، 154: "لم يستخدم قبل سنة (1800م) وأن (سان سيمون، 1825م) هو أول من استعمل عبارات ربط فيها المجتمع بالاقتصاد، فظهرت كلمة Socialism مشتقة من كلمة Society ".

[52] مناع خليل القطان، موقف الإسلام من الاشتراكية أو نظرية التملّك في الإسلام، الرياض: دار الثقافة الإسلامية. د. ت، ص 16.

[53] غازي عناية، الأصول العامة للاقتصاد الاسلامي، لبنان، بيروت: دار الجيل، ط 1، 1991م، ص 35.

[54] العربي، محمد عبد الله، الاقتصاد الاسلامي وتطبيقه على المجتمع المعاصر، الكويت: مكتبة المنار، 1969م، ص 26.

والتدقيق، في ضوء الإسلام أحكاماً وآداباً. والفرق بين الاقتصاد الاسلامي والاقتصاد الرأسمالي أن هذا الأخير يقوي الأقوياء ويضعف الضعفاء، ويثري الأثرياء ويفقر الفقراء، في حين أنّ الاقتصاد الإسلامي يحمي الضعفاء من الأقوياء، والفقراء من الأثرياء، ويقرّب بينهما"[55]. أظن أنّه يمكن أن نصل إلى تكوين فكرة عن الفلسفة العامة للإنفاق، عند تلمس جوانب التماسك والترابط الاجتماعي في الاقتصاد الإسلامي بحسب التعريف السابق.

ليس ما أقوله عن أهمية التعاون وموقعه من الاقتصاد الاسلامي من باب تضخيم هذه المسألة التي أنا بصدد بحثها، وإنّما هو الواقع الذي أكّده الفقهاء في البحوث المالية القديمة، وما يلفت إلى أهميته العلماء والمهتمون بالشؤون المالية المعاصرة، ويعطي د. يوسف القرضاوي فكرة عن الرسالة الإنسانية لهذا الاقتصاد قائلا: "وتتمثل إنسانية الاقتصاد الإسلامي في مجموعة من القيم التي هدى إليها الإسلام في قرآنه وسنّته، وحفل بها تراثه، وتميّزت بها حضارته، مثل قيم الحريّة والكرامة الإنسانية، والعدل وقيام الناس بالقسط، والإخاء والمحبّة بين الناس، والتعاون بينهم"[56] .

[55] د. المصري، رفيق يونس، غلاء الأسعار، سورية، دمشق: دار المكتبي، ط 1، 1429هـ، 2008م، ص 11.

[56] د. يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، ص 64.

- **خاتمة**

من خلال خط هذه الدراسة و مسارها التحليلي، يتبيّن أن التعاون ليس قيمة عارضة أو سلوكًا اجتماعيًا وظيفيًا، بل هو قيمة كُلِّيَّة تتغلغل في عمق الوعي الأخلاقي للإنسان، بالمساهمة في تهذّب الضمير الاجتماعي، وخلق توازن بين الفرد والمجتمع، وبين المصلحة والمنفعة العامة. اليوم تعلي البشرية المعاصرة من شأن قيم الفردانية والاستهلاك، وفي ظل هذه المناخات يغدو استحضار كليّات الفكر الإسلامي المعاصر الأخلاقية ضرورة لإعادة تقويم السلوك و العمل على إحياء الوعي الجماعي على قاعدة الكمالات الاجتماعية، لا ندّعي أنّها فقدت حضورها على الساحة المعاصرة، لكن تزعم أنّ المناخ العالمي الجديد يسحب بساط الالتزام والفعالية من تحت الوعي الثقافي والمعرفي – على الأقل - للناس، ومن هذا المنطلق عالجت الدراسة مثل هذه الإشكاليات في ميدان الاهتمام الأخلاقي، ليسفر البحث عن نتائج من أهمها:

- الكشف عن أن الكليّة الخلقية ليست مبادئ تابعية، بل أصولٌ كليّة نظرية ذات تداعيات ميدانية.

- إبراز أن فلسفة المنفعة في الإسلام ذات طبيعة قيميّة تهذيبية لا نفعية مادية.

- إعادة الاعتبار إلى مفهوم الضمير الاجتماعي باعتباره ثمرةً عملية للتعاون.

- تقديم نموذج تأملي للأخلاق الإسلامية يُسهم في تجديد الفكر الأخلاقي المعاصر. يتمظهر في أنسنة الاقتصاد الإسلامي، فالاقتصاد بهذا المعنى، لا يختزل دوره في المعاملات الرقمية، بل هو فضاء إنساني متوازن، تتكامل فيه الحقوق والواجبات.

- **المصادروالمراجع**

- ابن عبد السلام، عز الدين أبو محمد، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تح: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د. ط، 141هـ، 1991م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تح: محمد المعتصم بالله البغدادي، بيروت: دار الكتاب العربي.
- أبو زهرة، التكافل الاجتماعي في الإسلام، القاهرة: دار الفكر العربي، مطبعة المدني،1991م.
- أبو زهرة، محمد، تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط، 1385هـ، 1965م.
- البَابِيدي، أحمد بن مصطفى الدّمشقي (ت1318هـ)، مُعجمُ أسماءِ الأشياءِ المُسَمّى اللطائف في اللغة، دراسة وتحقيق: أحمد عبد التواب عوض، القاهرة: دار الفضيلة، د. ط، 1997م.
- البرقوقي، عبد الرحمن، الذّخائر والعبقريات، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1360هـ، 1941م.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تفسير البغوي المسمّى معالم التنزيل، لبنان، بيروت: دار ابن حزم، ط 1، 1463هـ، 2002م.
- البوطي، محمد سعيد رمضان، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، دمشق: مؤسسة الرسالة، 1993.
- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت387هـ)، مفاتيح العلوم، راجعه وعلّق حواشيه: محمد كمال الدين الأدهمي، مصر: ط 1، 1349هـ، 1930م.
- الريسوني، أحمد، الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1999م.
- الريسوني، أحمد، الكُلِّيات الأساسية للشّريعة الإسلامية، القاهرة: دار الكلمة، ط 1، 2013م.
- الريسوني، أحمد، نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم السياسية، مصر، القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط 1، 1431هـ، 2010م.
- عبد الله الشيخ المحفوظ ولد بيه، خطاب الأمن في الإسلام وثقافة التسامح والوئام، الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ط 1، 1419هـ، 1999م.
- العربي، محمد عبد الله، الاقتصاد الاسلامي وتطبيقه، الكويت: مكتبة المنار، 1969م.

- العطية، جمال الدين، نحو تفعيل مقاصد الشريعة، سوريا، دمشق: منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الفكر، د. ط، 2003م.
- غازي عناية، الأصول العامة للاقتصاد الاسلامي، لبنان، بيروت: دار الجيل، ط 1، 1991م.
- الفارابي، محمد بن محمد، كتاب الملّة، تح: محسن مهدي، لبنان، بيروت: دار المشرق، د. ط، د. ت.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد على النجار، القاهرة، وزارة الأوقاف، ط 3، 1416ه، 1996م.
- القرضاوي، يوسف، مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1993م.
- محمد ماهر حماده، الوثائق السياسية للعصر العباسي الأول، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 4، 1985م.
- المصري، رفيق يونس، المحصول في علوم الزكاة، سورية، دمشق: دار المكتبي، ط 1، 1426ه، 2006م.
- المصري، رفيق يونس، غلاء الأسعار، سورية، دمشق: دار المكتبي، ط 1، 1429ه، 2008م.
- يوسف القرضاوي، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، القاهرة: مكتبة وهبة، ط 1، 1995م.

مُوجهات بيداغوجية وديداكتيكية لتجاوز صعوبات تدريس السورة القرآنية

تأملات في تدريسية القرآن الكريم

د. خالد البورقادي

مفتش ممتاز للتعليم الثانوي التأهيلي لمادة التربية الإسلامية(المغرب)

خبير تربوي وباحث في مناهج تدريس العلوم الشرعية.

مقدمة

يشكل الوحيُ الرباني قرآنا وسنة أساس بناء المفاهيم الشرعية، فهو المبتدأ والخبر، وإليه يرجع العلماء، والمعلمون، والمربون في تأسيس المفاهيم الشرعية، واستنباط القيم الإسلامية، والتأصيل لها. فالقرآن الكريم كلام رب العالمين، ورسالته إلى الخلق، نزل به الروح الأمين على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، وقد كان العلماء ينطلقون من القرآن الكريم في مجالسهم العلمية، ومدارساتهم، ومذاكراتهم، ويوجه البناء المعرفي لدى الطلبة، وينمي المهارات المختلفة لديهم.

ومادة التربية الإسلامية تختص بتدريس المعرفة الشرعية المستندة إلى الوحي، من خلال بناء منهاجي بيداغوجي ينطلق من سور القرآن الكريم المقررة، والمؤطرة للمداخل الخمسة.

وقد تناولتُ بتفصيل **ديداكتيك النصوص الشرعية** في كتابي: فصول في ديداكتيك التربية الإسلامية، منذ مدة ليست باليسيرة، كما شاركتُ في ملتقيات وطنية قدمت فيها ورقات حول تدريسية القرآن الكريم بالسلكين الثانوي الإعدادي، والثانوي التأهيلي. وقد ارتأيتُ في هذه الدراسة **التركيز على المهارات المرتبطة بتدريس السورة القرآنية، ومناقشة بعض الصعوبات** التي تعترض السادة الأساتذة أثناء الاشتغال الديداكتيكي، مع تقديم بعض الموجهات الديداكتيكية والبيداغوجية لتجاوزها، انطلاقا من المواكبة الميدانية للأساتذة، وتأطيرهم في الاشتغال الديداكتيكي.

فما مكانة درس القرآن الكريم في منهاج المادة؟

وما أهم الصعوبات التي يوجهها الأساتذة في مقاربة السورة القرآنية؟

وما أهم الموجهات الديداكتيكية لتجاوزها؟

لذلك جاءت الورقة مكونة من مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

المبحث الأول: القرآن الكريم في منهاج مادة التربية الإسلامية

بخلاف المنهاج السابق؛ فإن المنهاج الحالي الصادر في يونيو 2016 أقدم على تغييرات مهمة في البناء البيداغوجي للمادة؛ حيث حدد أهم المرجعيات التي اعتمد عليها، وجعلها ثلاث مرجعيات؛ منها: المرجعية الشرعية. وقد قدمها المنهاج كالآتي:

"مرجعية شرعية؛ حيث تستند دروس التربية الإسلامية إلى:

-خصوصية **المعرفة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم**، والسنة النبوية المطهرة؛

-وحدة العقيدة: وفق مقاربة تتجاوز الخلافات الكلامية، وتربط المتعلم بالأبعاد العملية للاعتقاد السليم المؤطر لسلوكه وقيمه وتفاعله مع الغير؛

-وحدة المذهب الفقهي: المذهب المالكي وفق العقيدة الأشعرية، والتصوف السني على طريقة الجنيد؛

-مبدأ تأصيل المفاهيم الشرعية انطلاقا من المرجعيات الشرعية"[1].

فالمعرفة الشرعية؛ التي هي عمدة محتوى التربية الإسلامية تنطلق أساسا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فأول أساس للمعرفة الإسلامية هو القرآن الكريم. إذ منه ننطلق في بناء المفاهيم الشرعية، والتأصيل لها.

كما أن "المعرفة الشرعية تمتح من الوحي أساسا وفي مقدمة ذلك: النصوص القرآنية؛ التي تنتج وتؤسس لأنواع من المعرفة الشرعية: المعرفة العقدية-المعرفة السيرية التاريخية-المعرفة الفقهية-المعرفة التربوية السلوكية.

-النص القرآني مركزي في بناء المفاهيم وتقويمها؛

[1] -منهاج مادة التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الإعدادي والتأهيلي الخصوصي والعمومي، مديرية المناهج، يونيو2016. ص:5.

-الاشتغال الديداكتيكي يقتضي تجنب الإفراط في نقل تفاصيل كتب التفسير واختلاف المفسرين؛ مع مراعاة ضوابط النقل الديداكتيكي (الحذر من الانزياح الميطا معرفي، واستحضار البعد الوظيفي)"[2].

إن منهاج المادة أبدع في تخليص الدرس العقدي –مثلا- من الملاسنات الكلامية التي كانت تلقن للتلاميذ بمختلف الأسلاك؛ لا يدركون كنهها، ولا يفهمون مغزاها، فجعل درس العقيدة رديف الدرس القرآني حتى يستقي المتعلم المفاهيم العقدية مباشرة من نور القرآن الكريم.

وقد علل المنهاج البنية المختارة لتنظيم المحتوى المعرفي لمادة التربية الإسلامية(نظام المداخل الخمسة: التزكية، الاقتداء، الاستجابة، القسط، والحكمة) بالمرجعية القرآنية والسنية، ففي الأهداف العامة لمنهاج مادة التربية الإسلامية؛ جاء في الوثيقة:

"يتوخى هذا المنهاج تحقيق الأهداف الآتية:

-(...)

-ترسيخ عقيدة التوحيد وقيم الدين الإسلامي على أساس الإيمان النابع من التفكير والتدبر والإقناع، وتثبيتها في نفس المتعلم انطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية"[3].

إن العقيدة السليمة والصحيحة منطلقها القرآن الكريم، وأجمل مسلك لتقي الأصول العقدية ما كان مؤسسا على كلام الله تعالى الرباني المنور؛ الذي يجد سبيله يسيرة إلى القلوب، بعيدا عن كل تعقيد. فللقرآن الكريم تأثير على النفوس والعقول؛ فهو كلام الله تعالى المنزل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المعجز في آيه، الهادي إلى أقوم السبل[4].

فالمفهوم حين يبنى انطلاقا من **القرآن الكريم** يكون أكثر رسوخا في ذهن المتعلم، مع استحضار البعد التأصيلي، والامتداد السلوكي، والقيمي. لذلك نجد حضور القرآن الكريم متميزا في المنهاج الجديد(2016) للمادة، وهذا من أهم إيجابياته، أن يقرر مبدأ هيمنة السورة القرآنية على المداخل الخمس.

---

[2] -فصول في ديداكتيك التربية الإسلامية، خالد البورقادي. منشورات دار الأمان بالرباط. الطبعة الأولى: 1444هـ/2023م. ص:41.

[3] -منهاج التربية الإسلامية، ص: 10.

[4] -انظر التعريف المختار في: فصول في ديداكتيك التربية الإسلامية، ص: 39.

وقد جاء المضمون القرآني في السلكين الثانوي التأهيلي، والثانوي الإعدادي على الشكل الآتي:

المستوى الدراسي	السورة أو السور المقررة
أولى إعدادي	ق- لقمان
ثانية إعدادي	النجم- الحجرات
ثالثة إعدادي	الحشر- الحديد
جذع مشترك	الكهف
أولى باك	يوسف
ثانية باك	يس

إن تعزيز حضور القرآن الكريم في منهاج مادة التربية الإسلامية بالسلكين: الثانوي الإعدادي، والثاني التأهيلي يدل على مركزية النص القرآني في درس التربية الإسلامية؛ مقارنة بالمنهاج السابق؛ حيث كانت السورة القرآنية مجرد دعامة للدروس بالسلك الثانوي الإعدادي، بينما لا وجود للسورة القرآنية بالسلك الثانوي التأهيلي!.

وترسيخا **لمبدأ هيمنة السورة القرآنية** على باقي المداخل؛ فإن الإطار المرجعي للامتحان الجهوي الموحد بكل من السنة الثالثة إعدادي، والسنة الأولى بكالوريا؛ قد ربطا بناء وتحقق وتقويم الكفاية بالسورة القرآنية المقررة، واستثمار المتعلم لمعارفه المرتبطة بها. جاء في وثيقة الإطار المرجعي للسنة الثالثة إعدادي:

"كفاية نهاية السلك الثانوي الإعدادي:

يكون المتعلم في نهاية السنة الثالثة قادرا على حل وضعيات مشكلة مركبة ودالة، **بتوظيف مكتسباته المرتبطة بالقرآن الكريم(سورتي الحشر والحديد)**، وتمثلاته المتعلقة بأسماء الله الحسنى، تعظيما ومحبة، وبأهمية الدين في تزكية حياة الفرد والمجتمع، ومعارفه حول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشمائله وهديه محبة واقتداء، مطبقا ما تعرفه وتدرب عليه من عبادات (الطهارة، الصلاة، الصيام، الزكاة)، مدمجا ما اكتسبه من موارد حول حقوق الله والنفس والغير، والبيئة وما يرتبط بذلك من قيم وممارسات تعبر عن انخراطه وسلوكه الإيجابي"[5].

[5] -الإطار المرجعي للامتحان الموحد الجهوي لنيل شهادة السلك الإعدادي مادة التربية الإسلامية 2016. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. ص: 1.

إن توظيف المكتسبات لحل وضعيات مشكلة **مرتبط بالقرآن الكريم**، والسورة المقررة، دليل على هيمنة السورة القرآنية على باقي المداخل، وتوجيه واضعي الامتحانات الجهوية إلى أهمية هذا المبدأ في توجيه العملية التقويمية.

فالسورة القرآنية مؤطرة للمفاهيم المبثوثة عبر مفردات المنهاج. ويستدعي المتعلم ما يناسب من النصوص والآيات القرآنية للتعليل، والاستشهاد، وتعزيز الموقف، وتبيان الحكم الشرعي.

الأمر نفسه نجده في الإطار المرجعي للسنة الأولى بكالوريا، وكذا في مذكرات المراقبة المستمرة؛ حيث نجد من أهم المهارات المستهدفة بالتقويم:

في الجذع المشترك، والسنة الأولى بكالوريا:

-حفظ النصوص الشرعية والاستشهاد بها: 4ن؛

-تحليل النصوص الشرعية واستخراج أحكامها: 4ن؛

-استخراج القيم وتوظيفها: 3ن؛

-تحديد المواقف وبناؤها والتعبير عنها: 3ن[6]؛

ففي هذه المهارات نجد **حضور النص القرآني** بطريقة مباشرة في الحفظ، والاستشهاد، والاستدلال، وغير مباشرة من خلال استخراج الاحكام الشرعية والقيم من النصوص والآيات القرآنية، واستثمارها في بناء المواقف، وتعليل الآراء.

في السنة ثانية بكالوريا:

-تحليل النصوص واستخراج الأحكام التكليفية؛

-استنباط القيم وتوظيفها؛

-بناء المواقف والتعبير عنها، وتعليلها؛

-الاستشهاد بالنصوص الشرعية استدلالا وبيانا[7].

إن المتتبع للوثائق المنهاجية: منهاج المادة، والأطر المرجعية للتقويم، ومذكرات المراقبة المستمرة، والكتب المدرسية؛ يجد حضور النص القرآني بشكل واضح وجلي في مسعى لتحقيق هيمنة السورة

---

[6] - مذكرة التقويم التربوي بالسلك الثانوي التأهيلي لمادة التربية الإسلامية، رقم: 106/16. بتاريخ: 01 دجنبر 2016م. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. ص:2.

[7] - مذكرة التقويم التربوي بالسلك الثانوي التأهيلي لمادة التربية الإسلامية، رقم: 106/16. بتاريخ: 01 دجنبر 2016م. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. ص:3.

القرآنية على باقي المداخل، وتفعيل هذا المبدأ؛ لربط المعرفة الشرعية بالمصدر القرآني في البناء، والتقويم، والدعم.

لكن الممارسة الديداكتيكية، وممارسة النقل الديداكتيكي خلال درس التربية الإسلامية عموما، والدرس القرآني خصوصا يطرح بعض الصعوبات. فما أهم هذه الصعوبات؟ وكيف يتم تجاوزها؟

المبحث الثاني: صعوباتٌ في تَدْريسيةِ القُرآن الكريم

تجدر الإشارةُ إلى أن استقراء هذه الصعوبات استقراءً ناقصا؛ تم من خلال مختلف المحطات التأطيرية الميدانية للأساتذة، ومواكبتهم، وكذا من خلال مختلف الندوات واللقاءات التربوية التي كانت تعقد بالثانوي بسلكيه: الإعدادي، والتأهيلي.

ومن أهم الصعوبات التي تواجهها تدريسية القرآن الكريم:

1-مسألة تفعيل مبدأ "**هيمنة" السورة القرآنية** على المداخل الخمس:

يكاد يتفق جميعُ الباحثين، والفاعلين التربويين المعنيين بمادة التربية الإسلامية على **مركزية القرآن الكريم** في الهندسة المنهاجية الجديدة(يونيو2016)، فقد تم بناء المنهاج وفق المداخل الخمسة الرئيسية: التزكية، والاقتداء، والاستجابة، والقسط، والحكمة. حيث يُصَدّرُ مدخل التزكية بمُدارسة السورة القرآنية، وتعليمها، وجعلها **إطارا عاما** لمناقشة باقي القضايا والمفاهيم المراد بناؤها رفقة المتعلمين. وهذا المسلك مؤطر بالمرجعية الشرعية؛ حيث "تستند دروس التربية الإسلامية إلى:

خصوصية المعرفة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم، والسنة النبوية"[8].

لكن **مبدأ الهيمنة**؛ الذي شاع وعُرف بين الأساتذة والمفتشين والباحثين؛ لم تنُص عليه الوثائق المنهاجية بشكل صريح، وإنما فُهِم انطلاقا من قراءة الهندسة المنهاجية، ومحاولة إيجاد الخيط الناظم لهذه البنية. **فالكفاية السنوية** تُبنى انطلاقا من السورة القرآنية والمفاهيم المدرسة. والتقويم يتم وفق هذا البناء.

---

[8] -منهاج التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الإعدادي والتأهيلي، العمومي والخصوصي. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. يونيو 2016. ص:4.

وقد حاول بعض الباحثين تخصيص هذا المفهوم بالبحث في محاولة لإقراره، والتسليم بإطلاقيته، ومحاولة تقييد الممارسة الديداكتيكية به، وتقويمها بناء عليه، بل وتقويم الكتب المدرسية ومحاكمتها انطلاقا من هذا المبدأ[9].

فكيف نقرر إطلاقية هذا المبدأ، بينما الوثائق الرسمية تشير إليه بنسبية، بل لم تذكره بالاسم مطلقا؟!

إن مبدأ "الهيمنة" هو من خصائص القرآن الكريم لا شك في ذلك؛ في علاقته بالكتب السماوية الأخرى. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ سورة المائدة آية 48

جاء في تفسير ابن كثير(ت774هـ):

وقوله: (ومهيمنا عليه)، قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس أي: **مؤتمنا عليه**. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المهيمن: الأمين، قال: **القرآن أمين على كل كتاب قبله**.

وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي وابن زيد نحو ذلك .

وقال ابن جريج: القرآن **أمين على الكتب المتقدمة**، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل.

---

[9] -من الدراسات التي أنجزت بمركز تكوين مفتشي التعليم: نحو مقاربة ديداكتيكية لتنزيل مفهوم هيمنة السورة القرآنية، هشام الرافعي، وعمر بن سكا. شركة مطبعة مكتبة الآداب-مكناس. الطبعة الثانية: 2025م(الإيداع القانوني فيه: 2024). والقرآن الكريم في المنهاج الجديد لمادة التربية الإسلامية والسؤال الإبستمولوجي والمنهجي، محمد بوحرام، وسعيد اسلالت. من منشورات مركز مداد. الطبعة الأولى: 2022م. وهناك بحث أنجزه د. لطفي علواني بعنوان: النص القرآني في منهاج مادة التربية الإسلامية آفاق التصور وواقع التنزيل. من مشورات أكاديمية الدراسات الفكرية والتربوية-وجدة. الطبعة الأولى:1446هـ/2024م. هذه الدراسات تنطلق من مبدأ هيمنة السورة القرآنية وكأنه مسلمة مطلقة.

وعن الوالبي، عن ابن عباس : (**ومهيمنا**) أي: **شهيدا**. وكـــذا قال مجـــاهد وقتادة والســـدي.

وقال العوفي عن ابن عباس: (**ومهيمنا**) أي: **حاكما على ما قبله من الكتب**.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم "المهيمن " يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ; فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها. وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" [الحجر:9]"[10].

إن معاني كلمة: "مهيمنا عليه" تفيد الشهادة على الكتب الأخرى، والحاكمية عليها، والأمانة؛ لأنه خاتم الكتب المنزلة، فهو أشملها وأعظمها كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله.

فالهيمنة لا تعني **السيطرة** كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من خلال التداوليات اللغوية المعاصرة. لكنها: الحكمة، والحاكمية، والشهود، والأمانة.

وعليه؛ فهيمنة السورة القرآنية على باقي المداخل هي:

تأطير السورة القرآنية للقضايا الرئيسية، والمفاهيم الشرعية الواردة في دروس المداخل بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة.

لأن في بعض الأحيان يصعب أن يجد المدرس نصا مباشرا من السورة لتأطير مفاهيم الدرس الرئيسة؛ فلابد حينئذ من اختيار ما يناسب من النصوص القرآنية لتأطير المفاهيم الشرعية.

لذلك الوثائق المنهاجية القانونية المؤطرة للعمل الديداكتيكي لمش تشترط عدم الخروج عن السورة المقررة في بناء المفاهيم، لكنها أشارت إلى توظيف السورة في معالجة المفاهيم ما أمكن ذلك.

ففي الإطار المرجعي للسنة الثالثة إعدادي نقرأ مثلا:

"موجهات تقويم الكفاية:

أ-مدخل التزكية(القرآن والعقيدة):

-يقوم حفظ القرآن الكريم كتابة وتجويدا؛

-تقوم مهارة الفهم في السور القرآنية؛

---

[10] -تفسير القرآن العظيم، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي. تحقيق: سامي السلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية. الطبعة الثانية: 1420هـ/ 1999م. 3/127-128.

-تقوم مهارة الفهم في السور القرآنية؛

-تقوم مهارة الاستشهاد اعتمادا على السور المقررة؛

-تقوم قدرة المتعلم(ة) على **توظيف السور القرآنية المقررة**(الأحكام-الدلالات-المعاني...) **في معالجة المفاهيم والقضايا الواردة في المداخل الأخرى**.

-تقوم قدرة المتعلم على استثمار السور القرآنية في تعرف أسماء الله الحسنى"[11].

فهذه إشارات إلى استثمار السور القرآنية المقررة في السلك الإعدادي في بناء المفاهيم الشرعية، والقضايا الواردة في مختلف المداخل، ومدخل التزكية خاصة؛ حرصا على البعد النسقي لمنهاج المادة، وبالبناء الترابطي للمفاهيم. لكن لم تشترط الوثيقة اطراد مبدأ "**الهيمنة**"، ولم تدعُ إلى الالتزام الحرفي به.

وهو ما أكده الإطار المرجعي للسنة أولى بكالوريا؛ إذ نص في جدول المضامين على:

"-توظيف آيات من سورة يوسف في معالجة الموضوعات والقضايا الواردة في المداخل؛

-توظيف آيات من سورة يوسف لدهم الآراء والمواقف"[12].

فالأصل أن تؤطر السورة القرآنية قضايا ومفاهيم المداخل، وإن تعذر ذلك يختار المدرس ما يناسب من نصوص قرآنية ملائمة في إطار إعمال مبدأ وظيفية النص الشرعي، ومركزيته في بناء المفاهيم، دون اللجوء إلى لي أعناق بعض الآيات الواردة في السورة المقررة كي تؤطر بعض الدروس. هذا التعسف هو الذي أوقع بعض لجان تأليف الكتب المدرسية في اختيار نصوص غير مناسبة للدروس.

---

[11] - الإطار المرجعي للامتحان الموحد الجهوي لنيل شهادة السلك الإعدادي مادة التربية الإسلامية 2016. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. ص:2.

[12] -الإطار المرجعي لاختبار الامتحان الموحد الجهوي للسنة الأولى من سلك الباكالوريا. مادة التربية الإسلامية بجميع مسالك الباكالوريا، مذكرة رقم: 16/101 بتاريخ: 21نونبر2016م. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. ص: 4.

2-إشكالية **التحكم في الغلاف** الزمني لحصة القرآن الكريم:

من الصعوبات التي يشكو منها السادة الأساتذة أثناء الاشتغال الديداكتيكي مسألة ضيق الوقت لتنفيذ حصة القرآن الكريم، مما يوقع المدرس في حرج وضغط شديدين لإنهاء الحصة. بل وقفت على بعض الحالات أثناء الزيارات الصفية يقوم الأستاذ بإضافة حصة ثالثة للمقطع القرآني المقرر في مخالفة صريحة للمنهاج، وللغلاف الزمني المحدد، مما يؤثر سلبا على تنفيذ باقي مفردات المنهاج.

فمعلوم أن السورة القرآنية تقسم إلى أجزاء وأشطر يتم تقديمها ضمن مدخل التزكية، كل جزء في حصتين اثنتين. في السلك الثانوي الإعدادي هناك سورتان، تقدم كل واحدة في أسدوس، وفي السلك الثانوي التأهيلي تقدم سورة واحدة خلال السنة الدراسية.

فمثلا إذا أخذنا سورة الحديد بالسلك الثانوي الإعدادي؛ نجد توزيع الأشطر متباينا بين الكتب المدرسية المقررة:

الشطر / **الكتب المدرسية**	**الشطر الأول**	**الشطر الثاني**	**الشطر الثالث**
في رحاب التربية الإسلامية	1-9	10-16	17-28
الرائد في التربية الإسلامية	1-12	13-20	21-28
منار التربية الإسلامية	1-10	11-19	20-28

يُلاحظ تباين في توزيع الأشطر بين الكتب الثلاث؛ وهذا الاختلاف ناتج عن تباين اجتهادات لجان التأليف في تقسيم السورة القرآنية؛ وهذا قد يسبب اضطرابا وتشويشا على عملية تقسيم السورة، وتأثير ذلك على المعنى العام للمقطع، وعلاقته بالقضية المركزية للسورة والقضايا الفرعية، ومدى الانسجام بين المقاطع الثلاث للسورة أثناء مدارستها، وتعليمها للمتعلمين. كل هذه الإشكالات الجزئية تسهم في إرباك الحصة، مما قد يدفع المدرس نحو اختزال تدريسي لحصتي الشطر القرآني، ينجم عن ذلك ضعف في تحقيق الأهداف التعلمية للسورة القرآنية.

إن ممارسة **نقل ديداكتيكي** سليم أثناء التدريس يحتاج مهارات عالية من قبل المدرس في استثمار الوقت، وإدارة الصف بشكل فعال، وبلوغ الأهداف المرسومة، كل ذلك في علاقته الغلاف الزمني.

وتزداد صعوبة النقل الديداكتيكي عند تدريس القرآن الكريم؛ نظرا للزخم المعرفي، والمهاري، والوجداني الإيماني الذي تمتاز به السورة القرآنية. وكل انحراف ميطامعرفي، أو استطراد تفسيري يلتهم زمن الحصتين دون إتمام المقطع القرآني.

فقد أشارت دراسة أُنجزت في الموضوع أن نسبة أكثر 30% من الأساتذة يجدون صعوبة في تدريس القرآن الكريم بسبب طول الشطر القرآني[13]. بل ذهبت الدراسة إلى أن 55,8% تجد صعوبة بشكل نسبي في تدريس الشطر القرآني بسبب طوله.

والذين يتحدثون عن طول الشطر القرآني؛ يقصدون عدمَ كفاية الغلاف الزمني لتدبير حصة القرآن الكريم. وهذا يتطلب من المدرس **بذل مجهود ملحوظ** للتحكم في الغلاف الزمني والسعي لتحقيق الأهداف التعلمية، ومهارات عالية في ممارسة عملية النقل الديداكتيكي.

لذلك فإن هذه "الصعوبة" قد تتلاشى إذا استُثمرت الموجهات الديداكتيكية الآتية:

-التخطيط الجيد لدرس القرآن الكريم:

إن أول خطوة لنقل ديداكتيكي ناجح ومتميز: هي التخطيط الجيد للدرس، وتشمل عملية الإعداد والتخطيط:

أ-التخطيط الذهني:

والمقصود به التفكير المتواصل في موضوع الدرس ذهنيا، وتصور سيناريو بيداغوجي لتنفيذه، وتدبير مجريات الحصة، مع استحضار متغيرات القسم، والفروق الفردية بين المتعلمين.

إن الإعداد الذهني استعداد سيكولوجي للتعامل مع موضوع الدرس/السورة القرآنية؛ فيشحذ لها المدرس همته، وقدراته الذهنية، ويحشد مهاراته، ويستدعي خبراته، وتجاربه من أجل توظيفها بنجاح في تنفيذ الحصة.

ب-الإعداد المادي:

---

[13] -صعوبات تدريس سور القرآن الكريم في السلك الثانوي وسبل تجاوزها. عبد الحليم القبي، وإبراهيم والعيز. منشورات مركز أثيل. وجدة. الطبعة الأولى:2022م. ص: 85.

والمقصود به التخطيط المادي لدرس القرآن الكريم من خلال الجذاذة، فينتقل من مرحلة التفكيروالتصورإلى مرحلة التخطيط المادي عبرتسطيرالجذاذة بشروطها البيداغوجية.

فالجذاذة أداة ديداكتيكية، وخارطة عمل إجرائية موجهة للمدرس داخل الفصل، تسعفه، وتذكره بمختلف المراحل الديداكتيكية،كما تعصمه من كل انحراف، أو انزلاق خارج الموضوع. تذكره بالأهداف التعلمية التي يسعى لتحقيقها رفقة متعلميه، وتوجهه لاختيار أنسب الطرق التعليمية للإنجاز والتنفيذ. فالتخطيط الجيد مفتاح للتدبير والتنفيذ الجيدين؛ اللذين يمكنان من التحكم في الغلاف الزمني للحصة.

-التدبيرالجيد والقاصد للحصة القرآنية:

والمبدأ المؤطر هنا هو: أن السورة القرآنية مقصودة لذاتها، وتُدرس دراسة مستفيضة من مختلف الجوانب: القراءة، والحفظ، والفهم، واستخراج القواعد التجويدية، والمضامين الجزئية، والقضايا التي تعرضها السورة، والأحكام الشرعية، والقيم المتضمنة، وكذا بعض القواعد التوجيهية في السلوك والأخلاق، والبناء الاجتماعي.

كما لا يخفى على الجميع أن مسألة **الإعداد القبلي** الجيد للسورة في البيت، وكتابة المقطع المقرر للدراسة في الحصة؛ يساعد المدرس على استثمار الغلاف الزمني بشكل جيد.

إن مسألة الإعداد القبلي لا تتنافى مع التدريس الوضعياتي وفق المقاربة بالكفايات كما يظن البعض، بل إنها مرحلة مهمة في تذليل بعض الصعوبات المرتبطة بتدريس السورة، خاصة: كتابةُ المقطع كتابةً تراعي قواعد الرسم والضبط، مع الشكل التام، وفيه تدريب للمتعلمين على الكتابة بالرسم العثماني ومعرفة بعض قواعد الرسم، وهذا مما يرسخ قدسية القرآن العظيم في نفوس الناشئة.

ومن المقترحات المهمة المجربة والمعاينة في الفصول: تدريب المتعلمين على القراءة الجماعية للمقطع بعد القراءة النموذجية للأستاذ. فهي طريقة مفيدة جدا في الحفظ، وترويض اللسان على النطق الصحيح، وتيسير حفظ مقاطع السورة.

إن المدرس الماهر هو الذي يبحث عن أفضل السبل، وأنجع الطرق لتدريس السورة القرآنية ومقاطعها وفق الغلاف الزمني المخصص، ومع توالي حصص الاشتغال الديداكتيكي يكتسبُ الأستاذ ملكة ودربة تمكنه من التحكم الجيد في زمن التعلمات.

-تجنب الاستطراد والانزياح الميطامعرفي:

إن من أخطر الآفات "الديداكتيكية" التي تهدد زمن الحصة: الانزياح الميطا-معرفي، والخروج عن موضوع الدرس، وقد يقع هذا للمدرس أثناء "مقاربة درس القرآن الكريم؛ فيحوله إلى درس في تفسير القرآ نالكريم، ويحصل التضخم حين يصادف الدرس تخصصا معينا من لدن الأستاذ (علوم القرآن-التفسير-القراءات والتجويد...) وهو ما يسمى بالانزياح الميطا معرفي.

هذا الانزياح ينتج عنه:

- الاستطراد: حيث يستغرق المدرس الوقت في سوق الجزئيات والخلافيات؛ مما يؤثر على توازن عملية النقل الديداكتيكي؛ فينزاح نحو المعرفة العالمة؛ خاصة إذا صادف ذلك تخصصا أكاديميا في الموضوع؛
- ضعف التحكم في الغلاف الزمني للحصة، وتأخر في إنجاز مفردات المنهاج؛
- عند حدوث الانزياح الميطا - معرفي؛ فالمدرس لا يستحضر الخصائص النمائية والسيكولوجية للمتعلم بشكل جيد، فيحدث اضطرابا في المفاهيم المكتسبة لدى المتعلم[14].

إن تجنب الاستطراد، والحذر من الانزياح؛ يمكنان المدرس من ممارسة نقل ديداكتيكي متوازن وسليم خلال الدرس القرآني ويسعفانه إلى حد بعيد في تدبير زمن الحصة بشكل إيجابي وجيد.

3-صعوبة إكساب المتعلمين بعض المهارات المستهدفة من تدريس السورة القرآنية:

إن حضور **البُعد المهاري** في درس التربية الإسلامية يجعله يتسم بالحيوية، ويدفع نحو انخراط المتعلمين في العملية التعليمية التعلمية، ويشعرهم باكتساب الجديد في مسارهم التعليمي. كما يدفع شبهات من قبيل: نمطية درس التربية الإسلامية، وارتكازه على الحفظ فقط! وكأن الحفظ سبة! بل الحفظ من أهم المهارات في جميع التخصصات العلمية والمعرفية، ولكنهم يحاولون إلصاقه تهمة جاهزة بالتربية الإسلامية وأهلها.

واكتساب المهارات يسهم إسهاما كبيرا في بناء الكفاية السنوية التي يتوخاها منهاج المادة. لذلك حرصت الوثائق المنهاجية على ذكر وتحديد بعض المهارات المستهدفة بالبناء، وبالتقويم.

وتجب الإشارة إلى أن المهارة من أهم مكونات الكفاية، وبها تقاس، وتعرف. ويمكن تقديم تعريف إجرائي للمهارة كالآتي:

---

[14] -فصول في ديداكتيك التربية الإسلامية، خالد البورقادي. ص: 56-57.

المهارة (habilité) هي: إنجاز نشاط معين بدقة و إتقان، في وقت محدد، وتكون قابلة للقياس[15]. ومن أهم الصنافات التربوية التي اعتنت بسلم المهارات نجد هرم بلوم للمهارات المعرفية العقلية:

هرم بلوم و يشمل على 6 مستويات:

(1)**التذكر**: يذكر نص نظرية أو قانون كما هو والأفعال التي يمكن استخدامها في هذا المجال هي : يُعَرف ، يذكر ، يسمي ، يسرد ، يسترجع ، يكرر ، يعدد ، يطابق ،

(2)**الفهم**: يتضمن التذكر حيث يذكر شيء معين مع التغيير (يوجد تعديل من المتعلم) والأفعال التي يمكن استخدامها في هذا المجال هي : يُترجم ، يُحول ، يُعيد صياغة ، يُلخص ، يعبر عن ، يعطي مثال ، يشرح ، يراجع ، يوضح ، يناقش ، يقارن ، يخمن ، يتوقع ، يعلل ، يربط بـ... (أكثر من شيء)

(3)**التطبيق**: يطبق على شيء جديد ، يطبق لموقف مشابه في الدرس أو موقف مر عليه فبل ذلك أو لموقف جديد والأفعال التي يمكن استخدامها في هذا المجال هي : يطبق ، يستخدم ، يحسب ، يعد ، يحل تمرين ، يرسم تمرين ، يعالج ، يوظف ، يستخرج ، يقيس

(4)**التحليل**: هو أن يحلل الموقف لعناصره الأساسية والأفعال التي يمكن استخدامها في هذا المجال هي : يحلل ، يبرهن ، يميز ، يعزل ، يحدد العناصر المشتركة في ، يختبر ، يدقق ، يتأمل ، يستقرأ ، يكتشف

(5)**التركيب**: أي ينظم مجموعة معينة من المفاهيم والعلاقات والأفعال التي يمكن استخدامها في هذا المجال هي : يُؤلف، يبدع ، يبتكر، يصمم، يقترح، ينسق، ينظم، ينشئ ، يجمع بين

(6)**التقويم**: ويضم كافة المستويات السابقة لمعرفة مدى تعلمه والأفعال التي يمكن استخدامها في هذا المجال هي: ينقد، يقيم، يناقش بالحجج، يبين التناقض، يصدر حكم، يدافع عن، يتخذ قرار، يبرر...

وتُكتسب المهارة من خلال **شرطين أساسيين**:

أ-التقليد والمحاكاة: تقليد المتعلم للمعلم ومحاكاته.

---

[15] -تعريفٌ من وضع الباحث.

ب-التكرار والمداومة: تكرار العملية الموصلة لاكتساب المهارة حتى يتملكها المتعلم وفق الشروط والمعايير المطلوبة.

وفي منهاج مادة التربية الإسلامية هناك عدة مهارات مرتبطة بالدرس القرآني، وبالنصوص الشرعية، حث عليها المنهاج، ودعا إلى بنائها وإكسابها للمتعلمين.

غير أن عملية الإكساب هذه لا تخلو من صعوبات تعترض المدرس، منها ما هو مرتبط بالوقت، والغلاف الزمني، ومنها ما هو مرتبط بطرق التدريس، وأساليب البناء، فقد صرح 41,32% من الأساتذة أنهم يجدون صعوبات في الاشتغال على المهارات القرآنية(التركيب والتحليل، والاستنباط، والتوظيف) نتيجة عدم تملك المتعلمين لهذه المهارات في المستويات السابقة[16]. فما أهم المهارات المرتبطة بالقرآن الكريم؟ وكيف السبيل لإكسابها للمتعلمين من خلال تجاوز الصعوبات التي تعترض هذه العملية؟

إذا رجعنا إلى الوثائق المنهاجية؛ نجدها تنص على مجموعة من المهارات مرتبطة بدرس القرآن الكريم، منها:

- **فهم** النصوص الشرعية **وتحديد دلالاتها**؛
- **تحليل** النصوص الشرعية والفكرية **وتحديد مضامينها**؛
- **استنباط** القيم والقواعد والأحكام من النصوص الشرعية؛
- **استخراج** المضامين والقيم والقضايا الرئيسة المثارة في مختلف النصوص؛
- **الاستدلال** بالنصوص الشرعية في وضعيات تواصلية بيانية أو حجاجية؛ "[17]

ومن المهارات (وأحيانا يعبر عنها بالقدرات) التي نص الإطار المرجعي على تقويمها في السنة الأولى بكالوريا:

- يقوم **حفظ** القرآن الكريم **كتابة وتجويدا**؛
- تقوم مهارة **الفهم** في السورة القرآنية المقررة؛
- تقوم مهارة **الاستشهاد** اعتمادا على السورة المقررة؛

---

[16] -صعوبات تدريس سور القرآن الكريم، ص: 96.

[17] - منهاج التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الإعدادي والتأهيلي، العمومي والخصوصي. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. يونيو 2016. ص: 10.

- تقوم قدرة المتعلم على **توظيف السورة القرآنية المقررة** (الأحكام-الدلالات-المعاني...) في **معالجة المفاهيم** والقضايا الواردة في المداخل الأخرى"[18]. وهي المهارات نفسها المذكورة في الإطار المرجعي للتقويم والامتحانات للسنة الأولى بكالوريا[19].

وفي الإطار المرجعي للسنة الثانية بكالوريا نجد أهم المهارات المستهدفة بالتقويم، والمرتبطة بالنصوص الشرعية(القرآنية، والحديثية)كالآتي:

- ✓ **فهم** النصوص الشرعية وتحديد دلالاتها؛
- ✓ **تحليل** النصوص الشرعية والفكرية وتحديد مضامينها؛
- ✓ **استنباط** القيم والقواعد والأحكام من النصوص الشرعية؛
- ✓ **استخراج** المضامين والقيم والقضايا الرئيسة الواردة في مختلف النصوص؛
- ✓ **الاستدلال** بالنصوص الشرعية في وضعيات تواصلية بيانية أو حجاجية"[20].

وثيقة المنهاج تحدثت عن اكتساب المهارات المستهدفة، ووثائق الأطر المرجعية نصت على تقويمها ضمن حزمة ما يقوم، وعليه فهناك تناغم في الوثائق لتوجيه الممارسة الديداكتيكية تدبيرا وتقويما.

ولتجاوز مختلف الصعوبات المرتبطة بهذه المهارات؛ **نقترح على السادة المدرسين الخطوات الآتية:**

- استحضار هذه المهارات في عملية التخطيط التي أشرنا إليها آنفا: ذهنيا، وماديا. وبناء عليه لابد أن تتضمن جذاذةُ درس القرآن الكريم بعض الأهداف المهارية التي يسعى المدرس لتحقيقها، والعمل على ذلك خلال الاشتغال الديداكتيكي(التدبير). وإظهار الاشتغال على المهارات في الجذاذة خلال مراحل الدرس؛
- تنفيذ ما سطر في الجذاذة، وفق طرق تدريس ملائمة تراعي بناء المفهوم، والمهارة، والقيمة: الطريقة الاستقرائية، والطريقة الاستنباطية.
- مراعاة شروط اكتساب المهارة: **المحاكاة، والتكرار**: خاصة القواعد التجويدية، قواعد الرسم،

---

[18] - الإطار المرجعي للامتحان الموحد الجهوي لنيل شهادة السلك الإعدادي مادة التربية الإسلامية 2016. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. ص:2.

[19] - الإطار المرجعي لاختبار الامتحان الموحد الجهوي للسنة الأولى من سلك الباكالوريا. مادة التربية الإسلامية بجميع مسالك الباكالوريا، مذكرة رقم: 16/101 بتاريخ: 21نونبر2016م. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني. ص: 2.

[20] -الإطار المرجعي لاختبار الامتحان الموحد الجهوي للباكالوريا الخاص بالمترشحين الأحرار، مادة التربية الإسلامية بجميع مسالك الباكالوريا. مذكرة رقم: 102:16، بتاريخ: 21 نونبر 2016. ص:3.

- القراءة الخالية من اللحن الجلي، لذلك لابد أن يقدم المدرس والمدرسة نموذجا لقراءة المقطع القرآني يراعي قواعد الضبط والأداء، ولا يعذر أستاذ بعدم معرفة ذلك!، فإن ذلك من مقومات هويته المهنية بمادة التربية الإسلامية. ومن لا يعلم يجب عليه أن يتعلم، فإنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم كما ورد في الحديث. ومن غير المقبول أن تجد أستاذا أمضى سنين عدادا في تدريس مادة التربية الإسلامية، والقرآن الكريم وهو لا يحسن القراءة الجيدة للسورة القرآنية، أو يلحن لحنا فاحشا أثناء القراءة. كما يشترط في المدرس أيضا معرفة الحد الضروري من قواعد التجويد: أحكام النون الساكنة والتنوين-المدود-أحكام الراءات واللامات...، بل أذهب إلى **وجوب حفظ الأستاذ للسور المقررة في المنهاج حفظا متقنا خاليا من كل لحن**.
- تدريب المتعلمين داخل القسم على تقنيات الحفظ: بناء خريطة المفاهيم الخاصة بالمقطع القرآني- فهم معاني المقطع بعد تقسيمه مضمونيا- تقسيم الحفظ على مراحل؛
- قراءة جماعية للمقطع تدريبا للتلاميذ، مع تصحيح الأخطاء القرائية؛
- تدريب المتعلمين على الفهم من خلال أسئلة دقيقة وواضحة، أو وضعيات شفهية، أو مناقشات حوارية أفقية بين المتعلمين.
- تمهير المتعلمين على مهارة استخراج المضمون: بعد قراءة المقطع الجزئي قراءات فردية؛ تشرح الكلمات الصعبة والغريبة، ويتم تحديد المتحدث، والمخاطب، ومعرفة المضمون، والأسلوب، ومن ثم يصاغ المضمون، ويستحسن أن يبدأ بمصدر مع الاختصار(يصاغ في جملة مفيدة واضحة تدل على المقصود).
- تمهير المتعلمين على **استنباط الأحكام الشرعية** الواردة في الجزء/المقطع القرآني: من خلال إعادة قراءة الجزء، وتحديد الفعل المطلوب: هل هو الفعل، أم الترك، أم الاستحباب، أم الكراهة، أم المباح؟. مع التذكير ببعض الأمثلة مما سبقت دراسته، واختبار مدى قدرة التلاميذ على التأمل في الآيات القرآنية **واستخراج** ما تضمنته من أحكام شرعية دون استطراد أو انزياح نحو اللغة الأصولية المتخصصة.
- تدريب التلاميذ على **استخراج القيم** الواردة في المقطع القرآني: أولى المنهاج عناية واضحة للقيم، وحدد القيمة المركزية، والقيم الناظمة، كي تكون بوصلة موجهة للمدرس في تحديد منظومة القيم الفرعية في دروس التربية الإسلامية. والقيمة صفة حميدة إيجابية يجب أن يتحلى بها المؤمن.

وتصاغ في كلمة: التسامح-الصبر-الحلم-العفو-...، أو كلمتين: البر بالوالدين-الوفاء بالأمانة-الإحسان إلى الجار...، إذا كانت القيمة أكثر دقة وتحديدا. وللقيم امتدادات وآثار سلوكية نافعة بانية على الفرد والمجتمع، والمؤسسات[21].

- تمهير المتعليمن على **استخراج العبر** والدروس من المقطع القرآني: وهي عملية تدريبية لا تنفصل عن المهارات السابقة؛ فاستخراج العبرة مرتبط بالقيمة مع نتيجة تمثلها، والتمسك بها. حتى يشعر التلميذ بوجود خيط ناظم مترابط بين مختلف المهارات، وتظهر النسقية في درس التربية الإسلامية. وهذه من أهم الكفايات التي ينبغي أن تميز أستاذ التربية الإسلامية، وهي ملكة تتكون، وتنمو مع سنوات التدريس والإبداع، ومراكمة الخبرة والتجربة التدريسية.
- اختيار وضعيات تقويمية بسيطة خلال التقويم التكويني المرحلي، والتقويم الإجمالي لتدريب المتعلمين على مهارات: **التركيب، والتحليل، والاستنباط، والاستدلال، والاستشهاد**، في نسق متداخل، ومتكامل يعبر عن تملك المتعلم للكفاية في مستوى من مستوياتها العليا.
- تكليف التلاميذ **بإنجاز أنشطة منزلية** تجيب عن بعض الوضعيات والأسئلة المقترحة في الكتاب المدرسي، واستثمار المدرس للكتب المدرسية الأخرى في هذا الجانب لتعزيز مكتسبات التلاميذ في هذه المهارات. وللتحفيز والتشجيع تحتسب نقط هذه الإنجازات ضمن نقطة الأنشطة المندمجة؛ التي حددتها مذكرة المراقبة المستمرة.
- اختيار **نصوص قرآنية داعمة** من السورة المقررة، وتكليف المتعلمين **بتحليلها، واستخراج ما فيها من أحكام، وقيم، وعبر، وامتدادت سلوكية** تتقاطع مع دروس مدخلي القسط والحكمة.
- استثمار السبورة بشكل جيد لبناء هذه المهارات، في تناغم مع خطوات الدرس، وتوظيف الخرائط الذهنية والمفاهيمية لترسيخها لدى التلاميذ.

إن الاشتغال على المهارات المرتبطة بالسورة القرآنية يقتضي كما سبق تخطيطا جيدا، وتدبيرا مرنا متقنا، ومتابعة جيدة، وتقويما دقيقا، ودعما علميا ممتدا داخل الفصل وخارجه. والمدرس بخبرته، ووعيه بالمتغيرات التي تجري داخل الفصل، وكفاياته التواصلية مع التلاميذ يستطيع الإحاطة بكل هذه المراحل الديداكتيكية لبلوغ الأهداف التعلمية المسطرة، وتحقيق الكفاية السنوية للمستوى المدرس.

---

[21] -يُراجع فصل: ديداكتيك القيم في درس التربية الإسلامية، في كتابي: فصول في ديداكتيك التربية الإسلامية، ص: 135-163.

خاتمة:

إن النهوض بتدريسية القرآن الكريم، وتجاوز مختلف الصعوبات التي تعترض تدريس السورة القرآنية بشكل عام، وتوظيف النصوص القرآنية في سياقات بنائية مختلفة، ودعامات لبناء المفاهيم الشرعية لهو صلب الممارسة الديداكتيكية لمدرس مادة التربية الإسلامية؛ الذي يسعى جاهدا لإكساب المتعلمين مختلف المهارات المرتبطة بالسورة القرآنية؛ كالحفظ، والفهم، والتحليل، والتركيب، والاستدلال، واستخراج الاحكام الشرعية، والقيم، والدروس والعبر.

كل ذلك يتطلب منه موجهات يدياكتيكية أشرنا إلى بعضها ترشده في مختلف المراحل الديداكتيكية، وترشد الممارسة الصفية بما يمكنه من استثمار الغلاف الزمني للحصة، وإنجاز مفردات المنهاج حسب الجدولة الزمنية القانونية. ونذكر في خاتمة هذه الورقة بجملة أمور أهما:

- إيلاء عملية التخطيط العناية اللازمة، ذهنيا وماديا؛
- الاشتغال على السورة القرآنية كوحدة، مع تحديد القضية المركزية للسورة، والقضايا الفرعية، ومحاولة الربط بدروس المداخل إن أمكن دون تعسف ولا لي للنصوص القرآنية؛
- توظيف مختلف طرائق التدريس المناسبة لتدريس السورة القرآنية، واستثمار الأدوات والوسائل التكنولوجية متى سنحت الفرصة دونما إفراط؛
- التركيز على **أهمية الإعداد المنزلي**، وحث المتعلمين على حفظ السورة المقررة في البيت، وكتابتها، والتدرب على ذلك، واحتساب ذلك في التقويم؛ مع العناية بالدفاتر، وتنبيههم إلى قدسية القرآن الكريم؛
- التوظيف الجيد للسبورة في تدريس السورة القرآنية، واستثمار مختلف الدعامات المساعدة في مختلف الكتب المدرسية المتعددة للمستوى الواحد، وعدم الاكتفاء بالكتاب المقرر في المنطقة التربوية؛
- إن هذه المهارات المراد إكسابها للتلاميذ ليست محصورة، ولا مقصورة على حصص القرآن الكريم فقط أثناء تعليم السورة القرآنية؛ بل هي ممتدة خلال الدروس الأخرى وحاضرة حضور النص القرآني على طول مفردات المنهاج، فينبغي تعاهدها باستمرار، وتدريب المتعلمين عليها، واختبارهم فيها، وفي دروس المداخل تقاس هذه المهارات، ويختبر المدرس مدى امتلاك متعلميه لها.

إن النص القرآني ليس سندا عابرا، يوظف لبناء المفهوم وكفى، بل أكثر من ذلك: هو أنوار تسري من المدرس المربي، القارئ المتقن؛ إلى نفوس المتعلمين وقلوبهم، ومتى ما حرص السادة الأساتذة والأستاذات على تعليم وتحفيظ السورة المقررة بكل تفان وإخلاص فليعلموا أن التلميذ المغربي سيتخرج من المدرسة ومعه نصيب معتبر من آي كتاب الله تعالى، يرافقه طيلة حياته، ويمتد إلى الدار الآخرة، فيكتب الأجر والثواب أيضا لمن درس، وحفظ، وربى، وعلم.

والله الهادي للصواب سبحانه

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1- **الإطار المرجعي للامتحان الموحد الجهوي لنيل شهادة السلك الإعدادي مادة التربية الإسلامية 2016**. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني.

2- **الإطار المرجعي لاختبار الامتحان الموحد الجهوي للسنة الأولى من سلك الباكالوريا. مادة التربية الإسلامية بجميع مسالك الباكالوريا، مذكرة رقم: 16/101 بتاريخ: 21نونبر2016م**. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني.

3- **الإطار المرجعي لاختبار الامتحان الموحد الجهوي للباكالوريا الخاص بالمترشحين الأحرار، مادة التربية الإسلامية بجميع مسالك الباكالوريا. مذكرة رقم: 102:16، بتاريخ: 21 نونبر 2016**.

4- **تفسير القرآن العظيم**، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي. تحقيق: سامي السلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية. الطبعة الثانية: 1420هـ/ 1999م.

5- **فصول في ديداكتيك التربية الإسلامية**، خالد البورقادي. منشورات دار الأمان بالرباط. الطبعة الأولى: 1444هـ/2023م

6- **القرآن الكريم في المنهاج الجديد لمادة التربية الإسلامية والسؤال الإبستمولوجي والمنهجي**، محمد بوحرام، وسعيد اسلالت. من منشورات مركز مداد. الطبعة الأولى: 2022م.

7- **صعوبات تدريس سور القرآن الكريم في السلك الثانوي وسبل تجاوزها**. عبد الحليم القبي، وإبراهيم والعيز. منشورات مركز أثيل. وجدة. الطبعة الأولى: 2022م.

8- **مذكرة التقويم التربوي بالسلك الثانوي التأهيلي لمادة التربية الإسلامية، رقم: 106/16**. بتاريخ: 01 دجنبر 2016م. وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني.

9- **منهاج مادة التربية الإسلامية بسلكي التعليم الثانوي الإعدادي والتأهيلي الخصوصي والعمومي**، مديرية المناهج، يونيو2016.

10- **نحو مقاربة ديداكتيكية لتنزيل مفهوم هيمنة السورة القرآنية**، هشام الرافعي، وعمر بن سكا. شركة مطبعة مكتبة الآداب-مكناس. الطبعة الثانية: 2025م(الإيداع القانوني فيه: 2024).

11- **النص القرآني في منهاج مادة التربية الإسلامية آفاق التصوروو اقع التنزيل**. من مشورات أكاديمية الدراسات الفكرية والتربوية-وجدة. الطبعة الأولى:1446هـ/2024م.

دور الفنون التشكيلية في تنمية التعبير عن الأحداث:

رسومات الأطفال الخجولين

الباحثة : فداء المسعودي

المعهد العالي لإطارات الطفولة قرطاج درمش ، جامعة قرطاج - تونس

مقدمة

يلعب الفن التشكيلي دورا هاما في تنمية التعبير عند الأطفال عن أحداث . و من ابرز مجالات الفن التشكيلي مجال الرسم الذي يمثل وسيط فني هام للأطفال الخجولين ،كلغة تساهم في دفع الطفل الخجول للإفصاح و التعبير للمتلقي و تسهيل ذلك , كما أن الرسم له دور في تسهيل تواصل الطفل الخجول مع الآخر و دفعه للاندماج داخل المجموعة ، و ما يوثقه من أحداث ذاتية كانت أم عامة

و التعبير عنها بواسطة الرسم .

الى أي حد يمثل الرسم التشكيلي وسيطا تعبيريا للأطفال الخجولين و توثيق الأحداث الملاحظة العابرة ؟

1- فرضيات البحث

1- يمثل الرسم المجال الأنسب في الفن التشكيلي كوسيط فني لهذه الفئة .

2- يساعد الرسم الأطفال الخجولين في دفعهم للتواصل مع الآخرين و تنمية تعبيرهم داخل المجموعة .

2- أهداف البحث

- تنمية تعبير و تواصل الطفل الخجول مع أقرانه و مع الآخرين
- مدى فاعلية الرسم في تسهيل الحوار و التعبير و الخفض من الخجل الزائد .
- مساهمة الرسم في تبادل أراء وأفكار الأطفال عند التعبير عن الرسومات .

- تشجيع الأطفال الخجولين للتعبير عن رسوماتهم و شرح المعاني المرسومة و ذلك لتنمية تعبيرهم
- منح الفرصة لهذه الفئة للتعبير عن رسوماتهم مع المجموعة و شعورهم بالثقة في النفس
- التأكد من ان الرسم الوسيط الأنسب للطفل الخجول و راحته عند التعبير به .

3- المفاهيم الأساسية

3-1 الفنون التشكيلية

الفن التشكيلي هو مجال فني يعتمد على تشكيل أشكال و رسومات مستوحى من المحيط الواقعي برؤية الفنان ، و بطريقة خاصة به و بصياغته المختلفة . تحمل تلك الأشكال الجامدة عدة مواضيع و معاني حسب تفسير الفرد الذي أنجزها أو رسمها . فالفن التشكيلي هو صور تنقل أحداث عامة و ذاتية تشكل في رسومات مسطحة أو مجسمات . نختصر أن الفن التشكيلي هو التصوير و الرسم ، الحفر ، النحت ، الخزف ، ...لكن هذه الأنواع يقع تخطيطها بالرسم ثم إنتاجها في صورة مرئية و رموز . كما يحمل الفن التشكيلي أساليب فنية معينة (الأسلوب التجريدي ، الأسلوب التشخيصي ، الأسلوب المفهومي) .

3-2 التعبير

يقول ريد هربرت :" **ليست وظيفة الفنان إقامة المباني و صنع الأثاث و أدوات المطبخ و أشياء أخرى اقل أو أكثر نفعا ، ذلك لان الفن طريقة للتعبير ، وهو لغة قد تستفيد قد تستفيد بهذه الأشياء النفعية السابقة الذكر ، و نستعملها بالقدر الذي تستفيد به اللغة نفسها بالحبر و الورق ... لتؤدي إلينا معنى ، و لا تعمد بالمعنى مجرد رسالة ، لان الفن يحاول في كل أعماله الأساسية أن ينقل إلينا شيئا ما عن العالم أو عن الإنسان أو عن الفنان نفسه** .[1]

فالتعبير هو الشيء الذي يلتجأ له الفرد للإفصاح عن شيء معين أو التعبير عن ذاته ، فهو لغة يوصل بها أفكاره و أحداث للآخر . التعبير هو وسيلة اتصال كما انه يتضمن نوع من أنواع التنمية في التواصل و الاندماج , كذلك الخلق و الابتكار مما يجعل التنفيس عن الانفعالات و تسهيل الاتصال بالآخرين .

التعبير عن الأحداث و الوقائع و الأشياء من طرف الأطفال بصور مرسومة هذا قد يساعد الطفل على تأكيد ذاته و يصله بالآخرين و يخلصه هذا التعبير من تراكم الانفعالات .

---

[1] وريد هربرت ، الفن و المجتمع ، ترجمة فارس ظاهر ، دار القلم بيروت ، لبنان ، 2020 ، ص 20

3-3 الرسم

الرسم هو فن من الفنون التشكيلية ، فهو خطوط و ألوان و تصوير ، توزيع ألوان سائلة و أصباغ على سطح مستوي كقماش التصوير أو الورق ، وهو فن مرئي بأشكال مرئية . يصعب التمييز بين الرسم و التصوير احدهم بالألوان السائلة و الأخرى بالألوان الجافة و التخطيط و في كل الحالات هي رسومات على محمل ، و رسومات الأطفال تعني الإنتاج التشكيلي . بواسطة الرسم و التصوير يعبر الفرد عن القيم الذهنية و العاطفية و الرمزية ، بصفة شعورية أو غير شعورية يستخدم الفنان الرسم كوسيط للتعبير عن أفكاره أو عن شعوره و عن الأحداث التي تحيط به . الرسم كذلك هو اثر للمادة بأداة التي يستعملها الفرد لإبراز أشكال على المحمل تعبر عن الذات و عن المحيط ..

4-3 الأطفال الخجولين

نقصد بالأطفال الخجولين هنا هم الأطفال الطين يتجنبون التعبير عن الأشياء أمام الآخرين و التواصل معهم من شدة الخجل الزائد ، الطفل الخجول هو الذي يحبذ الجلوس وحيدا أغلبية الأحيان .

يصبح الطفل الخجول أكثر انطوائي و الغير اجتماعي كما يجد صعوبة في التواصل مع الآخرين و التعبير عن ما يحيط به لأقرانه ، كما يفضل عدم المشاركة مع بقية الأطفال .

الطفل الخجول له علامات و أعراض اضطرابية تدل على انه في عزلة عما يدور حوله من أحداث فكثيرا ما يلجأ الى أسلوب التخيل باعتباره بديلا للانسحابات الواقعية .

5-3 الخجل

خجل ، خجلان ، خجول؛ الخجل عندما يكون زائد فيصبح صعوبة للطفل ، يرى (**كرويزر1971**)

"ان مفهوم الخجل بأنه يكون مصحوبا بالشعور، بالقلق ، وعدم الارتياح في مو اقف اجتماعية معينة مثل الظهور امام الاخر مع رغبة الخجول في الصمت و الانسحاب من المشاركة الاجتماعية ".[2]

الخجل ظاهرة تظهر في فترات معينة من العمر و تحت ظروف خاصة في حياة الانسان و خصوصا في فترتي الطفولة و المراهقة . فيمكن للكبار إبراز وسيط لتخليصهم من الخجل الزائد .

---

[2] مروان سليمان سالم الددا ، فعالية برنامج مقترح لزيادة الكفاءة الاجتماعية للطلاب الخجولين في مرحلة التعليم الأساسي،الجامعة الإسلامية ، غزة ، فلسطين ، 2008

ص 60 .

الخجل صعوبة قد تهدد الطفل و مستقبله ، إذ تعوقه عن مواجهة الحياة مما يجعله عزوفا عن الناس و لم يجرا على مخالطتهم.

أحيانا يصبح الخجل رمز الخوف كما يقول **علي السيد خليفة :" الخجل أشبه بحجاب كثيف يخفي وراءه الخوف و عدم الثقة بالنفس ، لذلك نجد المصاب به متعثر الخطى ، مستنزف الطاقة ، مشتت الذهن ، تقلقه نظرات الناس."**[3]

هناك من يفسر مفهوم الخجل لدى الأطفال بأنه ظالم مستبد لهم إن استبد طفل جعله يعصب عن حقيقة قدراته التي من اللازم البوح بها ، و يجعله من أكثر الأطفال تحقيرا لذاته ، إذ قيل عنه :" **إن الخجل يجعل الطفل أشبه بدودة حقيرة عمياء ، لا ترى و تأبى أن ترى ، و تغرس نفسها في التراب خشية أن ترى أو يراها احد ."** [4]

---

[3] علي السيد خليفة ، الخجل و التشاؤم علاجهما ، المركز العربي الحديث ، مصر الجديدة ، 2001 ، ص 30

[4] رنا جمال ، السلوكيات السلبية في حياتنا كيف نتخلص منها ، دار من المحيط الى الخليج للنشر، الأردن، 2017 ، ص 51

الإطار التطبيقي

منهج البحث الميداني

انطلقنا في البحث الميداني اعتمادا على منهج **وصفي تحليلي** في موضوعنا " **دور الفنون التشكيلية في تنمية التعبيرعن الأحداث ' رسومات الأطفال الخجولين "** .

يقوم المنهج الوصفي على دراسة الظواهر ميدانيا ، البحث عنها في المكان و التعرف عليها و على الأسباب، ثم الوصف و التحليل للتطبيقات حتى نصل إلى النتائج .

يعتمد منهج بحثنا على الأدوات التالية :

-الملاحظة

-الاختبارات

ثم سنحاول الوصول إلى أهداف البحث و النتائج . . . .

1 - العينة (تقديم العينات)

عينة هذا البحث : مجموعة تتكون من 12 طفلا .

جنسهم : إناث و ذكور

سنهم : من 6 سنوات إلى 13 سنة

المستوى الدراسي : ابتدائي و إعدادي

الأصل الجغرافي : حضري

و هم مختلطين بين أطفال خجولين و أطفال عاديين.

2 - الملاحظة (المشتقة بالسردية)

في الحصة الأولى من ورشة الرسم و اقتراح الموضوع و الأدوات المطلوبة للانجاز ، عند الانطلاق في الرسم لاحظت أطفال يتبادلون الأدوات و البعض منزوين.

لاحظت " طفلة " في الرسم ماسكة القلم و ترسم على الورقة وهي تخفي بيدها ما ترسمه ، ظننت أن هذا شيء عادي لكنها تنقطع أحيانا ، كما أنها لا تهتم برسوم الأطفال الآخرين. أما بقية الأطفال فهم على عكس ذلك يطلعون عن رسومات بعضهم البعض ، فعندما اقتربت منها و حاولت مساعدتها في العمل لاحظت ارتباك بيدها ، فقمت بتفسير الموضوع أكثر للتسهيل لها. طلبت مني الطفلة أن تجلس و ترسم بعيدا عن الأطفال الآخرين و عدم اطلاعهم عن رسمها مع استثنائي ، ففسحت لها المجال بغرض شعورها بالراحة في فضاء النادي . فلا يقتصر ذلك عنها فقط ، بل

لاحظت ثلاثة أطفال آخرين عليهم نفس الأعراض و المؤشرات ؛ كاحمرار الوجه الذي لاحظته عند الطفل عندما سألته لماذا لم يبدأ في العمل أو " هل لديك شيئا لم تفهمه " ، نظر إلى الأسفل و عندما ابتسمت له و أعدت سؤالي ، فأجابني بصوت منخفض :" لعلني لن ارسم جيدا و اخجل أن يسخرون مني. هذه التوقعات توحي إلى الخجل الزائد الذي يمكن أن يهدد الطفل في بناء شخصيته و فكره. هذه العينات لديهم تشابه في سلوكهم داخل الفضاء وعند مرور احد الأطفال بجانبهم ينقطعون عن الرسم ، و يمضي الوقت و لم تكتمل رسوماتهم.

لاحظت البعض في الفضاء يرسمون الأشكال و الأشخاص صغيرة الحجم ، كيفية أدائهم في الرسم غير أحرار في التخطيط و تلوين المساحة.

تلك الأطفال نفسهم لاحظتهم أثناء الرسم ، يرسمون بحذف بعض العناصر من الأشكال ك :

حذف الأنف من شكل الإنسان ، حذف الفم.. كذلك في رسم الإنسان مثلا يرسمون (الفم صغير ، رسم اذرع ، قصيرة ، رسم أرجل قصيرة ، حذف الأيدي ، حذف الأصابع ، رسم الشكل المائل ، رسم الأشكال صغيرة جدا ، شفافية الرسم ، . . .). إذ بعض الدراسات الأخرى أيضا أكدت على الطرق التي تحيل على الخجل الزائد لدى الأطفال. بينما بقية الأطفال العاديين لاحظت تفاعلهم في حصة النشاط و يرسمون بحماس ، يطلعون عن رسومات بعضهم البعض و طريقة أدائهم الرسم مختلفة عن طريقة الأطفال الخجولين.

آخر الحصة تأتي مرحلة عرض الأعمال الفنية و مناقشتها ، و هذه المرحلة اقترحها بغرض تدريب الأطفال على القراءة الفنية و تنمية قدراتهم التعبيرية. لكن لاحظت أن الأطفال الخجولين مترددين عن عرض أعمالهم و العاديين قاموا بعرض أعمالهم بكل سرور و عبروا عن رسوماتهم بكل ثقة في النفس.

عندما سألت الطفل (أ) أجابني بأنه لا يستطيع أن يعرض رسمته و يتحدث عنها ، كما هناك من عرضوا أعمالهم و عند التعبير عن رسوماتهم فضلوا البقاء في أماكنهم و يرفضون الخروج لتقديم رسوماتهم أمام الجميع. فعند ملاحظتي لبعض أعراض الخجل كالارتباك و احمرار الوجه تركتهم في أماكنهم كما أرادوا، وهناك من يرسمون جيدا لكن يحملون صعوبة الخجل عند التعبير عن رسوماته.

3 - الاختبارالقبلي

الرسم و التصوير وهو يعتمد على أدوات تتضمن موضوع الحصة،أو التعليمة و أدوات الإنجاز ، و كيفية العمل فردي أم جماعي .

+ التعليمة : تخيل حدث أو شخص ما تريد رسمه .

+ المطلوب : الرسم و التلوين بمواد اختيارية مائية أو جافة .

+ أدوات الإنجاز : محمل (ورقة رسم) ، ألوان مائية ، أقلام ، ألوان جافة . . . .

+كيفية العمل : عمل فردي

قمت بتقديم التعليمة و تفسيرها لان السن مختلف و طلبت منهم إن هناك أحدا لم يفهم سأعيد تفسير التعليمة ألا وهي رسم حدث أو شخص تريد التحدث عنه عن طريق الرسم ".و ذلك بهدف التأكيد والتمييز بين أنواع انفعالات الأطفال الخجولين و الأطفال العاديين ، و لمعالجة ذلك المشكل اهو الخجل عند الطفل ، و إبراز الرسم كتنمية قدراتهم التعبيرية للآخرين و التواصل داخل المجموعة .

ففي التعليمة يمكن رسم شخص حامل لأحداث أو شخص مع أحداث أو احدث ، هناك احد الباحثين قام بتطبيق اختبار رسم شكل الإنسان لمجموعة الأطفال الخجولين و لأطفال عاديين مثل . لذلك قد ركزت في هذا الاختبار في الكشف عن كيفية تخطيط ورسم و تلوين الأطفال الخجولين و انفعالاتهم وتفاعلهم في النقل و التعبير عن الأشياء للآخرين و كيفية نقل المفاهيم لنا . كما قمت بتحفيز الأطفال للتعبير من خلال هذه التعليمة بواسطة الرسم .

+ أدوات الإنجاز:

قدمت للأطفال أوراق رسم بيضاء ، أبعادها (22/32 صم) ، أقلام رصاص ، ألوان مائية ، فرشاة تلوين، حاملة ألوان ، و ساعدتهم في وضع الألوان ، كوضع الألوان الأولية بجانب بعض (الأحمر ، الأزرق، الأصفر) ، و الألوان الحيادية (ابيض ، اسود و رمادي) بجانب بعض و ذلك بهدف معرفتهم للألوان . طلبت منهم عدم استعمال الممحاة و أن يكون القلم مبريا و الأقلام الملونة أيضا ، كذلك استعمال إسفنج و كوب الماء لغسل الفرشاة و تجفيفها بالإسفنج لتغيير اللون أيضا .

تم تقديم الأدوات على ما يرام حتى لا يتعرضوا إلى صعوبة عند استعمال الأداة ، مع الإشارة إلى اختيار الرسم و الأقلام اللونية الجافة ، أو بالألوان المائية و ذلك لإحساسهم بالراحة عند الإنجاز ، كما أن قلت إلى أنهم لا حاجة لاستعمال الممحاة ثم الانطلاق في الرسم .

+ كيفية تطبيق الرسم و العمل :

المطلوب منهم تطبيق الرسم لهذا الموضوع بطريقة فردية ، أي أن يكون الإنجاز فردي غير مشترك مع بقية الأطفال و استعمال محمل فردي .

-كيفية الأداء : أغلبية المجموعة المختلفة بين أطفال خجولين و أطفال عاديين رسموا في لوحاتهم شكل الإنسان و ربطه بعناصر اللوحة أو بالحدث الذي تم تصويره .

تختلف رسومات الأطفال الخجولين عن بقية رسومات الأطفال العاديين من حيث التخطيط و الخطوط و التلوين فيما يلي :

-هناك من رسم * حدث وقع في العائلة عن طريق رسم الإنسان ، و ذلك اختار أن يرسمه على ورقة مخططة وهو يبلغ من العمر 6 سنوات ، فرسم دائرة و وسط الدائرة شخص يده قصيران .

-هناك من رسم عناصر متفرقة داخل المحمل غير منتظمة لكنها ناقلة لحدث ما .

-كذلك هناك من رسمت حدث الاقتصاد بالرسم و الكتابة و العناصر صغيرة جدا داخل المحمل .

+ مرحلة التقييم و القراءة الفنية للرسومات :

- عند الانتهاء من الرسم طلبت منهم عرض الأعمال بمساعدتي ، فهناك الأطفال العاديين متحمسين وقاموا بعرض أعمالهم ، لكن الأطفال الخجولين مترددين عن ذلك ، و عندما طلبت منهم ذلك ظهر عليهم أعراض و صيفا ت الخجل ،فقمت بتعليق أعمالهم و طلبت منهم المساعدة .

- بعد ذلك كل طفل أن يقف بجانب عمله و يعبر عن ما رسمه و يشرح لنا معاني العناصر التي رسمها. كما قمت بتفسير كيفية شرح الرسم أولا شكليا ثم ضمنيا أي ما يريد التعبير عنه من خلال العناصر والأشكال المرسومة .

فطلبت منهم بان احدهم يقوم ببداية التعبير عن رسمه تركت الاختيار لهم بالأدوار .

- كانت البداية للأطفال العاديين فهم غير متمكنين من القراءة الفنية مثل الأفراد الكبار لكنهم حاولوا التعبير عن ما رسموه و شرح معاني الأشكال و هذا جيد .

فيمكن للأطفال العاديين أن يلعبوا دور الأداة التحفيزية أيضا للأطفال الخجولين .

- فقد لاحظت تردد الأطفال الخجولين للخروج من أماكنهم للتعبير عن رسوماتهم ، فهم يميلون للبقاء في أماكنهم و الانزواء .

فقد حاولت دفعهم للتعبير عن لوحاتهم حتى و إن كان من أماكنهم و بمساعدتي ، لكنهم يتكلمون قليلا ثم يصمتوا وقتا طويلا أو يغمرهم الارتباك .

==> ففي رسومات الأطفال الخجولين،الكثير من الأشكال صغيرة الحجم ، و الفراغات داخل المحمل ، حذف بعض الأعضاء لشكل الإنسان ، رسم أشكال مشتتة ، رسومات غير مكتملة ، أحيانا الكثير من الفراغ في اللوحة عند التلوين .

==> فالرسومات المعروضة ، الكثير من الرسومات لا تخلو من شكل الإنسان ، و تختلف كل لوحة عن الأخرى حسب السن و حسب انفعالات الطفل ، و سوف نسعى لتحفيزهم للتغيير واكتشاف التخفيض في تلك الصعوبة ، و هذا ما سنتطرق له في الاختبار البعد ي و نكتشفه .

4- الاختبار البعد ي

بما أنني لاحظت أن الأطفال رغم صعوبة الخجل لكنهم يحبون الرسم وهو المجال الأنسب في الفن التشكيلي لهم فأعدت تعليمة للرسم .

+**التعليمة:** ارسم مشهدا أو حدث أثار اهتمامك و تريد التعبير عنه لأصدقائك .

+**المطلوب:** الرسم يكون على كامل مساحة المحمل و اختياري رسم خطي أو تصوير(التلوين بالألوان المائية) على كامل المساحة .

+**أدوات الإنجاز:**محمل اكبر حجم من حجم المحمل الفارط ، قماش ،أوراق رسم ، ألوان مائية ، أقلام جافة ،قلم رصاص، فرشاة ، إسفنج،..... .

+ **كيفية العمل** : عمل جماعي ، ثم عمل فردي

- قمت بتقديم التعليمة و شرحها وتفسير المطلوب ، و أن يكون العمل جماعي ، و كل مجموعة تقترح اسم لمجموعتها ، و إن استطاعوا كل منهم يقوم بتجربة فردية أولية ثم اختيارهم للفكرة لإحدى الأعمال ورسمها على محمل اكبر الحجم ، و قد يساهم العمل الجماعي في تشجيعهم ، كما لاحظت تحمس الأطفال للانجاز .

انظموا الأطفال الخجولين للمجموعات و ذلك بتشجيع من بقية أصدقائهم و اقترحوا لان يكون لكل مجموعة مسئول فسمحت لهم بالاختيار كما أنني ساعدتهم . كانت الأدوار متنوعة و بعض المجموعات مسئوليها من الأطفال الخجولين و ذلك لإحساسه بأنه اجتماعي و بالمسؤولية ، و اندماجهم في المجموعة .

قد أخبرتهم بان طريقة الجلوس اختياري (على الأرض أو الطاولات) ، فالأطفال العاديين قد ساعدوني في ذلك و كان هناك تفاعل مع الأطفال الخجولين و مع بعضهم البعض .

+ **أدوات الإنجاز:** المجموعات اختاروا الأغلبية الانجاز على محامل مسطحة على الأوراق المقوى .... تم توزيع الأدوات من طرفهم و شرعوا في ، لوحة القماش العمل .

لاحظت أنهم تحسنوا في كيفية وضع المحامل ، ووضع الألوان ، كذلك طريقة مسك الفرشاة و استعمالها عند تلوين شكل صغير بالفرشاة الصغيرة ، و عند تلوين الشكل الكبير يتم استعمال الفرشاة الكبيرة لكي يكون التلوين مثلما تصوره ، كذلك كيفية مسك الأقلام و التلوين به جيد نتيجة ما شرحته لهم في الاختبار القبلي .

كذلك تفسير توزيع الألوان في مساحة المحمل ، طلبت منهم مساهمة كل الأطفال في استخدام الأدوات ويمكنهم كل فرد أن يهتم بجزء من المحمل .

في هذا الاختبار كان فهمهم للأشياء سهل تباعا لما شرحته لهم في الاختبار القبلي .

+ **كيفية الأداء:** في أدائهم للرسومات على المحمل هناك بعض اللوحات مشتركة مثل إبراز "الذاكرة الجماعية " كرسم أماكن يشتركون في حبهم لها ، و هناك استخدم الألوان ، فكان توزيع اللون في المساحة جيد من خلال التدرج اللوني .

كما كان هناك تغيير إلى الأفضل في رسم الخطوط ، توظيف خطوط متنوعة و مختلفة الاتجاهات والخصائص . طلبت منهم لمن يريد التلوين بالخطوط يمكنه ذلك ، و هذا قد يساهم في تطورهم في إبراز الخطوط المتواصلة و انتباه الطفل لأهمية الخط و الأخذ بعين الاعتبار و التخلص من رسم الخطوط الغير واضحة و الشفافة جدا .

لاحظت في العمل الجماعي تفاعل الأطفال الخجولين و تحسنهم في الأداء مع بقية الأطفال . كما رسموا أحداث و وقائع مشتركة .

+ **الحصة الثانية من الاختبار**

على ضوء ما لاحظته من تفاعل الأطفال مع الرسم و إمكانية نجاح هذا الوسيط مع الأطفال الخجولين قد تم تكثيف ساعات و حصص الورشة .

في الحصة الثانية واصلنا في العمل على نفس الفكر كما طلبت منهم كيفية تطبيق العمل = "**عمل فردي**" كما يمكنهم التغيير في الفكرة.

أعلمهم بأننا سنقيم معرضا لأعمالهم الفنية عند الانتهاء فلاحظت أنهم تشجعوا ، كما لاحظت قدرتهم على تطور الفكرة عند الرسم من طرفهم .

لاحظت بأن العمل الجماعي في المرحلة الأولى من الاختبار البعد ي له مخلفات ايجابية للأطفال الخجولين، نلاحظ طريقة الأداء و الرسم بمفرده تطورت مقارنة بالاختبار القبلي ،

كالتالي :

مثال اختيار اللون المناسب لرسم الطبيعة و على إدراك من خلال التركيز على اللون الأخضر .

تنوعت رسوماتهم من ؛ طبيعة ، أماكن مختلفة ، أحداث وقعت بالبلاد ،

أرادوا نقلها بواسطة الرسم .. .

+ المرحلة الأخيرة من الاختباروهي القراءة الفنية :

عرض رسوماتهم و كل طفل أو مجموعة تقوم بتقديم و تحليل عملها و التعبير عنه شكليا و ضمنيا على المنوال الذي دربتهم عليه في الاختبار الأول أهي :

- وصف العناصر والمشاهد التي رسمها شكليا .
- اتجاهات و أنواع الخطوط ، كيفية توظيف الألوان .
- المواد التي استخدامها و كيفية توظيفها .
- تفسير وشرح المعاني و الدلالات للرسومات .

أعمال الأطفال الخجولين كانت معبرة جدا و ممتازة تقنيا و كل منهم قدم رسمه من خلال طلبي بان يفسر عمله كما كان يفكر أثناء الرسم .

كذلك كل مجموعة قامت بشرح عملها بتبادل الأدوار في التعبير و هذا قد أضفى تفاعل بينهم .

المناقشة لأعمالهم قد ساهمت معهم في المناقشة و ذلك لتحفيزهم لأشعرهم باني منهم و هذا بغرض اندماجهم و تواصلهم في المجموعة ، تنمية تعبيرهم من خلال مساهمتي في التعبير عن بعض أعمالهم ، وطرح أسئلة لهم و إجابتهم لي و هذا لهدف دفعهم للتعبير للآخرين .

+ المرحلة الأخيرة من العمل و الانتهاء من الورشة :

قمت بتنظيم معرض خاص و عرض الأعمال الجاهزة لهذه المجموعة من الأطفال الخجولين و العاديين ، قرابة عشرون لوحة في القاعة .

باستعمال وسائل صوتية كالمايكروفون , حاملة اللوحات ، الخشبة و تدريبهم قبل العرض عن الوقوف على الخشبة . لكل منهم دور في الصعود على الخشبة و التعبير عن لوحته أمام ثلة من

الأولياء قاموا بتحليل لوحاتهم و التعبير عن الأحداث المرسومة أمام الآخرين بتوصية مني أن يشرح رسمه بما يريدون قوله في الرسم و ما فكر به عند الرسم .

5- تحليل الرسومات

ما سنقف عليه في رسومات الأطفال الخجولين من دلالات و معاني عن كيفية ؛ إبراز الشكل و كيفية الأداء على المحمل .

فقد تم تركيزنا على رسومات الأطفال الخجولين في بحثنا . يضم التحليل جزأين " شكليا و ضمنيا " في رسومات الأطفال تتنوع طريقة رسم الخطوط فهناك الخطوط الرقيقة و السميكة ، ضعيفة و قوية كل منهم يختار منطقة الرسم أي السفلي ، العليا من الورقة ، المنطقة اليمنى ، المنطقة ا ليسرى ، في المنطقة الوسطى ، عناصر متفرقة.

+ نوعية الخط :

تختلف الخطوط في الرسومات ، مثلا الخط الضعيف يثبت الخجل مثل ما رأيناه في الرسم 2 ل**ريان** " فهو رسم وجه إنسان بالنقاط و الخطوط ،و كان الخط ضعيف جدا .

- كما رأينا في الرسمة **"1"** ل**خلود** فهي حسب ما تريد التعبير عنه حدث العودة المدرسية ، فرسمت أشخاص بالألوان و كل فرد وضعته في إطار و عندما طرحت عنها السؤال فلم تجب ،و قد اتضح في بعض الدراسات أن وضع الجسم في إطار يدل على الانعزال .وأكد ذلك بقول **كارين ماكوفلر:" إن الخط المحيط بالجسم هو بصفة أساسية الحائط الموجود بين الجسم و البيئة و يعكس في الغالب درجة المناعة و إمكانية الحساسية أو انعزال الطفل.**[5]

+ مساحة الورقة :

في الاختبار الأول للرسم لكل طفل أسلوبه الخاص ، في رسم الأشكال أو العناصر في مساحة الورقة . كيفية التحكم في مساحة المحمل و التعامل معه من طرف الأطفال مهم جدا، حجم الشكل حتى يكون متوازن مع المساحة .)و نؤكد ذلك بما اكتشفناه في دراستنا على استخدام الفئة لهذا الأسلوب ، الرسم في جزء و التخلي عن جزء آخر و رأينا ذلك في بعض رسومات الاختبار القبلي رسمة رقم 1 ل**ظافر** باستخدام الألوان المائية و الفرشاة . الكثير من الفراغ في المساحة و العناصر المرسومة

---

[5] كارين ماكوفر- إسقاط الشخصية في رسم الشكل الإنساني ، منهج لدراسة الشخصية ، رزق سند ابراهيم ،دار النهضة العربية ، بيروت- لبنان - 1987 ص 127

صغيرة أيضا وهو شرح لي بصوت منخفض ما رسمه " في المنطقة **العليا سماء و بها شخص وهو جده المتوفي يقصد به انه عند الله في السماء و طفل صغير باللون الأسود وهو رسم نفسه يدعو لجده أن يرحمه الله فهو تخيل جده في السماء و بجانبه رسم فرولة .**

فالأطفال ويضفون ذلك بواسطة الرسم و ليس لفظيا . كما نلاحظ في بعض الرسومات هناك من لديه ميل للمنطقة مرتبطة بالمستقبل و المنطقة اليسرى مرتبطة بالماضي أو منطقة الأشخاص الذين ينكصون نحو طفولتهم .

.

فقد اكتشفت أثناء الاختبار القبلي بعض الأطفال الذين لديهم أعراض الخجل في رسوماتهم، ترك بعض المناطق بيضاء و ذلك اختزال العناصر المرسومة في شكل صغير وهي مساحات خالية من الرسومات (Les zones blanches) وهي تسمى .

حيث يذكر أن هناك مناطق بيضاء أو مساحة خالية ، فرغم خلوها من الرسوم فليس معناه أن الطفل لم يجد ما يقوله في هذه المناطق بل أنها مناطق الممنوعات " و هي منع الخجول نفسه من التواصل والتعبير للمجتمع ." كما وجدنا في رسومات الأطفال مواضيع مختلفة شكليا كأحداث الوباء ، التلقيح ، لوحة الحرائق فهذه أحداث كلها واقعية نقلت بواسطة الرسم باستخدام ألوان جافة و ألوان مائية ، أقلام ..

فلاحظنا في رسم الأطفال الخجولين معبرة لكنها لا تخلوا من صفات رسوماتهم التي بينت في بعض النظريات كميلهم إلى:

رسم الأشكال بالغة الصغر و هي تحيل على الخجل الزائد و الانزواء ، كذلك في رسومات الاختبار الأول في دراستنا لا تخلوا رسومات لشكل الأشخاص لحذف عضو من أعضاء الجسم المرسوم مثل :حذف الأيدي أو قطعها، حذف شكل الفم أو شكل الأنف ، رسم شكل الفم صغير جدا،حذف شكل الأصابع ، رسم اذرع قصيرة ، رسم الأقدام صغيرة أو حذفها ، رسم شكل مائل و ذلك مثل لوحة **رقم 1 لريان " رسم الرأس مائل مائل و حذف بعض الأصابع** .

أكدت بعض الدراسات **" تشير الرسومات الصغيرة إلى القلق ، الخجل ، الانطواء على الذات "**.[6]

اختبار رسم شكل الإنسان " **حذف القدم بدرجة كبيرة و متساوية في رسمهم مما يدل على اتسامهم بضعف الاتزان وينقصهم أمان الأقدام "**. ففي اختبار الرسم القبلي خاصة الذي قمت به مع الأطفال الخجولين لاحظت ذلك في بعض الرسومات ، الخجل سبب لهم الشعور بالضعف خاصة أثناء مرحلة تقديم رسوماتهم ، يخجلون أمام الآخرين أثناء التعبير . كما تشير رسوماتهم لعدم تكيفهم من خلال التقيد بأشكال صغير هذا يدل على عدم الانفتاح للآخر و تقييد نفسه عند الرسم في مساحة صغيرة من المحمل . و بعض النظريات أكدوا ذلك بقول **ماشوفر: " الفرد يرسم رسومات صغيرة نتيجة لعدم التكيف و تدل على الميل إلى الانطواء على الذات و العزلة ."**[7]

بعد تكثيف الحصص و العمل ألمجموعاتي،قمت بتدريبهم على حرية اليد في الرسم من خلال كيفية تعميم الألوان على كامل المساحة خاصة في رسم الطبيعة و ميلهم لذلك مما جعل الطبيعة مكان للخروج التخلص من التقيد.

ففي **لوحات الاختبارالبعد ي** و الحصص الأخيرة هناك تطور في كيفية استخدام الألوان، و الرسم الخطي كرسم أشخاص حاملين مسن إلى مركز التلقيح (**رسمة2 نور**)، باستعمال قلم الرصاص، و شكل الإنسان متوازن مع مساحة الورقة ، رسمت أشخاص يرتدون كمامات،أشخاص يرتدون ملابس شرطة ، تبين فيها مساعدتهم للمسنين في زمن الوباء فهي توثق حدث في زمن معين بواسطة الرسم .

في اللوحات الأخيرة تكثيف اللون الأخضر في رسم مشهد طبيعي وهو لون ثانوي تحصلت عليه من خلال مزج لونين أوليين (الأزرق و الأصفر) ، ترسم شروق شمس و جزيرة ، وحسب تحليلها فهي تعشق الجزر والبحر .

في اللوحة 2 والأخيرة ل**مريم** استخدمت اللون الأزرق على كامل اللوحة مساحتها(60/75صم) ثم أضافت عناصر الطبيعة بالألوان المناسبة لكل عنصر .رسمت مكان توثق فيه الراحة النفسية و

---

[6] Andrée-Anne et les autres, le dessin de la famille , éditions et applications psychologiques, paris , France -2000 .- P 77

[7] Andrée-Anne et les autres, le dessin de la famille , éditions et applications psychologiques, paris , France -2000 P- 78

الفرحة من خلال الألوان التي استخدمتها، و أحبت هذه الألوان التي رأتها لدى الفنان " بوب روس"وهو المرجعية التي قدمتها لهم لتحفيزها .

رسمة ياسين رقم2 رسم أشخاص يرتدون أزياء العديد من المهن باستخدام ألوان مائية على لوحة القماش مساحتها 70/80صم ،بتقنية التنقيط التي دربتهم عنها لأنها تقنية يرونها سهلة و يشعرون بالاستمتاع عند استعمالها . فهم أشكال لأشخاص متنوعون المهن مجتمعين في مكان واحد في شارع تونسي رئيسي حذو "الساعة" وهو يرمز لتضامن كل الاختصاصات من اجل تطوير البلاد ، و استخدام الألوان للتعبير عن تلك المهن .

== هكذا شرحوا الأطفال لوحاتهم في المعرض .

كما تغيرت رسمة رنيم رقم 2على رسمة رقم1 وهي رسمت نفسها في مكان طبيعي تحت الشجرة و تقابلها قمر باستخدام قلم رصاص على ورقة رسم ، بينما الرسمة رقم 1 رسمت عناصر طبيعية متشتتة في جزء من الورقة بالأقلام الملونة و جزء كرة الأرضية بألوان زاهي تحيل على العيش بأمان و في الجزء الثاني من الورقة رسم بالألوان الداكنة مكان قاحل و جزء الكرة الأرضية باللون الأسود و رسم أشجار بالأسود و أعلاهم بالبرتقالي وهو لون النار في هذا الرسم وهي تحيل على الحزن بسبب أحداث الحرائق التي وقعت .فهي تكشف العلاقة بين الشيء و اللون فصنفت الأشياء المحروقة حسب لونها الواقعي و الأشياء الغير محروقة حسب لونها الواقعي " الشجرة خضراء جزء الكرة الأرضية اخضر و ازرق فهو انعكاس لنموها الإدراكي و المعرفي حسب سنها و هذا ما أكده **لوفنفيلد** لطفل ما بين 7 و9 سنوات و مرحلة إدراكه الشكلي.

6-نتائج الفرضيات

1-6 نتائج الفرضية الأولى

يمثل الرسم الوسيط المجال الأنسب في الفن التشكيلي كوسيط فني لهذه الفئة الأطفال الخجولين من خلال ميلهم للرسم الخطي و التصوير:

استنادا إلى ما توصلنا إليه في الجانب النظري و التطبيقي فان مجالات الفنون التشكيلية متعددة ،لكن أهم مجال لهذه الفئة و تم تطبيقه " الرسم " وهو المجال الأنسب حسب ما لاحظته من اهتمام الأطفال الخجولين لهذا المجال بالرغم من ضعف تعبيرهم لفظيا لكن تمكنا من تحفيزهم لتنمية تعبيرهم و علاج تلك الصعوبة فقد اثبت الرسم القائم على تمثلات الأطفال أن يكون وسيطا فعال من خلال بصماتهم الحاملة لدلالات و معاني و ناقلة لأحداث موثقة للآخرين ،سواء إن كانت

خطوط ،أشكال ، ألوان واكتشاف طريقة أدائهم و تطور القدرة التعبيرية من خلال مجالا واحدا اهو " الرسم" .

بالرغم من انزوائهم جراء خجلهم لكن لاحظت أنهم اكتشفوا أنفسهم و قدراتهم في الرسم و التصوير . أتاح الرسم للأطفال الخجولين الفرصة على تعديل الأحداث و العالم من حوله و تعديل تجربته في الرسم من خلال تجسيد صور مرئية من انجازه و من بصمته ، و هذا ما يفسح المجال للطفل على الرسم أصبح الإطار الأنسب الذي يشعر فيه بالارتياح و الاتجاه به للتعبير و التواصل مع الآخرين ، خاصة في مساهمة الطفل الخجول ببصمته اللونية في محمل يتقاسمه مع أقرانه . سهل الرسم عليهم تنمية قدرتهم التعبيرية عن الأشياء من خلال لمستهم الفنية " الخطية و اللونية .كما أنهم اكتشفوا الأطفال القيمة الفنية لرسوماتهم مهما كانت بساطتها فهي ساهمت في إيصال ما يريدون للآخرين بواسطة الرسم . طريقة رسمهم مختلفة في الأول عن الآخرين لكنها معبرة ،بل أكثر من ذلك شاهدنا تطورات في التقنيات و كيفية الأداء عند الرسم . اثبت هذا الوسيط الإحساس الفني المرهف للطفل عند تحليل و قراءته الفنية للوحته ، في وصف الألوان و ما رسمه أمام الآخرين ،و تخفيض نسبة الخجل عند الطفل لما قدم عمله حتى و إن بقي حامل لبعض الأعراض لكنه ناقش ووصف عمله أمام الجميع مما يشعره من نمو تعبيري و قدرة إبداعية فائقة .كما اتضح أن الرسم الوسيط المناسب لان كل بداية انجاز عمل فني في الغالب يتم تخطيطه على الورق .أكدت بعض المدارس الفنية كالواقعية أهمية الرسم و التصوير في التعبير عن الواقع و نقل كل ما يريد من أحداث للآخرين بواسطة الرسم بما انه يسهل للطفل في محاولته لرسم أشياء أو أحداث محيطة به واقعية . فالطفل يميل للرسم الواقعي كرسمهم لاماكن طبيعية كحدث انتشار الوباء و حدث التلقيح في رسومات بحثنا .لذلك يهتم الطفل بمجال الرسم أكثر من بقية مجالات الفنون التشكيلية الأخرى كالحفر مثلا ... .فالرسم وسيط ساهم في تنمية تواصلهم مع الآخرين من خلال العمل الجماعي أيضا.

2-6 نتائج الفرضية الثانية

يساعد الرسم الأطفال الخجولين في دفعهم وتنمية تعبيرهم عن الأحداث وتواصلهم مع الآخرين .

إن ما اكتشفناه في النشاط التطبيقي بان الرسم أضفى راحة للأطفال الخجولين في التعبير الفني . ساعد الطفل الخجول في كشف الأحداث و ما يحيط به و كل ما بقي في ذاكرته و إن كانت أحداث ذاتية أو خارجية . من خلال ما رسموه الأطفال على المحمل من رموز و أشكال حاملة لدلالات و الذي ساعدنا لطرح الأسئلة في النقاش حتى و إن لم يستطيع في الأول المناقشة و التعبير ، لكن طريقه إعطاء الأهمية لرسمه والأسئلة المرنة قد دفعه للتعبير عن ما رسمه ، لتحقيق غايتنا التي تمثلت في كيفية تعبيره لفظيا و لغويا عن رسمه للمجموعة . الرسم هو المرآة التي عكست الأحداث التي توجد في داخل الطفل الخجول ،من خلال رسمه لما يحيط به من أحداث إن كانت جيدة أم مأساوية ،كرسمهم لأحداث الوباء والحجر الصحي أو رسم أشياء ترمز إلى التفاؤل كرسم أحداث التلقيح أو رسم الأماكن الطبيعية بألوان زاهية ، رسم أحداث ترمز إلى التضامن في الوطن . قد تكمن صحة هذه الفرضية في دراستنا مما تبين قدرة حتى بطريقة بسيطة في مساعدة الطفل عن التعبير حتى و إن كان غير متمكن في الرسم ، و بطريقته الخاصة كرسم شخص منقوص لبعض الأعضاء لكنه يفسر معانيها و خاصة تم تحفيزه من خلال القول "رسمك معبر وجيد "و استدراجه بطريقة مرنة و هذا ما شجعهم على التجاوب و التعبير . كما ساهم الرسم الجماعي في دفع الأطفال الخجولين للتواصل مع أقرانهم في العمل المشترك و المناقشة المشتركة ، و اندماجهم مع بعضهم البعض . قد اثبت أن الرسم الوسيط الأنسب الذي ساهم في تحفيز الأطفال الخجولين على التواصل عند الانجاز الجماعي ، و تبادلهم الأفكار للرسم و المشاركة في الأدوات .

في تطبيق العمل الجماعي ساهم الرسم بتوسطه في اندماج الأطفال الخجولين مع المجموعة و تنمية تواصلهم من خلال تبادل الآراء في كيفية الانجاز .كذلك أثبتت دراستنا الحالية نجاعة الرسم في تسهيل تواصل الطفل الخجول مع الآخرين ، كما ساهم في تسهيل التعبير عن الأشياء من خلال ما رسموه و بسط الرسم لهم هذا المهام للأطفال و طور في قدراتهم التواصلية و التعبيرية و قدراتهم الإبداعية إذ تم إنجاح نسبة كبيرة حتى و إن كان في التعبير المرئي من خلال الرموز المرسومة و نسبة قليلة في التعبير اللفظي .

فان خطة تنظيم المعرض الجماعي للوحاتهم في مكان مختلف ساهم ذلك في كيفية الإفصاح عن الأحداث التي وثقوها في رسوماتهم و ذلك من خلال قراءتهم الفنية للوحاتهم الفنية في المعرض أمام الأولياء ،و هذا ما ساهم في تحسين التعبير اللفظي للأطفال الخجولين و نما لهم قدرتهم التعبيرية .ساهم الرسم في تنمية المهارات الفنية ، كما انه الطفل الخجول في حد ذاته اكتشف الجانب الفني الإبداعي فيه مع تزامن الورشات . الرسم وسيط فني ساعد الطفل على تنمية مهاراته التعبيرية كتفسير و تحليل رسمته ، التعبير اللغوي ، الفهم لرسومات الآخرين، التواصل من خلال رسوماتهم خاصة أنها تشمل الذاكرة الجماعية والأحداث المشتركة .

يمكننا الإشارة إلى أن فعالية الرسم كوسيط فني في تنمية التعبير لدى الأطفال الخجولين قد تختلف من فرد إلى آخر ، نتيجة اختلاف هذه الصعوبة اهو الخجل . إلا أن هناك من تحسن في كيفية التعبير بصوت مسموع و بعض الأعراض انخفضت عند التعبير لفظيا عن رسمه أمام الكل مما اكسبه الثقة في النفس والشعور بالمسؤولية ، و هناك من تحسن في التعبير عن رسمه شكليا و ضمنيا لعمله الفني لكنه لفظيا لا يزال صوته منخفض عند التعبير بسبب الخجل بالرغم من تنمية المهارات التقنية عند الرسم و اكتساب الإحساس المرهف . إجمالا قد أكدت التجربة التطبيقية صحة هذه الفرضية و جودة نتائجها و نجاعتها . كذلك أكدت نتائج دراستنا قدرة الرسم كوسيط فني علاجي في تخفيض نسبة الخجل عند الطفل خاصة في مرحلة مناقشة و تحليل رسوماته أمام الآخرين من أطفال و أولياء في المعرض و نجاح ذلك بعد تدريبهم عن القراءة الفنية في الحصص الفارطة و اختلاطهم بمجموعات . إن إتاحة الفرصة لاختلاط الأطفال الخجولين الآخرين و انجاز الرسم مع بعضهم البعض قد ساهم في التخفيض من الخجل.

خاتمة

بعد ما قمنا بالورشات التطبيقية الميدانية بتوظيف الوساطة الفنية التي تمثلت في الرسم كوسيط فني علاجي. اطلعنا على أن الرسم وسيط جوهري في معالجة صعوبة الخجل الزائد لدى الأطفال ، كما أن في هذه التجربة الرسم هو طرف ثالث الوسيط و الرابط بين الطفل الخجول و الآخرين، خاصة و انه لعب دور هام في علاقته بأقرانه و اندماجه مع المجموعة . كذلك الرسم هو الوسيط في تنمية أفكار وسلوك الطفل الخجول ، و تنمية قدراته التعبيرية و الإبداعية ، ففن الرسم يحمل أهمية كبيرة في التخلص من الصعوبات لدى الطفل.

+ الملاحق

-ورشة الرسم (الاختبار القبلي و البعد ي)

ريان

خلود

رنيم

ظافر

نور

ورشة الاختبار البعدي

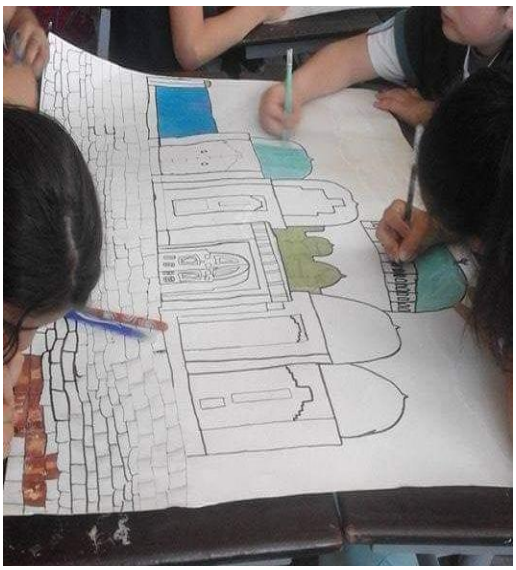

رنيم

نور

ريان

مريم

+القراءات الفنية في المعرض

خلود

مريم

ياسين

+المراجع

*وريد هربرت ، الفن و المجتمع ، ترجمة فارس ظاهر ، دار القلم بيروت ، لبنان ، 2020

*مروان سليمان سالم الددا ، فعالية برنامج مقترح لزيادة الكفاءة الاجتماعية للطلاب الخجولين في مرحلة التعليم الأساسي،الجامعة الإسلامية ، غزة ، فلسطين ، 2008

*علي السيد خليفة ، الخجل و التشاؤم علاجهما ، المركز العربي الحديث ، مصر الجديدة ، 2001

*رنا جمال ،السلوكيات السلبية في حياتنا كيف نتخلص منها ، دار من المحيط إلى الخليج للنشر، الأردن، 2017

*كارين ماكوفر- إسقاط الشخصية في رسم الشكل الإنساني ، منهج لدراسة الشخصية ، رزق سند إبراهيم ،دار النهضة العربية ، بيروت- لبنان - 1987

Andrée-Anne et les autres, le dessin de la famille , éditions et applications

-2000psychologiques, paris , France

دور القصة الرقمية التفاعلية في تنمية الإدراك البصري لدى أطفال الرياض

هاجر حمدي

المعهد العالي لإطارات الطفولة قرطاج درمش ،جامعة قرطاج -تونس

مقدمة

من أهم المراحل التي يمر بها الانسان في حياته هي مرحلة الطفولة المبكرة فيها تتشكل شخصية الطفل المستقبلية وتطور من قدراته الحسية و العقلية ،تبدأ منذ الولادة إلى سن السادسة وتتسم بالتركيز على المهارات الأساسية منها الاجتماعية والعاطفية والتربوية ,"ففي هذه المرحلة يقل إعتماد الطفل على الكبار و يزداد اعتماده على نفسه و ذاته ويتم فيها الانتقال من بيئة المنزل إلى بيئة الحضانة و رياض الأطفال حيث يبدأ في التفاعل مع البيئة الخارجية و المحيطة به" (1) ,وتأتي الروضة هنا لتلعب دورا محوريا في هذه المرحلة بإعتبارها من بين أهم المؤسسات التربوية التي يمر بها الطفل في سن ما قبل التمدرس فلم يقتصر دورها على اللعب فقط أو انها بمثابة مكان للرعاية في غياب الاسرة بل تجاوزت ذلك فهي تساعد الطفل على التعلم و الإكتشاف و التواصل مع البقية كما أنها تهيئه للمرحلة الموالية وهي المدرسة والتي ينمو فيها الطفل أكثر كما تعزز الروضة الخيال الابداعي لطفل من خلال الأنشطة التعليمية و الفنية التي يشرف عليها المربين والتي تعددت و تنوعت حسب مختلف الأعمار ولعل نشاط سرد القصة للاطفال في هذه المرحلة له أهمية كبرى إذ تساهم القصة في تنمية المهارات اللغوية لطفل كما أنها تعمل على تنمية خياله فهي تساعده على حب الاستطلاع وتصور أحداث القصة و شخصياتها خلافا على ذلك فهي تزرع فيه روح القيم و أخلاق من خلال الحكم التي يستخرجها منها في نهاية كل قصة ومع التطور التكنولوجي الذي عرفه العالم جاءت اليوم القصة الرقمية لتكمل القصة الورقية وتطور منها لتصبح في شكل محمل سمعي بصري به صور متحركة وألوان وأشكال تشد إنتباه الطفل وهذا ما جعل منها أداة تعمل على تنمية الإدراك البصري للأطفال .

فمن الركائز الأساسية التي تساهم في نمو الطفل نمو شامل هي المهارات البصرية التي تحمل عدة تأثيرات على الجانب الأكاديمي و العاطفي والحركي ولا تقف هذه المهارات على رؤية ما يشاهدونه بشكل واضح فقط بل تعمل على تفسير المعلومات المرئية بشكل أدق وفهمها أكثر من ثم تنسيقها مع حركات الجسم وترسيخها في العقل لذلك لا بد من التركيز عليها أكثر في فترة ما قبل المدرسة حتى يتمكن الطفل من التعلم بطريقة سليمة دون أن يتعرض إلى صعوبات إن كانت أكاديمية أو نمائية في المستقبل قد تقف أمامه كحاجز في حياته ,وهنا يأتي دور الأسرة لتركيز أكثر على تنمية مختلف مهارات طفل عموما ومنها البصرية خصوصا وتأتي الروضة لتكمل وتثمن هذه المهمة من خلال إدراج الأنشطة الفنية في البرنامج المخصص لكل فئة عمرية ومثلما ذكرنا النشاط القصصي.

"فمهما اختلفت وتنوعت أساليب الفن بشكل عام يبقى ما هو إلا وسيلة من وسائل التعبير عن النفس وما يكمن في الوجدان من أحاسيس و أفكار يتعلم عن طريقها الكثير من المعارف والسلوكيات التي تساعده على النمو النفسي و العقلي و الاجتماعي" (2) فمن المهم العمل على إدماج الفن في كافة الأنشطة والآن مع التطور التكنولوجي وظهور الذكاء الاصطناعي فقد أصبحت هناك العديد من البرامج التي تسهل على المربي إعداد نشاط للطفل بما في ذلك القصة لتصبح رقمية ولكن قد نكون إزاء اشكال كبير في ما إن كانت رياض الأطفال تطبق في نشاط القصصي أما لا ؟

الإشكالية و التساؤلات :

على الرغم من أهمية النشاط القصصي داخل رياض الأطفال ومع أن البرامج المعدة في إطار هذه المؤسسات التربوية تجزم بضرورة ممارسة هذه المادة التعبيرية مع الأطفال فلم يقتصر هذا النشاط بكونه مجرد أداة لترفيه فقط بل تجاوزت قيمته ذلك ليصبح وسيط فني له أهمية جوهرية في تطوير من قدرات الطفل المعرفية ومن مداركه البصرية فيتمكن بذلك من فهم واستعمال ما يراه أمامه من صور إلا أنه اليوم نجد اشكال كبير داخل المدارس من حيث انخفاض المستوى التعليمي للطفل عدم قدرته على الكتابة و القراءة أو صعوبة في التعبير وعدم النطق بطريقة سليمة وقد يتجاوز ذلك أكثر فيصبح الطفل ضعيف من حيث الابداع و الخيال .ولعل نقص اهتمام القائمين على مناهج رياض الأطفال في تكثيف في مثل هذا الأدب الفني القديم أو الحديث دور في ذلك فستكون النتيجة الحتمية لهذا الإهمال والتقصير هو حرمان الطفل من حافز بصري ثري لذا لابد من تخصيص حصص يومية من نشاط القصصي يتم بمقتضاها تعويد الطفل على الإنصات والتفاعل معها وحثه على الكلام وذلك بتدريبه على سرد القصص ساعيا إلى تنمية مداركه البصرية

التي ستخول له الاستعداد والتهيئة إلى المرحلة الموالية من مسيرته الدراسية التي تحتاج أيضا إلى مربي يراعي حاجات الطفل بما يمتلكه من كفاءات متعددة تتضمن مهارات تكنولوجيا المعلومات والاتصال. ومن هنا اخترت المساهمة في إثراء هذه المسألة المتعلقة بضرورة التكثيف من الأنشطة الفنية داخل رياض الأطفال كنشاط القصة وذلك لما لها من تأثير كبير على النمو الطفل الذي يستعد لخوض تجربة جديدة تتمثل في الحياة المدرسية وبذلك نطرح الإشكالية التالية :

إلى أي مدى تساهم القصة الرقمية في تنمية المدارك البصرية والتواصلية لأطفال الرياض ؟هل يعتمد مربي الرياض اليوم على التكنولوجيا الحديثة في نشاط القصصي الرقمية مع الأطفال؟

فرضيات البحث :

من شأن الفرضيات أن توجه الباحث إلى المعلومات والبيانات التي يتعين عليه جمعها في مرحلة العمل

الميداني ولذلك عمدت إلى طرح فرضية والتي تتمثل كالاتي:

القصة الرقمية وسيط فني ينمي الإدراك البصري لاطفال الرياض .

أهداف البحث :

تتمحور إشكالية بحثنا حول قلة إعتماد المربين على النشاط القصصي في رياض الأطفال ومدى تأثيره على تنمية الإدراك البصري لديهم، وبناءا على ذلك تكمن أهداف البحث على النحو التالي:

الأهداف العامة:

- الكشف عن حقيقة الاعتماد على عرض القصص الرقمية في رياض الأطفال.
- إبراز مدى تأثير القصص الرقمية في تنمية المهارات البصرية و القدرات المعرفية لدى طفل الروضة.
- التعرف على الصعوبات والعراقيل التي يتعرض إليها الطفل دون استخدام النشاط القصصي عموما إن كان ورقي أو رقمي .

الأهداف الخاصة :

- تصميم قصة رقمية تفاعلية لتنمية الإدراك البصري للأطفال .
- طرح مقترحات وتوصيات على المربين برياض الأطفال و المسؤولين على المناهج أيضا وذلك قصد تفعيل نشاط القصة الرقمية .

- المساهمة في رفع جودة العملية التربوية في رياض الأطفال.
- الرفع من قيمة وجودة العملية التعليمية بالمؤسسات الخاصة بالطفولة بما في ذلك رياض الأطفال
- تهيئة المربين القائمين على رياض أطفال بضرورة العمل على تطوير و دمج النشاط القصصي إن كان ورقي أو رقمي بالمناهج .
- العمل على تقليل من نسبة الصعوبات التعلم التي قد يتعرض إليها الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة نتيجة لعدم تنمية الإدراك البصري لديهم .

تعريف المفاهيم الخاصة بالبحث :

القصة لغة :

"جاء في (لسان العرب) لابن منظور: قال الليث: القَص فعل القاص إذا قص القصص، والقصة معروفة، ويقال: في رأسه قصة يعني: الجملة من الكلام ونحوه قوله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص) أي: نبين لك أحسن البيان."(3)

القصة إصطلاحاً:

"القصة حوادث يخترعها الخيال ،وهي بهذا لا تعرض لنا الواقع ،كما تعرضه كتب التاريخ و السير،و إنما تبسط أمامنا صورة مموهة منه ".(4)

يعتبر فن القص من بين الأنشطة الابداعية التي قام بسردها الانسان منذ القدم حيث تقوم بالأساس على أحداث إما من وحي الخيال أو من الواقع الموجود يعبر عنها عن طريق وسيط ما كتابي أو بصري أو سمعي وغاية منها توصيل فكرة أو حكمت ما ذات قيمة إلى المتلقي.

الأدب الرقمي:

"الأدب الرقمي لا يخلو من اللغة في بنائه فلا يمكن إنتاجه إلى عبر البرامج الإلكترونية والتي تزود النص بالمؤثرات الخارجية كالصوت والصورة والحركة والألوان، كون القارئ بحاجة إلى الوسيط الالكتروني لقراءته وتصفحه و التفاعل معه يكون على معرفة عالية مع هذا الوسيط الالكتروني إذا الأدب الرقمي هو الذي يوظف المعطيات الرقمية باختلافها وأنواعها ويحول الأدب إلى مدونة تفاعلية وسائطية تستثمر كل إمكانيات الشاشة ."(5)

تعريف القصة الرقمية :

"يشير السرد الرقمي إلى ممارسة استخدام الأدوات القائمة على الحاسوب لرواية القصص أو عرض الأفكار ,كما عُرّفت القصص الرقمية على أنها عروض وسائط متعددة تدمج مجموعة متنوعة من العناصر الرقمية ضمن هيكل سردي." (6)

"على عكس السرد القصصي التقليدي الذي يستخدم موادًا على وسائط مادية مثل الورق، أو الأشرطة، أو الأقراص، والأفلام، فإن القصة الرقمية تستخدم موادًا موجودة في ملفات إلكترونية. وبناءً على ذلك، قد تشمل القصص الرقمية ليس فقط النصوص والصور والفيديو والصوت، ولكن أيضًا عناصر تفاعلية من وسائل التواصل الاجتماعي ."(7)

الإدراك البصري:

يعتبر الإدراك البصري نوع من أنواع عملية الإدراك الذي يمثل أحد أهم العناصر في الوظائف المعرفية. و يقصد به القدرة على إدراك تفسير وفهم المثير البصري بطريقة صحيحة.(8)

وفي تعريف أخر نجد بأن الإدراك البصري هو القدرة على تفسير وفهم وتحديد المعنى للمعلومات البصرية الواردة.(9)

وعندما نتحدث عن الإدراك البصري فإننا نتكلم عن المعالجة البصرية والتي بدورها تنقسم إلى مراحل وهي كالتالي :

- "الإحساس : تبدأ العينان هنا بإكتشاف الضوء كمرحلة أولية ومن ثم تعمل على تحويله إلى إشارات عصبية
- الإدراك : يقوم الدماغ بتنظيم هذه الإشارات لتحديد الأشياء التي تدور من حوله ليشكل صورة مبدئية
- التعرف: يعطي الدماغ معنى لما تم إدراكه على سبيل المثال، التعرف على شيء ما كلب أو شجرة.
- الاستجابة: بناءً على المعلومات المعترف بها، يأمر الدماغ باستجابة، سواء كانت الابتعاد أو لا" (10)

الجانب الميداني للبحث :

ننتقل الأن بالبحث من الإطار النظري إلى الجانب الميداني والذي تتحول فيه المعلومات التي ذكرناها إلى معلومات كمية تثبت صدق الفرضية التي اقترحتها سابقا وللإجابة أيضا على اشكالية البحث المطروحة ومن خلال هذا الجانب لا بد من تحديد المتغيرات التي ستساعدنا في بناء العمل الميداني،فاخترنا بذلك المكان المحدد وعينة البحث المناسبة للاختبار القبلي والبعدي ،وبالإضافة إلى ذلك تعتبر الإجراءات المنهجية للبحث من أحد العناصر المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنها إلى جانب نوع الأدوات التي سنعتمدها مع عينة الدراسة في جمع المعلومات وتحليلها وصولا إلى النتائج على أرض الواقع مع الأطفال.

المنهج المعتمد في البحث :

قد تم الاستناد على المنهج التجريبي كطريقة منهجية تستعمل لدراسة وقائع خارجية وتسعى على فهمها و تفسيرها ومن الممكن التحكم فيها أحيانا والتنبؤ بما هو مستقبلي ومن بين أدوات البحث العلمي المستخدمة في المنهج التجريبي نجد أداة المشاهدة والملاحظة.

تقديم المؤسسة التربوية :

لمعرفة مدى صحة الفرضية التي وضعتها في البحث وهي القصة الرقمية وسيط فني ينمي المهارات البصرية للأطفال اردت القيام بتجربة ميدانية من خلال الاستناد على الاختبار القبلي والبعدي في رياض الأطفال بتونس وذلك باعتبارها مؤسسة تربوية وجزء من نظام تعليمي مخصص لتربية الأطفال وتتميز بأنشطة متنوعة تهدف إلى إكساب الطفل القيم التربوية والاجتماعية والثقافية وبناءا على ذلك ذهبت إلى " روضة الخليل " الموجودة بديار سكرة من ولاية تونس الكبرى وهي مؤسسة تربوية مديرتها من خريجي معهد اطارات الطفولة قرطاج درمش القدامى, تتميز الروضة بفضاء خارجي كبير يلعب فيه الأطفال وبنسبة للفضاء الداخلي وجود أقسام وكل قسم به مجموعة من الأطفال هنالك أيضا قاعة كبيرة مغطاة وهي التي قمت فيها بنشاط القصة في كلا الاختبارين ،يوجد أيضا 5 مربيات رفقة الأطفال الذين تراوحت أعمارهم ما بين 3 و 5 سنوات .

توقيت القيام بالتجربة الميدانية :

وَضع التجربة الميدانيّة في إطارها الزّمني مِن بين الخُطوات الهامة في البحث العلمي التي لا بد أن يقومُ بها الباحث وهي عمليّة ضبط لمختلف التفاصيل التي يتمّ المُرورعليها وَوصفٌ دقيقٌ ومحكم لِظُروف التي تميزت بها التجربة . وَفي هذا الإطار، امتدّ العمل الميداني لهذا البحث خلال مُدّة زّمنيّة انقسمت إلى يومين من شهر جويلية وشهر سبتمبر فقط نظرا لأني قمت باختبارين قبلي وبعدي ،الاختبار القبلي الذي تم يوم 1 جويلية 2021 الاختبار البعدي تم يوم 1 سبتمبر 2021.

خصائص عينة البحث :

جـــــدول عينة البحـــــث

	المؤسسة التربوية	السن	عدد الأطفال	الجنس	المستوى الاجتماعي
مجموعة تجريبية	روضة الخليل بديار سكرة	5,4 سنوات	12	3 اناث 9 ذكور	متوسط

تنتمي الفئة العمرية التي اخترناها في تجربة البحث إلى مرحلة الطفولة المبكرة والتي تمتد عمريا من 3 الى 6 سنوات وتربويا هي مرحلة رياض الأطفال أو ما قبل المدرسة وتعتبر من أكثر مراحل الطفولة أهمية وهي التأسيس الأول لبناء شخصية الطفل .

التجربة الميدانية :

بدأت التجربة الخاصة بالبحث من فكرة أولية عامة تطورت إلى تصور علمي واضح وفق إلى مجموعة من المعلومات ، ثم إلى مشروع بحث يطبق على أرض الواقع ، وذلك بهدف اختبار الفرضيات و إبراز مدى صدقها في حالة طبيعية يتصرف فيها الأطفال بشكل عفوي و تلقائي ، دون أن نحسسهم بأنهم محل مراقبة و دراسة، مما يضمن صدق الملاحظات وسلامة النتائج.

فتم الاستناد بذلك على التجربة الميدانية كمنهج أساسي يمكننا من استخلاص استنتاجات دقيقة و تقديم توصيات هامة ينصح بها في المستقبل .

بناءً على ذلك، أُنجزت التجربة في روضة الخليل على عينة مكوّنة من 12 طفلًا (3 إناث و9 ذكور)، من خلال تطبيق اختبار قبلي واختبار بعدي:

- الاختبار القبلي، تقديم القصة في شكلها الورقي التقليدي.
- الاختبار البعدي، عرض نفس القصة في شكل رقمي سمعي بصري تفاعلي.

الهدف من ذلك تقييم مدى فاعلية القصة الرقمية مقارنة بالورقية في تنمية وتحسين من المهارات البصرية والإدراكية لدى طفل الروضة ، من خلال تعزيز قدرته على دقة الملاحظة ، والانتباه أكثر للتفاصيل، والتمييز بين الأشكال والألوان والحركات الموجودة بالقصة .

وقد تمّ الاعتماد خلال التجربة الميدانية على أداة الملاحظة بشكل مباشر كأداة أساسية لتقييم مدى تفاعل الأطفال مع القصة في كلا الشكلين (الورقي والرقمي)، وتحليل طريقة تعبيرهم عن المحتوى ومدى اكتسابهم للمهارات الجديدة ذات البعد البصري واكتشاف الصعوبات التي يواجهها الأطفال خلال الورشتين .

مرحلة الاستعداد للاختبار القبلي :

في مرحلة أولى بعد أن تم التعرف على الدراسات السابقة وبعض المفاهيم والمعلومات التي تخص كل من القصة الورقية و الرقمية تم تحديد الفرضية المرجوة في البحث والمتمثلة في القصة الرقمية وسيط فني ينمي مهارات الطفل البصرية ولمعرفة مدى صحة هذه الفرضية في الواقع مع الفئة المستهدفة انتقلت إلى التجربة الميدانية واتبعت هذه الخطوات في البداية شرعت في كتابة قصة تتناسب مع المرحلة العمرية للطفل الروضة بعنوان "زورو المغرورة" وهي قصة من قصص الحيوانات التي تعتبر الأقرب و الأنسب إليهم في مرحلة الطفولة المبكرة، وفي هذه المرحلة يهتم الأطفال بحكايات الجدة وقصصها الخيالية و يشد انتباههم الصور و الكتب المصورة وبشكل خاص صور الأشياء المألوفة لديهم كصور الحيوانات و المناظر الطبيعية الأشجار، الأنهار, ولهذا السبب اخترت قصة تدور أحداثها بين مجموعة من الحيوانات, كما تتميز القصة بكثرة وتنوع المفردات البسيطة المستمدة من لغتهم ،أي اللغة المألوفة لديهم والتي يستخدمونها في حياتهم العادية بعد تنقيتها و تهذيبها حتى يتمكن الأطفال من فهمها بشكل جيد دون أن يواجهوا أي صعوبات قد تقف حاجز أمام تفاعلهم معها وإلى جانب هذه المفردات أضفت للقصة بعض الكلمات الجديدة والمفاهيم والمعلومات التي تتناسب مع القدرات الذهنية للطفل وتبسيطها حتى يتمكن من إدراكها

واستيعابها فحرصت على وصف المكان الذي دارت فيه أحداث القصة وهو الغابة مما تتكون من أشجار و أزهار و حيوانات أيضا إدخال فصل الشتاء و الربيع وذلك قصد التميز بينهما وبين الليل و النهار ،معرفة عدد أيام الاسبوع ،أنواع الحيوانات التي تقفز وتطير وتجري وتزحف حسب الشخصيات الموجودة في القصة هذا بالإضافة الى وجود مفردات تخص الاتجاهات وحجم الأشياء ، يمين يسار، فوق تحت،كبير صغير ،كذلك وجود الألوان بالقصة ، والهدف الرئيسي من ذلك هو إضفاء أسلوب لغوي يكون حيا وجذابا ومشوقا في القصة لكي لا يشعر الأطفال بالملل أثناء عملية العرض الاولى التي تقتصر على الالقاء فقط ،كما اعتمدت على أسلوب التشويق في سرد الأحداث قصد شد انتباه الأطفال أكثر ومساعدتهم على تنمية الخيال لديهم للوصول الى النهاية والتي توجد بها عبرة لكي يتعلم منها الطفل.

من ثم الانتقال إلى إعداد مجموعة من الأسئلة ليتم طرحها في نهاية عرض القصة على الأطفال والتى بها يمكننا أن نقيم كل من اختبارين ،شرعت بتنسيق مع مديرة الروضة و المربين المسؤولين على القسم الذي اخترت فيه العينة المناسبة للبحث بتهيئة الفضاء والجو العام ,تقديم القصة بطريقة الإلقاء فقط للأطفال دون إحساسهم بأنهم محور تجربة .

تقييم الاختبار القبلي:

في مرحلة أولية قبل الخوض في التجربة الميدانية قمت بإعداد مجموعة من الأسئلة مسبقا التي تدور حول أحداث القصة وشخصياتها مع الاطار المكاني و الزماني و الألوان التي وضعتها في شخصية الرئيسية وهي العصفورة حتى أبينها, والهدف من ذلك هو معرفة مدى تفاعل المجموعة في كل اختبار وعند الانتهاء من العرض الذي قمت به سألت الأطفال عن رأيهم في القصة هل أعجبتكم ؟ فاتفق الجميع على الاجابة ب" إي إي إي " فكان هنالك تفاعل ولتأكد من صحة قولهم أكملت طرح عليهم بقية الأسئلة حول المكان الذي دارت فيه القصة أجاب الأغلبية بالغابة بينما الطفل الذي لم يكن ينظر لي أثناء عرض القصة يدعى " ياسين" لم يجب مثل البقية وبنسبة السؤال الذي يخص الشخصيات الموجودة في القصة استطاع 7 أطفال من معرفتهم وتسميتهم بطريقة صحيحة و تقليد الحيوانات التي تجري كالغزالة ،والحيوانات التي تقفز كالأرنب الحيوانات التي تطير العصفورة والفراشة،وحيوانات تزحف الدودة وثعبان بينما بقي طفلين اقترحا حيوانات أخرى كالأسد يجري حلزونة تزحف السلحفاة والبقية لم يجيبوا ،وفي ما يخص الألوان الرئيسية للعصفورة كانت الاجابات مختلفة هناك من استبدل اللون الأزرق والأخضر كما يوجد من لم

يتمكن من الإجابة ،بالنسبة لأيام الأسبوع لم يتفكرعددها أي طفل منهم ،الاختلاف بين فصل الشتاء والربيع عبر كل واحد منهم بطريقته عن الفرق فصل الشتاء بارد ومطر وفصل الربيع دافئ وبه شمس أزهار بينما يوجد طفلين عندما طلبت منهم الاجابة اكتفوا بالسكوت وطفل "ياسين" الذي تحدثت عنه في البداية أجاب عن السؤال بصوت خافت قائلا "الشتاء بارد "بنسبة لإعادة تجسيد أحداث القصة 5 أطفال لم يعرضوا الأحداث بشكل مرتب بل بهم من لم يتذكر الأحداث , إذا إجمالاً حسب ما لاحظته في ما يخص سرد القصة بشكل تقليدي أن ليس جميع الأطفال قد استطاعوا تذكر محتوى ما جاء في القصة وتركيز في تفاصيل التي كانت موجودة بها .

قمنا في الاختبار الأولي بتقييم ردود أفعال الأطفال بعد نهاية عرض القصة عليهم بطريقة الحكواتي والقصد من ذلك هو معرفة ما إن كانت القصة الورقية تنمي مهارات الطفل البصرية قبل أن تظهر القصة الرقمية ولتأكد أكثر عدنا بعد مدة زمنية محددة شهرين حيث قمنا بالاختبار البعدي الذي كان على النحو التالي:

مرحلة الاستعداد للاختبار البعدي:

الإعداد مسبقا لنفس القصة "زوزو المغرورة" لكن في شكل محمل سمعي بصري من خلال الصور والحركة وإضافة الصوت لتصبح بذلك رقمية وجذابة في نفس الوقت بتصميم شخصيات القصة بشكل جيد وإضافة الألوان و المؤثرات الصوتية ،ومن أول مرة ذهبت فيها لروضة الخليل شد انتباهي أنها تفتقر إلى الوسائل التكنولوجية الحديثة يوجد تلفاز صغير فقط هذا ما لحظته مما جعلني أفكر في كيفية عرض القصة الرقمية على شاشة كبيرة ،فبحثت عن آلة العرض الرقمية التي بها تمكنت من إتمام الورشة الثانية في شهر سبتمبر وبعد أن قمت في مرحلة سابقة بوضع الأطفال في الإطار من خلال تهيئة الفضاء بشكل جيد حتى تكون مشاهد القصة ممتعة وعند دخول الأطفال إلى القاعة أول ما شد انتباههم هو الأدوات التي احضرتها معي الحاسوب والمكبرات الصوتية والألة الرقمية وكان معظمهم يتساءلون عنها وبعد الاجابة عن اسئلتهم وتفسير عملية العرض لهم جلس كل واحد في مكانه وبدأ العرض فكانت على ملامح وجوههم الفرح.

القصة الرقمية

تقييم الاختبار البعدي :

لاحظت أن الجميع منتبها ومتمعنا جيدا في مشاهد القصة والتي تتميز بالصوت والصور المتحركة في كل مشهد من القصة لكن هذا لا يمنع أنه هناك البعض من الأطفال يتحدثون مع بعضهم البعض ويتساءلون عن الشخصيات الموجودة أمامهم في الشاشة وعند الانتهاء من العرض طلبوا مني أن أعيدها مرة ثانية وهذا ما يدل أن القصة الرقمية تشد انتباه الأطفال وبعد مشاهدتها للمرة الثانية بدأت بطرح الأسئلة عليهم التي سألتها مسبقا في الاختبار القبلي فقد قمت بكتابتها في أخر القصة الرقمية وكانت ردود الأفعال إيجابية فعند طرح في كل مرة سؤال أصبح الجميع يجيبني بطريقة تفاعلية وفي نفس الوقت فما لاحظته التسابق السرعة في الإجابة وحب التنافس وهذا ما يدل أن القصة الرقمية تساهم في خلق أجواء بين الأطفال تقوم على التنافس وذلك من خلال اكتساب المفاهيم والمفردات بسهولة عن طريق الصوت والصورة التي بقيت راسخة في ذاكرتهم بشكل جيد ولم ينسوا ما عرض عليهم ,و لتجنب الفوضى وحتى اتمكن من معرفة ما اكتسبه الأطفال من القصة الرقمية اتفقنا على احترام بعضنا البعض وكل مرة نعطي الكلمة لأحد منهم بنسبة في ما يخص موقفهم من القصة الكل يتفق بأنها اعجبتهم كثيرا بنسبة لشخصيات القصة استطاع الأطفال معرفة أنواع الحيوانات التي تقفز وتطير وتجري وتزحف بل قام الجميع بتقليدها بشكل جيد أيضا ألوان العصفورة على عكس اختبار الأول لم يتمكنوا من تفكر الألوان الأولية هذه المرة تعرفوا عليها بسرعة فعند ذكر الألوان وضعت كل لون في شكل دائرة حتى يتثبت الأطفال أكثر من الألوان الموجودة أصفر أزرق أحمر وفعلا هذا ما حصل, إذا الصورة بالقصة الرقمية تجعل الطفل منتبه ومتفطن للمعلومة وبنسبة للمكان الذي دارت فيه أحداث القصة الغابة استطاع الأطفال من وصفها بشكل متقن وبالتدقيق وماذا يوجد بها أشجار عالية أزهار الحيوانات البحيرة الكبيرة والصغيرة ,إذا هنا تعرف الأطفال عن كامل التفاصيل الموجودة بالقصة . وعندما سألتهم عن عدد أيام الأسبوع هذه المرة تمكن الجميع من الاجابة ذلك لأني وضعت الأرقام ففي كل مرة نشاهد رقم من 1 إلى 7 يظهر مع الصوت المسجل على الشاشة وهذا ما ساعد الأطفال على العد بكل سهولة خلافا على ذلك قاموا بذكر أسماء أيام الأسبوع من الاثنين إلى الأحد دون أن أطلب منهم ذلك في حين لم يتذكروا أيام الأسبوع في النشاط القبلي تلعب القصة الرقمية هنا دور بارز في جعل

الطفل يتمكن من التفكير في كلمات جديدة ،عبر الأطفال كذلك عن الفرق بين فصل الشتاء والربيع عند مشاهدة المشهد ولم يكتفوا بما شاهدوه في صور بل وصفوا الاختلاف بينهما في نهاية الورشة لاحظت أن التفاعل كان أكثر مع القصة الرقمية فقد شدت إنتباه الأطفال برغم من أنهم يعرفونها من قبل ساهمت بشكل كبير في إثراء المهارات البصرية لديهم من خلال الصور المتحركة والمؤثرات الصوتية .

تفاعل أطفال مع القصة الرقمية

نتائج فرضية البحث وفق التجربة الميدانية :

لمعرفة مدى صحة هذه الفرضية تعرضنا لتحليل مفاهيم ودراسات في الجانب النظري التي تخص القصة كما ارتأيت للقيام باختبارين الاختبار القبلي وتم فيه عرض القصة بطريقة تقليدية في المرة الاولى وبعد مرور شهرين قمت بعرض نفس القصة التي أصبحت رقمية على نفس الفئة المستهدفة من الأطفال وفي نهاية كل ورشة اتضح بصفة عامة أن للقصة أهمية كبيرة كنشاط فني يمارس في رياض الأطفال.

فالقصة وإن اختلفت سواء كانت رقمية أو ورقية فهي تتميز بنفس الأهداف باعتبارها وسيط فني ينمي مهارات الطفل نخص بالذكر المهارات البصرية خاصة وأنهم مقبلون على مرحلة موالية وهي الدخول للمدرسة ،ولكن ما استنتجته من كلا الاختبارين أن القصة الورقية التي تم عرضها على الأطفال لم تساهم بنسبة كبيرة في تنمية الإدراك البصري للأطفال حيث لم يتذكر جميعهم ما يوجد بالقصة حيث تبين أثناء العرض وبعد العرض عدم تجاوب جميع الأطفال مع القصة وفهمها جيدا هنالك من لم يركز معها ومن شعر بالملل ومن لم يتفاعل مع اصدقائه وبنسبة للأسئلة التي قمت بطرحها عليهم فكانت الإجابات مختلفة في كل مرة وهنالك من ليتمكن من إد ا رك بعض

المفاهيم أو تذكر جميع أحداثها كما اكتسب الأطفال كلمات قليلة وبنسبة لسلامة النطق وجدت طفلين في سن 4 سنوات لديهم مشكلة في إخراج الحروف وتكوين الجمل ومن حيث الإصغاء إلى القصة هناك من لم يعر الورشة اهتماما .

أما بالنسبة لقصة الرقمية التي تم عرضها في الاختبار البعدي توصلنا بأنها وسيلة فنية و تربوية قد ساهمت في تنمية المهارات البصرية لدى أطفال الرياض بعد أن قمنا بتجربتها ، فهي تعتمد بالأساس على الصورة والحركة والألوان والأشكال في عرض الأحداث بطريقة جذابة وممتعة. وهذا ما شد انتباه الأطفال وتفاعلهم مع المشاهد المتحركة في القصة والعناصر البصرية المختلفة من الشخصيات والمتمثلة في الحيوانات و الأيام و إطار المكاني و الزماني أيضاً، وما لحظته تتطور قدرتهم على الملاحظة الدقيقة والتركيز أكثر والتمييز بين كافة التفاصيل المتعلقة بالأحداث . إلى جانب ذلك فقد ساعدت الألوان الزاهية والتناسق بين الشكل والحركة على تعزيز الإدراك البصري وتحفيز الخيال و الابداع وذلك من خلال إعادة تجسيد الأحداث بشكل جيد واستعمال مفردات جديدة ، وهذا ما يجعلنا نتبين بأن القصة الرقمية هي أداة فعالة وهامة في تنمية الذكاء البصري والقدرات الإبداعية لدى الأطفال في سنّ ما قبل التمدرس لذلك وجب الاعتماد عليها كوسيط فني في البرنامج الخاص برياض حتى تساعد الطفل من تجنب الوقوع في مشاكل أكاديمية تقف أمامه كعائق في المرحلة الموالية المدرسة .

التوصيات :

لقد كانت لي فرصة كبيرة في هذا البحث إلى التقرب أكثر من العالم الخاص بالأطفال وعلاقته بالقصص الرقمية الحديثة والقصص الورقية المكتوبة التقليدية ،ومن الأجدر التوجه بجملة من التوصيات التي قد تكون في يوم من الأيام منطلقا أو تكملة لبحث أخر

الاعتماد على القصص الرقمية كوسيط فني حديث مع الأطفال في الرياض قصد تنمية مهاراتهم البصرية من خلال الصورة و الحركة و التفاعل وذلك بمساعدة المربين مع العمل على توفير الأدوات الرقمية لعرضها.

عدم التخلي عن القصة الورقية التقليدية نظرا لقلة تكلفتها و لأنها تساعد الطفل على تنمية مهارات اللمس والانتباه للتفاصيل من خلال التركيز في السمع وعند قراءتها يتمكن الطفل من تحسين مهاراته اللغوية و اكتساب مفردات جديدة تساعده في التعبير والنطق السليم .

ضرورة التنويع من الوسائط التعليمية في كافة المؤسسات التربوية بين ما هو ورقي ورقمي وذلك قصد تلبية إحتياجات الأطفال المختلفة ودعم مهاراتهم البصرية والمعرفية .

تحفيز المربين والمعلمين على استخدام القصص الرقمية بطريقة تربوية تكون موجهة للفئة العمرية المستهدفة .

مع تطور الوسائل التكنولوجية الحديثة وظهور الذكاء الاصطناعي في الأونة الأخيرة يمكن للمربين والقائمين على المؤسسات التربوية بما في ذلك رياض أطفال تشريك الأطفال في ورشات تعمل على إعداد القصص الرقمية من خلال برامج خاصة حتى يشعر الطفل بأنه جزء من العملية التعليمية في أجواء جديدة

ضرورة القيام بدراسة أعمق حول مدى تعلق الطفل بالقصص الرقمية الحديثة والتثبت من مزاياها مع

مجموعة أكبر وفي أكثر من مؤسسة تربوية.

الخاتمة :

إن البحث الذي قمنا بإنجازه يفرض علينا الوقوف على خلاصة علمية تقودنا إلى نتائج توصلنا اليها بكل موضوعية وشفافية وهذا ما يجعلنا نعالج دراستنا بمناهج علمية، معتمدين في ذلك على المنهج التجريبي ومستخدمين تقنية المحادثة كوسيلة منهجية وأداة إجرائية للوصول الى حقائق متعلقة ببحثنا المدروس متخذين بذلك عينة تجريبية واحدة تتكون من 12 طفل منقسمين إلى 3 اناث و 9 ذكور . ولعل هذه المعالجة الأكاديمية الممارسة على الجانب الميداني تجعلنا نقف على حقيقة ،مفادها أن القصة الرقمية تنمي

المهارات البصرية والخيال الإبداعي للأطفال الرياض.

ويمكننا القول أن القصة الرقمية تؤثر على الأطفال وذلك بجلب اهتماماتهم وتحفيزهم على المتابعة والانتباه بأكثر دافعية فهي مزيج يجمع بين سيناريو القصة مع مكونات الوسائط المتعددة الرقمية النص، الصوت، الصورة، الرسوم المتحركة، في شكل فيديو ينتج باستخدام برامج التأليف الحاسوبية قابلة لتطوير أكثر مع الذكاء الاصطناعي اليوم .

وتعتبر القصة الرقمية أيضا وسيط فني حديث ينمي المهارات البصرية عند الطفل، بل يتعدى ذلك لتصبح لديه طلاقة لغوية، أي القدرة على التواصل و التعبير أكثر عن ما تراه عيناه إذ تحتل الصورة أهمية كبيرة باعتبارها أداة يتذكر بها الطفل ما يشاهده فترسخ بذلك في ذهنه الأفكار ويصبح قادر على التمييز في ما بينها وحفظها بسهولة وهذا ما قامت به القصة الرقمية خلال الاختبار البعدي .

كما تعمل القصة الرقمية على تنمية خيال الطفل وتوفر له جو مليء بالمتعة والترفيه، فهي تسهل انتقال المعلومات من خلال استخدامها للوسائط المتعددة وتثير فضول الطفل وتحفز قدراته الإدراكية والمعرفية وخاصة منها البصرية بواسطة الصورة والحركة .

المراجع:

- الزهراني ،سلطان .2020.استراتيجيات التدخل المبكر .دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع عمان -الأردن .ص 5
- عبد الفتاح الهنيدي ،د .منال . 2016.الأنشطة الفنية لطفل الروضة .توزيع عالم الكتب القاهرة .ص 14 .

www.alukah.net

- نجم ،محمد يوسف ،2017.فن القصة .دار بيروت للطباعة والنشر .ص 9
- د . حافظ محمد الشمري، الأدب الرقمي بين ضبابية العولمة وتداعيات المشهد الثقافي، مركز الكتاب الأكاديمي، ص 26

-https://research.com/education/digital-storytelling

- نفس المصدر السابق
- خبوش، إ.، & عمراين، ز. (بدون سنة). تنمية الإدراك البصري لدى فئة أطفال التوحد من خلال برنامج علاجي مقتبس من برنامج "تيتش". مجلة القبس للدراسات النفسية والاجتماعية، ص.13

https://miota.org/docs/Assessment_and_Intervention_of_Visual_Perception_and_Co

-gnition

Anderson, C. (2024, October 9). *What is visual processing?*. Neuroscience and

-Psychology Terms

الدو افع الأمنية للتعاون السيبر اني بين دول البحر الأبيض المتوسط في ظل تصاعد الحروب والجر ائم السيبر انية (2020–2025)

عبد الصماد باحفيض

باحث بسلك الدكتورة

الكلية متعددة التخصصات، جامعة محمد الاول - الناظور

يشهد العصر الرقمي تحولاً جذرياً في البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للدول، حيث لم يعد الفضاء السيبراني مجرد امتداد تقني مكمل، بل أصبح يشكّل جزءاً حيوياً لا يتجزأ من البنية التحتية الوطنية الحيوية. ومع تعاظم الاعتماد على التكنولوجيا في شتى المجالات، تتنامى بالمقابل التهديدات المرتبطة بالأمن السيبراني، ما يفرض على الدول تحديات جديدة ومعقدة تتجاوز الأطر التقليدية للحماية والردع.

أضحت البنى التحتية الحيوية مثل شبكات الطاقة والمياه، وأنظمة النقل، والاتصالات، والخدمات الصحية هدفاً مباشراً للهجمات السيبرانية، التي لم تعد تقتصر على الإرباك أو التخريب، بل قد تمتد إلى المساس بأمن الدولة واستقرارها الداخلي. وفي هذا الإطار، ظهرت "الحرب السيبرانية" كواقع جديد يعيد تشكيل مفهوم الصراع، حيث تؤدي المعلومات دوراً محورياً كسلاح ناعم يستعمل للتأثير السياسي والاقتصادي وحتى العسكري، سواء من قبل دول أم فواعل غير دولية.

وفي ضوء هذا الواقع المعقد، يبرز الفضاء السيبراني في منطقة البحر الأبيض المتوسط كمساحة استراتيجية للتفاعل الأمني، إذ تواجه دول هذه المنطقة تهديدات مشتركة عابرة للحدود، ما يجعل من التعاون الإقليمي في المجال السيبراني ضرورة أمنية لا خياراً. ومع ذلك، تظل جهود التعاون بين هذه الدول محدودة، إما بسبب تفاوت القدرات التقنية والمؤسساتية، وإما نتيجة غياب إطار تنسيقي فعّال قادر على مواكبة حجم التهديدات وتعقيداتها.

وعليه، **فما الدوافع الأمنية الحتمية التي تفرض على دول المتوسط ضرورة تعزيز التعاون الأمني السيبراني فيما بينها؟ وما أبرز التحديات التي تعرقل تحقيق هذا التعاون بشكل فعّال في مواجهة التهديدات السيبرانية المتزايدة؟**

للإجابة عن هذه الإشكالية سنقسم هذه الدراسة على مطلبين:

المطلب الأول: الحروب السيبرانية كتهديد مشترك يستوجب تعاوناً سيبرانياً إقليمياً في منطقة المتوسط

المطلب الثاني: تصاعد الجرائم السيبرانية بين الدول المتوسطية: دافع نحو التعاون الأمني السيبراني

المطلب الأول: الحروب السيبرانية كتهديد مشترك يستوجب تعاوناً سيبرانياً إقليمياً في منطقة المتوسط

في السنوات الأخيرة، تطورت الحروب السيبرانية لتصبح جزءاً لا يتجزأ من الصراعات الدولية، حيث تستعمل الهجمات السيبرانية كأداة استراتيجية في النزاعات بين الدول. في منطقة البحر الأبيض المتوسط، التي تعد مسرحاً للعديد من الأزمات الجيوسياسية، لا تقتصر الهجمات السيبرانية على الهجمات العشوائية، بل تتخذ أبعاداً استراتيجية تهدف إلى إضعاف الخصم، وتجميع المعلومات الاستخباراتية، أو حتى التأثير في العمليات العسكرية. هذه الهجمات قد تشمل استهداف أنظمة الدفاع والطاقة أو مهاجمة أنظمة الاتصال العسكرية؛ لشل قدرة الدولة على اتخاذ قرارات سريعة أو التواصل مع قواتها. مما يُظهر الدور المتزايد الذي تؤديه الحروب السيبرانية في التنافس الإقليمي. هذه التطورات تستدعي توحيد الجهود الأمنية بين دول البحر الأبيض المتوسط لصد الهجمات المعقدة، ومواجهة التهديدات السيبرانية التي تتسم بالسرعة والقدرة على الانتشار العابر للحدود.

كما أن هناك خصوصية رئيسة لهذا الشكل الجديد من الحروب متمثلة في أن الحرب السيبرانية تحدث في الفضاء السيبراني، وبالرغم من عدم تحقيقها في منطقة جغرافية محددة، ولكن يمكن أن تحدث عدم الاستقرار الجيوسياسي. ففي هذا النوع من الحرب تعد السيطرة على المعلومات

ذات أهمية كبرى. وعليه فتميل الدول المتقدمة تكنولوجيا إلى السيطرة على الفضاء السيبراني. لذلك مع تزايد نقاط ضعف الدول أمام الحرب السيبرانية فإن التدابير ضرورية لصد مختلف الهجمات[1].

في العصر الحديث، حيث تتسارع التطورات التقنية وتزداد الاعتمادية على الفضاء السيبراني، أصبحت "الحرب السيبرانية" أحد أبرز وأهم أدوات الصراع بين الدول. حيث لم تعد الحروب تقتصر على المواجهات العسكرية التقليدية، بل دخلت المعلومات في قلب الصراعات العالمية، لتصبح سلاحاً ذا تأثير بالغ في الاستراتيجيات السياسية والأمنية. وتحولت المعلومات إلى قوة حقيقية يمكن استعمالها لتحقيق مكاسب استراتيجية أو لزعزعة استقرار الدول.

على الصعيد ذاته، أصبحت "سرقة المعلومات والبيانات العسكرية" أو التلاعب بها من أخطر الأساليب المستعملة في الحروب الحديثة. في هذا السياق، لم يعد الحديث عن الحرب التقليدية أو عن الصراع في ميادين القتال فقط، بل أصبح من الممكن أن تؤدي عملية اختراق واحدة إلى تسريب معلومات حيوية قد تؤثر بشكل مباشر في خطط الدفاع أو التوازن العسكري بين الدول. ويمكن للمتسللين في هذه الحالة التلاعب بالمعلومات بشكل يزيد من قوة طرف على حساب الآخر، أو حتى تغيير مجريات الصراع عن طريق ضرب نقاط ضعف غير مرئية **(الفقرة الأولى)**.

وفي هذا الإطار، أصبحت "جمع المعلومات الاقتصادية الاستخباراتية" أحد الأبعاد الأساسية في الحروب الحديثة، لا سيما في الأوقات التي يتقاطع فيها الاقتصاد مع الأمن القومي. فالمعلومات الاقتصادية أصبحت جزءا لا يتجزأ من استراتيجيات الدول في سعيها إلى الحفاظ على قوتها ونفوذها العالمي. واستعمال الاستخبارات الاقتصادية يشمل التلاعب بالأسواق، أو الوصول إلى معلومات حساسة حول الموارد الطبيعية، والشركات الكبرى، أو حتى استراتيجيات التنسيق بين الدول. هذه البيانات تُعد بمنزلة ثروة حيوية يمكن أن تُسهم في بناء مواقف اقتصادية قوية أو إضعاف الدول المنافسة **(الفقرة الثانية)**.

الفقرة الأولى: سرقة المعلومات والبيانات العسكرية أو التلاعب بها في دول البحر الأبيض المتوسط

---

[1] حسن قوادرة ، منى كحلوش، "التداعيات الاقتصادية لحرب المعلومات السيبرانية"، مقال منشور بمجلة الناقد للدراسات السياسية، العدد 1، 2021/04/30، ص 210.

تُعد سرقة المعلومات والبيانات العسكرية أو التلاعب بها أحد أبرز صور الحروب السيبرانية التي تُهدد الأمن الإقليمي لدول البحر الأبيض المتوسط. وتتمثل خطورة هذا النمط من الهجمات في كونه لا يستهدف مجرد التجسس أو جمع المعلومات، بل يتجاوز ذلك إلى التلاعب بالبيانات أو تدميرها إلكترونياً، ما قد يؤدي إلى شلل الأنظمة الدفاعية والعسكرية، وإحداث حالة من الفوضى الاستراتيجية.

كما يكون توظيف قراصنة محترفين أو جيوش نظامية إلكترونية ووكلاء سيبرانيين للقيام بشن هجمات سيبرانية بغرض السيطرة على نظم القيادة والسيطرة عن بعد، الأمر الذي يؤدي إلى إخراج بعض منظومات الأسلحة عن سيطرة القيادة المركزية، وإعادة توجيهها نحو أطراف داخلية أو ضد دول صديقة، كما يمكن أيضا السيطرة على الطائرات من دون طيار أو الغواصات النووية في أعماق البحار، أو السيطرة على الأقمار الصناعية العسكرية في الفضاء الخارجي وإخراجها عن سيطرة الدولة التابعة لها هذه الأسلحة والمعدات، إذ تزداد خطورة مثل هذه الهجمات إثر التطور التكنولوجي واعتماد اللوجستيات ونظم القيادة والتحكم وتحديد الأهداف، وإصابتها على برامج الكمبيوتر وشبكات الاتصال[2].

كما تقوم الهجمات السيبرانية بتدمير أنظمة إلكترونية لمنشآت حيوية عسكرية، وتعطيل شبكات الدفاع العسكرية أو إتلافها عن بعد، والاختراق أو التعطيل أو التدمير لشبكات القطاع الخاص ذي الصلة بالقطاع العسكري، وكذا التدخل في سلامة البيانات العسكرية الداخلية لدول أخرى، والقيام بمحاولات الإرباك والتشويش على أجهزتها[3].

في هذا السياق، شهدت تركيا في العقد الأخير محاولات مستمرة لاختراق شبكاتها الدفاعية، وهو ما دفعها إلى إنشاء وحدة سيبرانية خاصة تحت مظلة القوات المسلحة. كما أن الهجوم الذي تعرضت له منشآت الجيش الإيطالي في عام 2021 أدى إلى فقدان مؤقت للسيطرة على بعض أنظمة

---

[2] **إيهاب خليفة**، "تنامي التهديدات السيبرانية للمؤسسات العسكرية"، مجلة اتجاهات الأحداث، ع. 22 جويلية/ أوت 2017، ص. 3.

[3] **أميرة عبد العظيم محمد عبد الجواد**، المخاطر السيبرانية وسبل مواجهتها في القانون الدولي العام، مجلة الشريعة الإسلامية، العدد 35، الجزء 3، 2020، ص373- 374.

الاتصالات الداخلية، وهو ما أبرز ضعف التنسيق الإقليمي في مواجهة هذه النوعية من الهجمات[4].

كما أن الهجمات السيبرانية لا تستهدف الأنظمة العسكرية المباشرة فقط، بل تمتد إلى البنية التحتية الحيوية ذات الصلة بالأمن القومي، مثل شبكات الطاقة، والاتصالات، والنقل، وحتى المنشآت الصحية والمصرفية. وتظهر خطورة هذه الهجمات في قدرتها على شلّ حركة الدولة بالكامل دون إطلاق رصاصة واحدة، كما حدث في الهجوم السيبراني الذي ضرب شبكة الطاقة الكهربائية في أوكرانيا في 2015، والذي يُعد نموذجاً تسترشد به وحدات إلكترونية في منطقة المتوسط[5].

وتستعمل هذه الهجمات في أحيان كثيرة لتوجيه عمليات عسكرية خاطئة، أو لتسريب معلومات مضللة بهدف تشتيت القيادة العسكرية، أو حتى إرباك نظم الردع والدفاع المبكر .وقد وثقت حالات في دول مثل اليونان وتونس، حيث جرى تسريب بيانات عسكرية دقيقة على الإنترنت بعد اختراق خوادم رسمية، ما شكل خطراً كبيراً على أمن القوات المنتشرة في مناطق نزاع أو حدودية.

وقد أظهرت التجارب أن خطورة هذه الهجمات تزداد بسبب اعتماد الأنظمة الحديثة على برمجيات معقدة مرتبطة بشبكات الاتصال والذكاء الاصطناعي، مما يجعل التحكم الكامل في الأنظمة العسكرية مهدداً في أي لحظة عبر هجوم تقني منسق. إذ يمكن لقراصنة التحكم عن بُعد في طائرات بدون طيار أو تعطيل الأقمار الصناعية أو التلاعب بأنظمة الملاحة العسكرية، كما حدث في هجوم سيبراني استهدف شبكة الأقمار الصناعية KA-SAT التابعة لشركة Viasat ، والذي أثر حتى في عمليات عسكرية في أوروبا الشرقية[6].

بالنظر إلى تنامي التهديدات السيبرانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، بات من الضروري على دول الإقليم تعزيز التعاون الأمني السيبراني المشترك، عن طريق إرساء آليات فعالة لتبادل المعلومات الاستخباراتية ذات الصلة، وتوحيد المعايير والبروتوكولات التقنية، إلى جانب اعتماد برامج تدريب وتكوين متبادل بين الكفاءات الوطنية. فهذه التهديدات العابرة للحدود لا يمكن مواجهتها بواسطة استراتيجيات وطنية منفردة، نظراً إلى طبيعتها المعقدة وسرعة انتشارها.

---

(4) European Union Agency for Cybersecurity (ENISA). (2021). *ENISA Threat Landscape Report 2021*. Retrieved from: https://www.enisa.europa.eu date of access march 20, 2025, on the watch 16:55.

(5) NATO Cooperative Cyber Defence Centre of Excellence (CCDCOE). (2021). *Cyber Threats and Responses in Europe*. Retrieved from: https://ccdcoe.org date of access June 13, 2025, on the watch 10:30.

(6) Singer, P. W., & Friedman, A. (2014). *Cybersecurity and Cyberwar: What Everyone Needs to Know*. Oxford University Press.

ومن هذا المنطلق، يتعين إدراك أن أي دولة بمفردها، مهما بلغت قدراتها، لن تكون قادرة على التصدي الفعال لهذه التحديات دون الانخراط في تنسيق إقليمي محكم؛ لذا يصبح من الضروري إرساء منظومة جماعية للأمن السيبراني تشمل تبادل المعطيات في الوقت الحقيقي، وتوحيد إجراءات التصدي للهجمات، وتطوير ردود فعل سريعة وفعالة. وتشير تقارير مراكز بحثية مرموقة، مثل مركز التميز للدفاع السيبراني التعاوني التابع لحلف شمال الأطلسي (NATO CCDCOE, 2021)، إلى أن التعاون الإقليمي بين دول المتوسط يُسهم في تقليص الثغرات الأمنية، ويزيد من القدرة على اكتشاف الهجمات في مراحلها المبكرة، مما يحد من تأثيراتها السلبية ويوفر استجابة أكثر نجاعة[7].

الفقرة الثانية: جمع معلومات اقتصادية استخباراتية

ويتحقق عن طريق اختراق قواعد البيانات المالية والمصرفية وقواعد بيانات الشركات والبنوك وجمع المعلومات التي قد تؤثر في الأمن الوطني للدول، وكذلك عن طريق التجسس على المسؤولين الماليين ووزراء المالية ورؤساء الشركات الكبرى.

على سبيل المثال، تعرضت بعض الموانئ الأوروبية في المتوسط لهجمات سيبرانية تسببت في تعطيل حركة الشحن وزعزعة استقرار التجارة الدولية. كذلك، أظهرت التقارير أن العديد من الأنظمة المالية في دول البحر الأبيض المتوسط كانت هدفاً لهجمات تهدف إلى سرقة البيانات المالية أو تعطيل عمليات التحويلات المصرفية. هذه الجرائم السيبرانية العابرة للحدود تُظهر الحاجة الملحة إلى التعاون الأمني المشترك بين دول المنطقة، حيث لا يمكن لدولة واحدة مواجهة هذه التهديدات بمفردها. التعاون الأمني السيبراني بين دول البحر الأبيض المتوسط يصبح ضرورة ليس للتصدي لهذه الهجمات فقط، بل أيضاً لتبادل المعلومات الاستخباراتية، والوقاية من التهديدات المستقبلية، وترسيخ قدرة الدول على الاستجابة السريعة والفعّالة في حال وقوع الهجمات.

ومن ثم فالحروب السيبرانية صراع يستخدم معاملات أو هجمات معادية غير قانونية على الحواسيب والشبكات في محاولة لتعطيل الاتصالات، وغيرها من البنى التحتية، كإلحاق الضرر الاقتصادي، والسياسي وكذا العسكري، حيث تشمل الأسلحة السيبرانية المستعملة من أجل

---

[7] NATO Cooperative Cyber Defence Centre of Excellence (CCDCOE). (2021). *Cyber Threats and Responses in Europe*. Retrieved from: https://ccdcoe.org date of access Juillet 10, 2025, on the watch 11:15.

تحقيق الأهداف الجيوسياسية مجموعة كبيرة من الأدوات، مثل تلك المتعلقة بالمراقبة، أو التجسس، أو التضليل، أو الهجمات المدمرة[8].

وعلى هذا فيمكن عد تحدي الأمن السيبراني[9] أعلى تحديات الأمن الوطني في القرن الواحد والعشرين، مع الإشارة إلى أن المفهوم الحديث للأمن لا يقتصر على الجوانب العسكرية فقط، بل يواكب كل التهديدات والتحديات التي يمكن أن تشكل حجر عثرة أمام الاقتصاد الرقمي وتدفق المعرفة، فقد أسقطت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات مفهوم الحدود الجغرافية بين الدول مما يضع السيادة الوطنية على المحك، لاسيما مع اختراق المواقع الحكومية الرسمية والتجسس المعلوماتي على الدول[10].

ومما سبق ذكره، يمكن القول إن المجال السيبراني قد دخل ضمن المحددات الجديدة للقوة وأبعادها من حيث طبيعتها وأنماط استعمالها، بل وأيضا طبيعة الفاعلين وهو ما كان له انعكاس على قدرات الدول وعلاقاتها الخارجية، وأضفى خصائص جديدة للقوة والتي تمتد لتشمل الوسائل والطاقات والإمكانات المادية وغير المادية كافة، المنظورة وغير المنظورة التي بحوزة الدول، ويستعملها صانع القرار في فعل مؤثر يحقق مصالح الدولة، بما سيؤثر به في سلوك الوحدات السياسية الأخرى، فالعلاقة بين الأمن السيبراني والأمن الوطني تزداد كلما زاد نقل المحتوى المعلوماتي والعسكري، والأمني، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والفكري، والخدمي العلمي والبحثي إلى الفضاء السيبراني، لاسيما مع تسارع الدول في تبني الحكومات الإلكترونية والمدن الذكية في العديد منها، واتساع نطاق وعدد مستخدمي الأنترنت في العالم، مما أدى إلى أن تكون قواعد البيانات الوطنية في حالة انكشاف خارجي، فضلاً عن حملات الدعاية والمعلومات المضللة ونشر الشائعات أو الدعوة لأعمال تحريضية أو دعم المعارضة أو الأقليات، مما يسهم في تلاشي سيادة الدولة ويشكك في قدرتها على الحفاظ على أمنها الوطني[11].

---

[8] **علاء الدين فرحات**، "الفضاء السيبراني: تشكيل ساحة المعركة في القرن الحادي والعشرين" مجلة العلوم القانونية والسياسية، 2019، ص 98.

[9] **مصطفى إبراهيم سلمان الشمري**، الأمن السيبراني وأثره في الأمن الوطني العراقي، مجلة العلوم القانونية والسياسية، العدد الأول، المجلد العاشر، 2021، ص: 158 – 159.

[10] **أميرة عبد العظيم محمد عبد الجواد**، مرجع سابق، ص: 374-375.

[11] **أميرة عبد العظيم محمد عبد الجواد**، مرجع سابق، ص ص. 434 – 435.

ومما سبق ذكره، يمكن القول إن المجال السيبراني قد أصبح أحد المحددات الجديدة للقوة والنفوذ في العلاقات الدولية، لاسيما في منطقة البحر الأبيض المتوسط التي تشهد تداخلاً كثيفاً في المصالح والنزاعات الجيوسياسية. هذا الفضاء، غير الخاضع لحدود جغرافية، أفرز نمطاً جديداً من الصراعات بين دول المتوسط، يعرف بالحروب السيبرانية، حيث يكون استهداف البنى التحتية الحيوية وقواعد البيانات السيادية، ونشر الشائعات والدعاية الموجهة، والتدخل في الشؤون الداخلية عبر الأدوات الرقمية. ومع ازدياد رقمنة المحتوى العسكري والأمني والسياسي، تصبح السيادة الوطنية مهددة بالاختراق، والتآكل في حال غياب أنظمة دفاع إلكترونية قوية.

وقد شهدت المنطقة في السنوات الأخيرة مؤشرات واضحة على هذا النوع من الصراع، عن طريق محاولات اختراق منصات حكومية في دول مثل اليونان، وقبرص، والمغرب، والجزائر، وإيطاليا، واتهامات متبادلة بين أطراف إقليمية بتدبير أو تمويل عمليات تجسس سيبراني وهجمات سيبرانية. وهو ما يجعل التعاون الأمني السيبراني بين دول المتوسط أمراً حتمياً لا خياراً، سواء عن طريق تبادل المعلومات الاستخباراتية حول الهجمات، أو تنسيق الردود، أو حتى وضع قواعد إقليمية لضبط هذا النوع من الحروب، التي إن تُركت دون تنظيم، قد تؤدي إلى توترات سياسية حادة أو صراعات مفتوحة يصعب احتواؤها.

المطلب الثاني: تصاعد الجرائم السيبرانية بين الدول المتوسطية: دافع نحو التعاون الأمني السيبراني

تواجه دول البحر الأبيض المتوسط في السنوات الأخيرة تصاعداً ملحوظاً في الجرائم السيبرانية، حيث أصبحت هذه الدول عرضة لهجمات تستهدف قطاعاتها الحيوية مثل الموانئ، والبنوك، وشبكات الطاقة، والاتصالات. هذا التصاعد يعود جزئياً إلى النمو السريع في الاعتماد على الأنظمة الرقمية في جميع المجالات، مما يزيد من فرص تعرض هذه الأنظمة للهجمات الإلكترونية. وتأتي الجرائم السيبرانية في أشكال متعددة، مثل الاختراقات الأمنية، والبرمجيات الخبيثة، والتصيد الاحتيالي، والهجمات باستعمال برامج الفدية، التي تُعطل الأعمال وتضر بالاقتصاد الوطني.

في هذا الإطار، أشارت التقارير الحديثة إلى تصاعد ملحوظ في الجرائم السيبرانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط في السنوات الخمس الأخيرة (2020–2025)، لاسيما في دول ذات مواقع جيوسياسية حساسة مثل تركيا، اليونان، والمغرب. وعلى وفق تقرير صادر عن شركة "جروب-آي

بي"، تمثل تركيا 9.9% من إجمالي الهجمات السيبرانية في المنطقة، في حين يُستهدف المغرب بشكل متزايد، وبخاصة في مجالات الاحتيال الوظيفي، حيث يُستدرج الباحثون عن عمل بعروض توظيف وهمية عبر الإنترنت[12].

يُعزى هذا التصاعد إلى عوامل عديدة، أبرزها تسارع التحول الرقمي في المنطقة، مما يزيد من تعرض البنية التحتية الرقمية للهجمات. علاوة على ذلك، يُلاحظ أن الجماعات الإجرامية والإرهابية تستغل الفضاء السيبراني كوسيلة فعالة لتحقيق أهدافها، مثل استقطاب الشباب عبر المنصات الرقمية أو تمويل أنشطتها باستعمال العملات المشفرة[13].

كما جاء أيضا في بعض التقارير إلى تصاعد كبير لهذه الظاهرة الإجرامية على مستوى العالم، حيث أصبحت تُعد من أخطر وأعلى التهديدات تكلفة في العصر الرقمي. وبحسب تقرير رسمي للجرائم السيبرانية لعام 2022، فإن حجم التهديد السيبراني قد تضاعف بشكل كبير في السنوات القليلة الماضية، مما يعكس تزايد تعقيد هذه الجرائم وانتشارها عبر الحدود.

حيث تشير الإحصائيات إلى أن تكلفة مكافحة الجريمة السيبرانية تصل إلى ما يقارب 8 تريليونات دولار سنوياً، أي ما يعادل 667 مليار دولار شهرياً، و154 مليار دولار أسبوعياً، و21.9 مليار دولار يومياً، وحوالي 913 مليون دولار في الساعة، و15.2 مليون دولار في الدقيقة، و255 ألف دولار في الثانية[14]. في هذا السياق، يصبح التعاون الأمني السيبراني بين الدول ضرورة ملحة لمواجهة هذه التحديات المشتركة.

في المحصلة، فإن تصاعد الجرائم السيبرانية في البحر الأبيض المتوسط يشكل تحدياً مشتركاً أمام دول المنطقة، لا سيما في ظل تنامي التهديدات المرتبطة بالإرهاب السيبراني **(الفقرة الأولى)**، والجريمة المنظمة العابرة للحدود **(الفقرة الثانية)**. وبناء على ما سبق تعد هذه الأفعال الإجرامية

---

[12] **ياسين التازي**، " تقرير يكشف عن تزايد الاحتيال الرقمي والهجمات السيبرانية في المغرب"، مقال منشور بموقع بلبيريس، بتاريخ 19 ديسمبر 2024، على الساعة 00:23، متاح على الرابط التالي، https://www.belpresse.com، تاريخ الاطلاع 10 ماي 2025، على الساعة 14:45.

[13] **عادل عبد الصادق**، "التعاون الرقمي في المتوسط بين الفرص والتحديات وافاق المستقبل"، مقال منشور بالموقع الرسمي للمركز العربي لأبحاث الفضاء الالكتروني، بتاريخ 19 أكتوبر 2024، على الساعة 09:06. متاح على الرابط التالي: https://accronline.com، تاريخ الاطلاع 10 ماي 2025، على الساعة 15.34.

[14] **خالد محمود**، " عن الجرائم الالكترونية ظاهرة عالمية"، مقال منشور بموقع العربي الجديد، تاريخ 5 أكتوبر 2023، بدون ذكر الساعة، متاح على الرابط التالي: https://www.alaraby.co.uk، تاريخ الاطلاع 10 ماي 2025، على الساعة 16: 00.

من أهم الدوافع الموضوعية التي دفعت بدول البحر الأبيض المتوسط إلى الاعتماد على التعاون الأمني السيبراني كآلية لتحقيق الأمن السيبراني.

الفقرة الأولى: جرائم الإرهاب السيبراني كدافع للتعاون الأمني السيبراني

يعرف الإرهاب السيبراني **Cyberterrorism** بأنه أحد المفاهيم الحديثة في ميدان الأمن السيبراني، وهو ما دفع بالمهتمين بهذا المجال لمحاولة وضع تعريف لمصطلح ما زال غير محدد في شكله التقليدي، ومن التعريفات القابلة للتوافق، نذكر ما جاء به جيمس لويس James Leuiss، خبير في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بالولايات المتحدة الأمريكية الذي يعرفه بأنه **"استخدام أدوات شبكات الحاسوب في تدمير أو تعطيل البنى التحتية الوطنية المهمة مثل الطاقة والنقل، أو بهدف ترهيب الحكومة والمدنيين"**[15]. كما عرفت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية جريمة الإرهاب السيبراني بأنه **" أي هجوم تحضيري ذي دوافع سياسية موجهة ضد نظم معلومات الكمبيوتر، والبيانات والمعلومات التي تنتج من عنف ضد الأهداف المدنية عن طريق جماعات دون قومية أو عملاء سريين"**[16].

وفي الصدد نفسه يرى بعض الباحثين أن جريمة الإرهاب السيبراني هي **" تلك الجريمة التي تقوم بالأساس على استعمال الموارد المعلوماتية، المتمثلة في شبكات المعلومات وأجهزة الكمبيوتر وشبكة الانترنت، فبدون هذه المواد لا يمكن للمجرم الإرهابي السيبراني أن يحقق غايته، كما لا يمكننا الحديث عن جريمة إرهابية سيبرانية، إلا إذا كانت تتجه هذه الغاية إلى شن هجمات ضد نظم معلوماتية أو الاعتماد على الشبكات والمعلومات وتخزينها من أجل استغلال وتخويف أو إكراه حكومة معينة أو فئة محددة، كما ينبغي أن يهدف هذا الهجوم للمس بالنظام العام"**[17].

ولقد عرفت السنوات الأخيرة، منطقة البحر الأبيض المتوسط تصاعداً ملحوظاً في الهجمات الإرهابية السيبرانية، حيث استهدفت جماعات متطرفة دولاً عديدة في المنطقة، مما أبرز الحاجة

---

[15] **Alix Desforges :** « cyber terrorisme : quel périmètre ? », fiche de l'Irsem n° 11, 2011, p. 03.

[16] **عادل صادق:** "استخدام الإرهاب الالكتروني في الصراع الدولي"، دار الحديث، القاهرة، 2015، ص 104.

[17] **صفية لكطيطي**، "الامن السيبراني دراسة مقارنة"، مطبعة دار السلام للنشر، الطبعة الأولى 2025، ص: 61-62.

الملحة إلى تعزيز التعاون الأمني السيبراني بين هذه الدول. فيما يلي أبرز الوقائع المتعلقة بهذه الهجمات:

في هذا الصدد، ألقت الشرطة الإسبانية القبض على ثلاثة قراصنة إلكترونيين يُشتبه في ولائهم لروسيا، بتهمة تنفيذ هجمات إلكترونية استهدفت إسبانيا وعدداً من الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي (الناتو). وقد مست هذه الهجمات مؤسسات حكومية وبنى تحتية حيوية، من بينها مواقع إلكترونية تابعة لوزارات وهيئات عامة، وذلك باستعمال تقنيات من بينها هجمات حجب الخدمة الموزعة (DDoS)[18].

كما شنّت مجموعة قراصنة موالية لروسيا تُدعى "NoName057(16)" هجوماً إلكترونياً على قرابة عشرة مواقع رسمية في إيطاليا، بما في ذلك مواقع وزارة الخارجية ومطارات ميلانو. تمكنت الوكالة الوطنية للأمن السيبراني الإيطالية من الحد من تأثير الهجوم في ساعتين، دون التأثير في حركة الطيران. أما في يناير 2025، استهدفت المجموعة نفسها مواقع إلكترونية لبنوك وشركات إيطالية، بما في ذلك "إنتيسا سان باولو" و"مونتي دي باشي"، علاوة على موانئ تارانتو وتريستي، مما أدى إلى تعطيل مؤقت لبعض الخدمات[19].

بينما تعرضت ألبانيا لهجوم إلكتروني واسع النطاق من مجموعة تُدعى"HomeLand Justice" ، يُعتقد أنها مرتبطة بإيران. أدى الهجوم إلى تعطيل مواقع وخدمات حكومية، مما دفع ألبانيا إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إيران في سبتمبر من العام نفسه[20]. وفي أبريل 2015، تعرضت قناة "TV5Monde"الفرنسية لهجوم إلكتروني من مجموعة تُدعى"CyberCaliphate" ، المرتبطة بتنظيم الدولة الإسلامية .أدى الهجوم إلى تعطيل البث التلفزيوني لمدة تجاوزت ثلاث ساعات، واختراق حسابات وسائل التواصل الاجتماعي للقناة، ونشر رسائل مناهضة للسياسات الفرنسية في الشرق الأوسط[21].

---

[18] https://www.reuters.com/technology/cybersecurity/three-pro-russian-hackers-arrested-spain-over-cyberattacks-

[19] New cyber attacks target Italian banks, companies, https://www.ansa.it date of access April 12, 2025, on the watch 16:00.

[20] **أنظمة الخدمات الحكومية في ألبانيا تتعرض لهجوم إلكتروني جديد وتير انا تتهم إيران بالوقوف وراءه**، مقال منشور بموقع فرانس 24، بتاريخ 10/09/2022، على الساعة 21:34، متاح على الرابط التالي: https://www.france24.com/ar تاريخ الاطلاع 17/03/2025، على الساعة، 00:56.

[21] **Don Melvin and Greg Botelho**, Cyberattack disables 11 French TV channels, takes over social media sites, Updated 3:56 PM EDT, Thu April 9, 2015. https://edition.cnn.com. date of access June 28, 2025, on the watch 10.00.

وفي هذا الصدد، تعتمد الجماعات الإرهابية على تقنيات رقمية لغسل الأموال وتمويل أنشطتها. تشمل هذه التقنيات استعمال العملات الرقمية، وتحويل الأموال عبر الإنترنت، وإنشاء شبكات مالية غير رسمية. في عام 2018، كشفت تقارير عن استعمال تنظيم داعش لعملات رقمية مثل "بيتكوين" في تمويل عملياته، مما صعّب من تتبع الأموال وتحويلها عبر الحدود.[22]

وعليه تُظهر هذه الوقائع أهمية تعزيز التعاون الأمني السيبراني بين دول البحر الأبيض المتوسط، لمواجهة الجرائم الإرهابية السيبرانية التي تستهدف البنية التحتية الحيوية والمؤسسات الحكومية والأفراد. كما يُعد تبادل المعلومات والتنسيق بين الدول أمراً حيوياً للحد من تأثير هذه الظاهرة الإجرامية وضمان استقرار المنطقة.

الفقرة الثانية: الجريمة السيبرانية المنظمة كدافع حتمي للتعاون الأمني السيبراني في دول المتوسطية

تُعد الجريمة السيبرانية المنظمة من أخطر التهديدات التي تواجه المجتمعات الرقمية الحديثة، لاسيما في المناطق ذات الاتصال المتزايد بالعالم الرقمي، مثل منطقة البحر الأبيض المتوسط. يُقصد بها تلك الأنشطة الإجرامية التي تُمارَس بواسطة الفضاء السيبراني، وتكون منظمة بشكل هيكلي، يُشبه العصابات التقليدية، ولكن بأدوات رقمية وتقنيات معقدة. وغالباً ما تتسم هذه الجرائم بالطابع العابر للحدود، حيث يكون تنفيذها من دولة، وتستهدف أفراداً أو مؤسسات في دولة أخرى، مما يجعل ملاحقتها قضائياً وتقنياً أكثر تعقيداً.

تمثل هذه الأنشطة جزءاً من ما يسمى بـ"الإجرام المنظم السيبراني"، إذ تعمل مجموعات إجرامية محترفة على تنفيذ خطط ممنهجة لاختراق الأنظمة وجني الأرباح، سواء عن طريق الابتزاز أم الاحتيال أم سرقة البيانات. وتعتمد هذه العصابات غالباً على الشبكة المظلمة(Dark Web) ، وخوادم مشفّرة، والعملات الرقمية، ما يزيد من صعوبة تتبعها أو الإيقاع بها .**أبرز أنواع الجرائم السيبرانية المنظمة ما يلي:**

أولا: الابتزاز السيبراني

---

[22] ISIS and other terrorist groups increase the use of Bitcoin after the losses on the battlefield, https://www.gfatf.org date of access June 13, 2025, on the watch 9:25.

يُعد الابتزاز السيبراني من أكثر الجرائم السيبرانية المنظمة انتشاراً في منطقة البحر الأبيض المتوسط. تقوم هذه الجرائم على اختراق بيانات حساسة تخص أفراداً أو مؤسسات، مثل الصور الشخصية، والمعلومات المالية، أو المراسلات الخاصة، ثم يكون تهديد الضحية بنشرها ما لم يدفع مبلغاً مالياً معيناً .وغالباً ما يكون الدفع بعملة رقمية مثل "البيتكوين"، نظراً إلى صعوبة تتبعها.

وبحسب تقرير يوروبول لعام 2024، فإن الهجمات السيبرانية التي تستهدف الأفراد والشركات الصغيرة والمتوسطة قد ازدادت بشكل ملحوظ، مما يجعلها أكثر عرضة للابتزاز السيبراني. تستغل هذه الهجمات تقنيات مثل الهندسة الاجتماعية والتصيد الاحتيالي للوصول إلى البيانات الحساسة. كما أن استعمال أدوات الذكاء الاصطناعي مثل "deepfakes" قد سهل من تنفيذ هذه الجرائم، مما يزيد من تعقيد مكافحتها[23].

وفي هذا الصدد، تمكنت السلطات الإيطالية من تفكيك شبكة متخصصة في الابتزاز الإلكتروني، كانت تستهدف موظفين داخل شركات باستعمال وسائل تقنية متقدمة. وقد تمثلت الخطة الإجرامية في إرسال رسائل بريد إلكتروني تحتوي على برمجيات خبيثة(malware) ، يكون بواسطتها اختراق أجهزة الحاسوب الخاصة بالضحايا. بعد الدخول إلى هذه الأجهزة، يقوم الجناة بجمع ملفات شخصية وصور حساسة، ثم يشرعون في تهديد الضحايا بنشر هذه البيانات ما لم يدفع مبالغ مالية بعملة البيتكوين. وعلى وفق تحقيقات الشرطة، سجلت أكثر من 250 حالة موثقة لهذا النوع من الابتزاز، وكانت الغالبية العظمى من الضحايا تقيم في مدينتي روما وميلانو. هذا المثال يعكس مدى تطور الجرائم الإلكترونية العابرة للحدود، وصعوبة تتبع مرتكبيها نظراً إلى استعمالهم تقنيات تشفير متقدمة والعملات الرقمية غير القابلة للتتبع.

شهد المغرب في السنوات الأخيرة تصاعداً في جرائم الابتزاز الإلكتروني، لاسيما تلك المرتكبة ضد النساء على مواقع التواصل الاجتماعي. ففي مدينة فاس سنة 2023، ألقت السلطات الأمنية القبض على شاب تورط في ابتزاز عدد من الفتيات بعد أن تمكن من اختراق هواتفهن الذكية. استعمل الجاني برامج تجسس (spyware) مكنته من الوصول إلى الصور والمحتويات الخاصة، مستغلاً منصات مثل "إنستغرام" و"واتساب" للتواصل مع ضحاياه. وقد عمد إلى إخفاء هويته الرقمية باستعمال الشبكات الخاصة الافتراضية(VPN) ، وطالب ضحاياه بدفع مبالغ مالية

---

(23) Europol: Immer mehr Cybercrime und KI-Nutzung von dpa | 23.Jul 2024 | Europe in brief, sur le site : https://europeannewsroom, date entrée : 20/01/2025, à l'heure 22 :17.

تراوحت بين 3000 و8000 درهم مغربي مقابل عدم نشر الصور الخاصة بهن. تعكس هذه الواقعة تعقيدات التحقيق في مثل هذه القضايا، لاسيما في ظل استعمال أدوات إخفاء الهوية الرقمية، وضرورة التوعية المجتمعية بمخاطر مشاركة البيانات الشخصية على الإنترنت.[24]

ثانياً: غسل الأموال عبر العملات المشفرة

تُمثل العملات الرقمية بيئة مثالية لغسل الأموال، نظراً إلى طبيعتها اللامركزية وصعوبة تعقب العمليات التي تكون عبرها .تقوم الشبكات الإجرامية بتحويل أموال غير مشروعة إلى عملات رقمية، ثم إعادة توزيعها أو استثمارها في أنشطة تبدو قانونية .في ظل غياب نظام رقابي إقليمي موحد، باتت دول المتوسط عرضة لاستعمال أنظمتها المالية كبوابات لتمرير هذه العمليات.

في تقرير صادر عن وكالة الشرطة الأوروبية (يوروبول) لعام 2024، كان تسليط الضوء على تزايد اعتماد الشبكات الإجرامية على العملات المشفّرة في عمليات غسل الأموال، لا سيما عن طريق منصات مثل"ChipMixer" ، التي صادرت السلطات أصولاً مرتبطة بها تقدّر بـ44.2 مليون يورو. وأشار التقرير إلى أن هذه الشبكات تستغل الثغرات في التشريعات الوطنية والتباينات القانونية بين الدول الأوروبية لتسهيل عملياتها غير المشروعة[25].

كما أعلنت الشرطة الإسبانية في عام 2022 عن تفكيك شبكة دولية لغسل الأموال، قامت بتحويل ملايين اليوروهات الناتجة عن الاتجار بالمخدرات إلى عملات رقمية، قبل إعادة ضخّها في استثمارات بمجال العقارات والفنادق. استعملت هذه الشبكة محافظ رقمية وهمية وتقنيات تمويه الهوية عبر خدمات "Mixers"، التي تدمج المعاملات لجعل تتبّعها أمراً بالغ الصعوبة[26].

وفي السياق نفسه، شهدت تركيا واحدة من أبرز قضايا الاحتيال المرتبطة بالعملات المشفّرة، تمثّلت في فضيحة منصة ."Thodex" ففي أبريل 2021، أوقفت المنصة نشاطها بشكل مفاجئ، فيما اختفى مؤسسها، فاروق فاتيح أوزر، حاملاً معه نحو ملياري دولار من أموال المستثمرين. كانت "Thodex" تضم ما يقارب 391,000 مستخدم نشط، وكانت تُجري تداولات يومية بمبالغ كبيرة. عقب فراره، تبيّن أن أوزر لجأ إلى ألبانيا، حيث ألقي القبض عليه في أغسطس 2022، وسلم لاحقاً إلى السلطات

---

[24] Casablanca: Police arrest cyber extortion suspect threatening of public order, November 28, 2023, sur le site https://en.hespress.com, date entrée: 01/03/2025, à l'heure 15 :30.

[25] Europol. (2024). *Crypto assets a growing money laundering risk, says Europol*. Investment International

[26] CriptoNoticias. (2022). *Policía de España desmantela red de narcotráfico que lavaba dinero con criptomonedas*.

التركية. وفي سبتمبر 2023، أصدرت محكمة تركية حكماً عليه بالسجن لمدة 11,196 سنة، بعد إدانته بتهم تتضمن الاحتيال، وغسل الأموال، وتأسيس وإدارة منظمة إجرامية[27].

ثالثا: الاحتيال الإلكتروني كتهديد متصاعد في منطقة جنوب وشرق المتوسط

يأخذ الاحتيال الإلكتروني أشكالاً متعددة، منها الاحتيال عبر البريد الإلكتروني، وإنشاء مواقع إلكترونية زائفة، والتصيد الاحتيالي .(phishing) غالباً ما تستهدف هذه العمليات الشركات الصغيرة أو المستخدمين الأفراد، مما يؤدي إلى خسائر مالية جسيمة.

لقد أشار تقرير يوروبول (Europol) المعنون بـInternet Organise" Crime Threat Assessment "2024 (IOCTA) إلى أن الاحتيال الإلكتروني يُعد من أبرز أشكال الجرائم السيبرانية التي تعرف تزايداً ملحوظاً في دول جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط .ويُعزى هذا التزايد إلى عوامل عديدة، من أبرزها ضعف الوعي الرقمي لدى بعض الفئات المجتمعية، وقصور الأنظمة الأمنية الإلكترونية المعتمدة من قبل الأفراد والمؤسسات، ما يفتح المجال أمام مجرمي الإنترنت لاستغلال هذه الثغرات وتحقيق مكاسب غير مشروعة[28].

وتشكل الثغرات الأمنية وضعف التوعية مدخلاً رئيساً للهجمات الإلكترونية، حيث برز التقرير المشار إليه أعلاه أن الفئات المستهدفة غالباً ما تفتقر إلى الوعي الكافي بأساليب الاحتيال الإلكتروني، لاسيما في ظل الانتشار المتزايد للخدمات الرقمية والبنكية على الإنترنت. ومع غياب برامج التوعية الأمنية، تصبح هذه الفئات هدفاً سهلاً لهجمات التصيّد الإلكتروني(Phishing) ، وهجمات الاحتيال المالي عبر المنصات الرقمية، حيث يُخدع الضحايا عبر رسائل أو مواقع إلكترونية مزيفة تطلب منهم تقديم معلومات شخصية أو مالية حساسة.

وفي هذا الصدد، شهدت تونس سنة 2023 واحدة من أبرز حملات التصيّد الإلكتروني التي استهدفت مستخدمي البنوك الرقمية، حيث أصدرت الوكالة الوطنية للسلامة المعلوماتية بلاغاً يُحذر من مواقع إلكترونية مزيفة صممت لتُطابق تصميم البنوك المعروفة محلياً. وطُلب من الضحايا، عبر رسائل بريد إلكتروني احتيالية، "تحديث بياناتهم البنكية"، مما أدى إلى اختراق

---

(27) Home Incidents Attack Vectors Market Health Synthetic Data, An article published on the following website: https://dn.institute/research/cyberattacks/incidents/ , Date of access: 23/11/2024, On the hour 23:57.

(28) Europol. (2024). *Internet Organised Crime Threat Assessment (IOCTA) 2024*. European Union Agency for Law Enforcement Cooperation. Retrieved from: https://www.europol.europa.eu date of access April 17, 2025, on the watch 15:00.

حساباتهم المالية وسرقة الأموال. وقد سجلت أكثر من 400 حالة احتيال في مدة لا تتجاوز الشهر، ما يعكس حجم التحديات الأمنية التي تواجهها البنية التحتية الرقمية في البلاد[29].

وفي مثال آخر يوضح امتداد الجريمة السيبرانية إلى بعد دولي، تمكنت السلطات الفرنسية في مدينة ليون سنة 2024 من تفكيك شبكة احتيال دولية كانت تدير عملياتها من رومانيا، والجزائر. تخصصت هذه الشبكة في الاحتيال عبر مواقع بيع السيارات المستعملة، حيث عرضت سيارات وهمية بأسعار منخفضة لجذب الضحايا، ثم طالبتهم بتحويل دفعات مالية مقدّمة عبر خدمات مثل PayPal. وبعد استلام الأموال، كان أفراد الشبكة يختفون دون أي أثر. هذا المثال يوضح مدى التنظيم العالي لهذه العصابات، واستغلالها للبنية الرقمية عبر الحدود في تنفيذ عملياتها الاحتيالية[30].

وفي هذا الصدد نجد الحكم الصادر عن المحكمة الابتدائية بالرباط، وذلك بخصوص شكاية تقدمت بها وزارة الطاقة والمعادن والبيئة إلى وكيل الملك مفادها أن النظام الالكتروني الخاص بها تعرض لاختراق معلوماتي، وبعد الأبحاث التمهيدية توصلت الشرطة القضائية إلى أن المدير العام لشركة «ميكائيل» واثنين من المستخدمين قاموا باختراق الأنظمة المعلوماتية للوزارة وتثبيت البرامج المعلوماتية TEAMVIWE وERSE التي تسمح بالتحكم عن بعد، وتتيح إمكانية مسح، وحذف الملفات، والبيانات من النظام المعلوماتي[31].

وبناء على ما سبق، يؤكد تقرير يوروبول على ضرورة تطوير التعاون بين الدول المعنية، لاسيما في المناطق التي تشهد نشاطاً متزايداً للجريمة الإلكترونية. ويوصي التقرير بإنشاء آليات تنسيق بين الجهات الأمنية، وتبادل المعلومات في الوقت الفعلي، فضلاً عن إطلاق برامج توعية رقمية موجهة للفئات الأكثر عرضة للاستهداف .كما شدد التقرير على أهمية الاستثمار في تحديث البنية التحتية للأمن السيبراني داخل المؤسسات العامة والخاصة، بما يتماشى مع تطور أساليب الجريمة الرقمية.

رابعا: هجمات برامج الفدية تهديد متصاعد للبنى التحتية الحيوية

---

[29] Europol. (2024). *Internet Organised Crime Threat Assessment (IOCTA) 2024*? OP. CIT.

[30] Eurojust, "Annual Report 2023: Cybercrime," 2023.

[31] قرار رقم 34.00 صادر عن غرفة الجنح الاستئنافية بالمحكمة الابتدائية بالرباط في ملف عدد 14/2010/2751، غير منشور.

تُعد هجمات برامج الفدية من أخطر أشكال الجرائم السيبرانية المعاصرة، إذ تقوم فيها جهات إجرامية بزراعة برمجيات خبيثة في أنظمة الضحية تؤدي إلى تشفير جميع البيانات المخزنة، ثم تطالب بفدية مالية - غالباً بالعملات المشفّرة مثل البيتكوين- مقابل تزويد الضحية بمفتاح فك التشفير الذي يمكنه من استعادة البيانات. وقد تطورت طبيعة هذه الهجمات في السنوات الأخيرة، حيث لم تعد تستهدف الأفراد أو الشركات الصغيرة فقط، بل أصبحت تركز على البنى التحتية الحيوية مثل المستشفيات، والمطارات، والمؤسسات الحكومية، مما يجعلها تهديداً مباشراً للأمن الوطني للدول. وقد رُصدت هذه الأنشطة في دول أوروبية وشرق متوسطية مثل إسبانيا، وفرنسا، واليونان، ما يعكس البعد الدولي لهذا التهديد.

وعلى وفق تقرير Eurojust لعام 2023، فقد شهدت هجمات برامج الفدية زيادة ملحوظة من حيث العدد والتأثير، حيث استهدفت مجموعات إجرامية منظمة، مثل مجموعة"Ragnar Locker" ، أكثر من 168 شركة ومؤسسة دولية منذ عام 2020. وقد أدت هذه الهجمات إلى خسائر مالية جسيمة واضطراب في أنظمة العمل، مما يجعل مكافحتها تمثل تحدياً كبيراً للسلطات القضائية والأمنية على المستوى الأوروبي والدولي. ويشير التقرير أيضاً إلى أن هذه الجماعات تعمل غالباً ضمن شبكات معقدة وعابرة للحدود، وتستعمل الإنترنت المظلم لتنسيق أنشطتها وتلقي المدفوعات[32].

وفي هذا السياق، استُهدفت وزارة الصحة في اليونان بهجوم ببرنامج الفدية المعروف بـ .LockBit تسبب الهجوم في شلل شبه كامل للنظام الصحي الرقمي، مما أثر في المستشفيات ومواعيد المرضى الإلكترونية لعدة أيام. المهاجمون طالبوا بدفع فدية قدرها ثلاثة ملايين يورو بالبيتكوين مقابل فك التشفير، واستعادة البيانات، الحكومة اليونانية رفضت الاستجابة لهذا الابتزاز، واعتمدت على فرق الاستجابة الوطنية للأمن السيبراني لاستعادة النظام بشكل تدريجي. تعكس هذه الحادثة خطورة التهديدات السيبرانية حينما تستهدف قطاعاً حيوياً مثل الصحة العامة[33].

كما تعرضت أحد البنوك المصرية الخاصة الكبرى في عام 2022 لهجوم عبر برمجية Conti .Ransomware أظهر التحقيق أن الجهة المهاجمة كانت جزءاً من شبكة إجرامية تعمل من شرق أوروبا، وقد استعانت بوسطاء في شمال إفريقيا لترتيب عملية دفع الفدية، وذلك عن طريق

---

[32] Eurojust. (2023). *Annual Report 2023*. European Union Agency for Criminal Justice Cooperation. Retrieved from: https://www.eurojust.europa.eu date of access June 16, 2025, on the watch 16:00.

[33] نفس المرجع السابق.

التواصل عبر الإنترنت المظلم. لم تُعلن الجهات الرسمية تفاصيل الاستجابة أو حجم الخسائر، لكن هذه الواقعة أثارت تساؤلات حول جاهزية القطاع المصرفي في المنطقة لمواجهة هجمات من هذا النوع[34].

وعليه، تُظهر هذه الحالات أن برامج الفدية أصبحت أداة ابتزاز رقمي فعالة بيد جماعات الجريمة المنظمة، مستفيدة من تطور تقنيات التشفير ووسائل الاتصال غير القانونية. ونظراً إلى استهدافها لوزارات ومؤسسات مالية وصحية، فإن التهديد يتجاوز الأبعاد التقنية، ليصبح عاملاً مؤثراً في الاستقرار الاقتصادي والسياسي للدول. ويوصي تقرير Eurojust بضرورة تعزيز قدرات التحقيق الرقمي، وتطوير أنظمة الأمن السيبراني في القطاعات الحيوية، علاوة على تكثيف التعاون القضائي الدولي لمواجهة الشبكات العابرة للحدود.

خاتمة

في ضوء ما تقدم، يتّضح أن التحديات الأمنية السيبرانية في منطقة البحر الأبيض المتوسط لم تعد مجرد تهديدات تقنية عابرة، بل تحولت إلى معضلات استراتيجية تمسّ الأمن القومي للدول، واستقرار المجتمعات، وسلامة البنى التحتية الحيوية. هذه التهديدات، التي تتخذ أشكالاً متعددة من هجمات سيبرانية منظمة إلى جرائم إلكترونية عابرة للحدود، لا يمكن مواجهتها ضمن الأطر التقليدية للأمن، بل تتطلب تحولاً في التفكير الأمني الإقليمي، يعتمد على التكامل، والتعاون متعدد الأطراف، وبناء الثقة بين دول المنطقة.

كما أن التعاون السيبراني لم يعد خياراً، بل بات ضرورة وجودية تفرضها طبيعة التهديدات السيبرانية التي لا تعترف بالحدود الجغرافية، ولا تميز بين دولة متقدمة وأخرى نامية. ومن هذا المنطلق، فإن دول المتوسط مدعوة إلى تأسيس آليات تنسيق إقليمية فعالة تشمل تبادل المعلومات في الوقت الفعلي، والتدريب المشترك، وتوحيد السياسات والتشريعات السيبرانية، وبناء بنية تحتية رقمية آمنة ومترابطة. كما يُعد انخراط المنظمات الإقليمية والدولية، والقطاع الخاص، والمؤسسات الأكاديمية، عنصراً حاسماً في تطوير منظومة أمنية متكاملة ومواكِبة للتطور التكنولوجي.

---

[34] Eurojust, "Annual Report 2023: Cybercrime," 2023.

علاوة على ذلك، فإن تعزيز هذا التعاون من شأنه أن يسهم في تعزيز الاستقرار السياسي والاقتصادي للمنطقة، وخلق بيئة آمنة للاستثمار الرقمي، وتحقيق تنمية مستدامة قائمة على الاقتصاد الرقمي. وبذلك، يصبح الأمن السيبراني ليس خط دفاع ضد الهجمات فقط، بل رافعة استراتيجية لبناء مستقبل رقمي مشترك، أكثر أمناً وتقدماً لدول المتوسط جميعاً.

La communication au cœur du dispositif de santé : enjeux éthiques et transformations à l'ère du numérique

Houssam AZMANI, Zahra SADIQ

Maitres de conférences, ISPITS Rabat

Introduction

La communication est un élément essentiel dans le domaine de la santé. Elle constitue la base de la relation entre le soignant et le patient et joue un rôle clé dans le diagnostic, la réalisation des soins et la prévention des maladies. Par le dialogue, l'écoute et l'échange d'informations, se construit la confiance nécessaire à tout accompagnement médical de qualité. Sans communication claire, empathique et adaptée, la pratique de la santé perd sa dimension humaine et sa portée véritable.

Cependant, à l'ère du numérique, cette communication connaît une transformation profonde. L'apparition et la généralisation des technologies de l'information redéfinissent les modes d'interaction au sein du système de soins. Les échanges entre professionnels de santé, institutions et patients s'effectuent désormais à travers des supports technologiques multiples, offrant de nouvelles possibilités en matière de rapidité, d'efficacité et de coordination des soins.

Si ces innovations représentent des avancées indéniables, elles ne sont pas exemptes de défis. Elles soulèvent des interrogations éthiques, juridiques et humaines majeures.

Comment garantir la confidentialité et la sécurité des données de santé dans un contexte de numérisation massive ? Comment maintenir la confiance du patient lorsque les interactions se dématérialisent ? Et surtout, comment préserver la dimension relationnelle et empathique du soin face à des dispositifs toujours plus technologiques ? Ces questions rappellent que la communication, même transmise par les outils numériques, ne doit jamais perdre de vue la singularité et la vulnérabilité de la personne soignée.

Ainsi, la transformation numérique du secteur de la santé appelle une réflexion approfondie sur la reconfiguration des pratiques professionnelles. Elle invite les soignants à repenser leurs modes de communication, à développer de nouvelles compétences numériques tout en conservant une approche centrée sur le patient. L'enjeu n'est pas seulement technique, mais profondément éthique : il s'agit de concilier innovation et humanité, efficacité et respect de la personne.

Cet article se propose d'explorer ces mutations sous trois angles complémentaires : les enjeux éthiques liés à la numérisation des échanges, l'évolution des pratiques professionnelles de communication et, enfin, les perspectives d'avenir pour instaurer une communication responsable, à la fois technologique et humaine, au service d'une santé durable et équitable.

1. Communication et santé : fondements et enjeux éthiques

1.1 La communication comme outil thérapeutique

La communication en santé ne se limite pas à un simple échange d'informations techniques : elle constitue un acte thérapeutique à part entière. Elle est le fondement même de la relation de soin et participe activement au processus de guérison. En effet, l'écoute active, l'empathie et la clarté du discours favorisent non seulement la compréhension du patient, mais aussi son engagement dans le parcours de soins

(Rogers, 1961 ; Stewart et al., 2000). Loin d'être une compétence secondaire, la communication devient une composante essentielle de la pratique clinique, influençant directement la qualité du diagnostic, l'observance thérapeutique et la satisfaction du patient (Silverman, Kurtz & Draper, 2013).

Le langage, qu'il soit verbal ou non verbal, joue un rôle déterminant dans cette dynamique relationnelle. Le ton de la voix, le regard, la posture ou encore la gestuelle contribuent à créer un climat de confiance et de sécurité émotionnelle (Hall et al., 2009). Ces éléments non verbaux, souvent inconscients, participent à la construction d'un lien authentique entre le soignant et le patient. Lien qui favorise la coopération et la résilience face à la maladie (Coulehan, 2018).

Ainsi, la communication devient un véritable vecteur thérapeutique, capable d'atténuer l'anxiété, de renforcer l'alliance thérapeutique et, in fine, d'améliorer les résultats de santé (Street, Makoul, Arora & Epstein, 2009).

Dans cette perspective, la formation à la communication professionnelle apparaît comme un enjeu central dans les cursus en santé. Elle vise à développer des compétences relationnelles, émotionnelles et éthiques indispensables à la pratique clinique moderne (Simmenroth-Nayda et al., 2012). La communication en santé, loin d'être un simple outil de transmission, se révèle ainsi comme un instrument de soin à part entière, où la parole et l'écoute deviennent des médiateurs de guérison.

1.2 Les enjeux éthiques de la communication médicale

La communication médicale s'inscrit dans un cadre éthique précis, fondé sur les principes de bienfaisance, de non-malfaisance, d'autonomie et de justice (Beauchamp & Childress, 2019). Ces valeurs constituent la base de toute interaction entre professionnels de santé et patients, orientant les pratiques vers le respect de la personne et la recherche de son bien-être. Informer le patient avec clarté et honnêteté

tout en respectant sa sensibilité émotionnelle représente un équilibre délicat mais essentiel (Schildmann, Gordon & Vollmann, 2010).

À l'ère du numérique, les défis éthiques de la communication médicale se complexifient. La circulation rapide et massive des données de santé soulève des enjeux majeurs en matière de confidentialité, de sécurité des informations et de consentement éclairé (Lomborg, 2020).

Le secret médical, principe fondateur de la confiance entre le patient et le soignant, doit désormais être garanti dans un environnement technologique où les risques de fuite ou de piratage sont accrus (Conseil de l'Europe, 2018).

2. Les transformations numériques des pratiques communicationnelles

2.1 L'essor des technologies de l'information en santé

L'émergence des technologies de l'information et de la communication (TIC) a profondément transformé la manière dont les professionnels de santé interagissent avec les patients. Les dossiers médicaux électroniques (DME), la télémédecine, les applications mobiles de suivi ou encore les plateformes collaboratives constituent aujourd'hui des outils essentiels à la gestion des parcours de soins (WHO, 2021). Ces dispositifs permettent une meilleure coordination interprofessionnelle et facilitent la continuité des soins, notamment dans les contextes de maladies chroniques ou de prise en charge à distance (Topol, 2019).

Le dossier médical partagé (DMP), par exemple, favorise l'accès rapide et sécurisé aux informations cliniques, limitant les redondances d'examens et améliorant la traçabilité des décisions médicales (OECD, 2020). De même, les technologies de télésurveillance et les applications de santé connectée renforcent l'autonomie du patient tout en offrant aux soignants des données actualisées sur l'état de santé (Raimo et al., 2023). Ces innovations participent à une véritable révolution numérique dans les pratiques

communicationnelles médicales, caractérisée par une fluidité accrue des échanges et une meilleure efficience des dispositifs de soin.

Toutefois, cette évolution exige des conditions techniques et humaines précises. La connectivité des systèmes demeure un défi majeur, car la diversité des plateformes et des logiciels complique parfois la circulation des données entre établissements et acteurs de santé (Bates et al., 2018).

Par ailleurs, la compétence numérique devient une compétence professionnelle incontournable : les soignants doivent maîtriser ces outils tout en restant vigilants face à leurs limites éthiques et relationnelles (Mesko et al., 2017). Ainsi, l'intégration des technologies de l'information dans la communication en santé représente à la fois une opportunité et un défi, où efficacité technique et sens humain doivent être conjugués.

2.2 Les risques de déshumanisation du soin

Si les outils numériques contribuent à la rapidité et à la fiabilité des échanges, ils peuvent parallèlement fragiliser la dimension humaine du soin. La médiation technologique, en remplaçant le contact direct par des interfaces, risque de réduire la qualité du lien interpersonnel entre le soignant et le patient (Greenhalgh et al., 2016). L'absence de contact physique, de regard ou de gestes empathiques peut altérer la perception de la présence et de la compréhension mutuelle (Tronto, 2013).

Plusieurs études soulignent que la communication numérique, notamment lors des consultations à distance, tend à modifier la dynamique relationnelle : le soignant est davantage centré sur l'écran et la gestion de données que sur la personne elle-même (Pappas et al., 2019). Ce phénomène, qualifié de « technicisation du soin », risque de déshumaniser la pratique médicale si l'attention portée à la parole, à l'écoute et à la subjectivité du patient n'est pas maintenue (Desmedt et al., 2020).

L'enjeu central réside donc dans la capacité des professionnels à maintenir une présence humaine authentique, même dans un environnement numérique. Cette présence repose sur des compétences de communication adaptées à la médiation technologique : reformulation, attention aux signaux non verbaux et gestion empathique du dialogue à distance (Schwamm, 2014).

La technologie ne doit pas remplacer la relation, mais la soutenir en permettant un meilleur suivi tout en préservant la chaleur et la personnalisation du soin (Pols, 2012).

3. Vers une communication éthique et inclusive dans le système de santé

3.1 La formation et la sensibilisation des professionnels

Face à ces mutations, la formation continue des acteurs de santé apparaît comme un levier essentiel pour promouvoir une communication éthique et responsable. Il ne s'agit plus seulement d'acquérir des compétences techniques, mais également de renforcer les dimensions relationnelles, déontologiques et éthiques de la communication (Silverman, Kurtz & Draper, 2013).

Les programmes de formation en communication médicale intègrent désormais des modules sur la protection des données, la confidentialité numérique et la cybersécurité (European Commission, 2021). Ces contenus visent à garantir la conformité des pratiques aux principes du Règlement Général sur la Protection des Données (RGPD), tout en sensibilisant les professionnels à la responsabilité éthique liée à l'usage des technologies (CNIL, 2020).

De plus, la formation à la compétence communicationnelle numérique ; c'est-à-dire la capacité à adapter son discours et son écoute dans un environnement digital devient indispensable (Norman & Skinner, 2006). En intégrant ces dimensions dans les cursus universitaires et les programmes de développement professionnel continu, les

institutions sanitaires contribuent à instaurer une culture de la communication respectueuse, empathique et sécurisée (Gualano et al., 2021).

3.2 La participation active du patient

Le développement du numérique a profondément redéfini la place du patient dans le système de santé. De simple récepteur d'informations, il devient désormais un acteur de sa propre santé, capable de s'informer, d'interagir et de co-décider avec les professionnels (Coulter & Oldham, 2016). Les plateformes de santé, les portails patients et les communautés en ligne favorisent l'accès à des ressources éducatives et à des échanges entre pairs, renforçant ainsi l' « empowerment » et la « littératie » en santé (Nutbeam, 2008).

Cependant, cette participation active exige une éducation à la santé numérique afin que les patients puissent discerner la fiabilité des sources d'information et éviter les risques de désinformation médicale (Eysenbach, 2020). L'accompagnement des patients dans l'usage des outils numériques ; par exemple, lors de la consultation de résultats en ligne ou de l'utilisation d'applications de suivi constitue un volet essentiel de la communication éthique (Börner et al., 2023).

Enfin, une communication véritablement inclusive suppose de tenir compte des inégalités numériques : tous les patients n'ont pas le même accès aux technologies ni les mêmes compétences pour les utiliser efficacement (Van Dijk, 2020). Le défi des prochaines années sera donc de construire un système de santé numérique équitable et humain, où chaque acteur, professionnel comme patient, dispose des moyens et des connaissances nécessaires pour participer pleinement à la relation de soin.

Conclusion et recommandations

Dans un contexte de transition numérique accélérée, la fonction de la communication dans le système de santé se trouve redéfinie, portée par l'émergence des technologies

de l'information, de la télémédecine, des applications de suivi et de l'intelligence artificielle.

Ces transformations offrent des opportunités considérables : amélioration de la coordination entre professionnels, continuité du suivi médical, accès facilité à l'information et démocratisation du savoir en santé. Le numérique permet ainsi de renforcer l'efficience du système de soins et de répondre à des défis structurels tels que les inégalités territoriales ou le manque de disponibilité médicale (WHO, 2021). Toutefois, ces avancées s'accompagnent de risques et de tensions éthiques : la déshumanisation du soin, la standardisation des relations thérapeutiques, la perte de confidentialité des données ou encore l'exclusion numérique de certains publics vulnérables (Topol, 2019 ; Tronto, 2013).

L'enjeu pour les années à venir consiste donc à réconcilier humanité et technologie dans la communication en santé. Il s'agit de faire du numérique non pas un substitut, mais un prolongement de la relation humaine, en plaçant la personne, patient comme professionnel, au centre du dispositif. Cette approche centrée sur l'humain implique une éthique de la communication fondée sur la confiance, la transparence et la responsabilité partagée (Beauchamp & Childress, 2019).

En somme, la communication numérique en santé doit être envisagée comme un espace de co-construction. Un lieu où la compétence technologique, la sensibilité relationnelle et les principes déontologiques s'articulent pour produire un soin à la fois efficace, équitable et profondément humain.

Recommandations

- **Intégrer une formation systématique à l'éthique et à la communication numérique dans les cursus de santé**

La transformation digitale du secteur exige que les futurs professionnels disposent d'une culture éthique et numérique solide. L'enseignement supérieur en santé devrait

inclure des modules spécifiques sur la communication médiée par les technologies et les enjeux psychosociaux du numérique (Silverman, Kurtz & Draper, 2013 ; European Commission, 2021). Cette formation doit aussi développer les compétences relationnelles : écoute empathique, adaptation du discours et gestion de la distance dans les interactions à distance.

- Garantir une transparence totale dans la gestion et la protection des données médicales

La protection des données personnelles constitue un enjeu éthique et juridique majeur. Les institutions doivent assurer une gouvernance claire et transparente du traitement des données de santé, conformément au Règlement Général sur la Protection des Données (RGPD). Cela implique de renforcer les politiques de sécurité, d'informer clairement les patients sur leurs droits et de garantir un consentement éclairé à chaque étape du parcours numérique (CNIL, 2020).

- Favoriser des dispositifs mixtes mêlant présence humaine et outils numériques

L'avenir du soin repose sur une association équilibrée entre technologie et interaction humaine. L'ensemble des outils numériques doivent compléter, et non remplacer, la présence du soignant (Greenhalgh et al., 2016). Les dispositifs hybrides permettent de tirer parti de l'efficacité technologique tout en maintenant les rapports relationnels et la qualité émotionnelle de la relation thérapeutique.

- Encourager la participation du patient dans les décisions et l'évaluation des outils de communication

Le patient doit être considéré comme un acteur à part entière du système de santé numérique. Sa participation active à la conception, à l'évaluation et à l'utilisation des dispositifs technologiques garantit une meilleure adéquation aux besoins réels et renforce la confiance (Coulter & Oldham, 2016). L'inclusion du patient dans la

gouvernance des outils communicationnels favorise une approche plus démocratique et co-responsable de la santé.

- **Promouvoir une culture de la responsabilité partagée entre soignants, institutions et patients**

Enfin, la communication en santé numérique doit reposer sur une éthique de la coresponsabilité. Chacun professionnel, institution, patient détient une part de responsabilité dans la fiabilité des échanges, la protection de la vie privée et le maintien de la qualité du lien humain (Mesko et al., 2017). Les politiques publiques et les organisations de santé doivent promouvoir cette culture commune, en favorisant la concertation, la formation et l'évaluation continue des pratiques communicationnelles. Enfin, même si les outils numériques sont porteurs de progrès, ils ne sauraient remplacer la dimension profondément relationnelle du soin. Le défi du XXI^{e} siècle sera donc de bâtir un modèle de communication en santé capable d'allier innovation, humanité et équité, pour que le numérique demeure un outil au service du vivant et non un intermédiaire qui l'éloigne.

Références bibliographiques

- **Bevière-Boyer B. (2023). « Les perspectives éthiques et juridiques du suivi numérique de santé à vie du patient du XXI^{e} siècle ». *Journal du droit de la santé et de l'assurance maladie*, 1, 45-. Droit Cairn**
- **Burr C., Taddeo M., Floridi L. (2020). The Ethics of Digital Well-Being: A Thematic Review. *JMIR (Journal of Medical Internet Research)*. PMC**
- **Coulehan J. (2018). *On Doctoring: Stories, Poems, Essays*. University of Iowa Press.**
- **Hall J. A., Harrigan J. A., Rosenthal R. (2009). Nonverbal behavior in clinician–patient interaction. In *The Sage Handbook of Nonverbal Communication* (pp. 517-533). Sage.**

- Lewerenz S., et al. (2025). The example of guiding values in the national digital health policies. *[Article scientifique]*. ScienceDirect
- Manard S., Vergos N., Tamayo S., Fontane F. (2019). Electronic health record in the era of industry 4.0: the French example. *ArXiv preprint*. arXiv
- Rousi R., Vakkuri V. (2023). Introduction to ethics in the age of digital communication. (preprint).
- Silverman J., Kurtz S., Draper J. (2013). *Skills for Communicating with Patients* (3e éd.). Radcliffe Publishing.
- Stewart M., Brown J. B., Weston W. W., McWhinney I. R., McWilliam C., Freeman T. (2000). *Patient-Centered Medicine: Transforming the Clinical Method*. 2e éd. Radcliffe Medical Press.
- Street R. L., Makoul G., Arora N. K., Epstein R. M. (2009). How does communication heal? Pathways linking clinician–patient communication to health outcomes. *Patient Education and Counseling*, 74(3), 295-301.
- Vasselin I. (2025). « Numérique en santé : intérêts d'un regard éthique pour … ». *Revue* (à paraître). — examine les transformations du système de santé sous l'angle éthique. ScienceDirect

Variabilité Spatio-Temporelle des Précipitations dans le Bassin Versant de l'Oued Lahdar (Prérif Oriental, Maroc)

[1] **Mohamed BENZAHIR,** [2] **Pr. Abdelkhalek GHAZI**

[1] *Étudiant chercheur en doctorat au (Laboratoire : LATGED), Université Ibn Tofail. Faculté des Sciences Humaines et Sociales. Kénitra. Maroc.*

[2] *Professeur chercheur en géographie, Université Ibn Tofail. Faculté des Sciences Humaines et Sociales. Kénitra. Maroc.*

Résumé :

Le bassin versant de l'Oued Lahdar, localisé dans le Prérif oriental, s'inscrit dans le domaine méditerranéen ; son contexte bioclimatique se caractérise par la dominance du climat semi-aride. La répartition des précipitations est liée à la topographie et à l'exposition des versants. Ce travail est une analyse de la variabilité spatio-temporelle des précipitations en se basant sur les données de plusieurs stations de mesure réparties sur le bassin et ses environs. Les résultats mettent en évidence une distribution inégale des pluies due à l'effet de l'altitude, à l'exposition ouest des versants, ainsi qu'au phénomène continental. La variabilité entre les années se manifeste par des alternances d'années humides et sèches, avec l'enregistrement de tempêtes pluvieuses provoquant des inondations fréquentes.

Mots-clés : variabilité spatio-temporelle, précipitations, bassin versant de l'Oued Lahdar, Had msila, climat semi-aride, inondations.

Abstract :

The watershed of Oued Lahdar, located in the eastern Prérif, falls within the mediterranean region; its bioclimatic context is characterized by the dominance of a semi-arid climate. The distribution of precipitation is linked to the topography and the exposure of the slopes. This study analyzes the spatio-temporal variability of precipitation based on data from several measurement stations distributed across the basin and its surroundings. The results highlight an uneven distribution of rainfall due to the effects of altitude, to the western exposure of the slopes and to the continental phenomenon. Interannual variability is manifested through alternations of wet and dry years, with the recording of rainstorms causing frequent floods.

Keywords: spatio-temporal variability, precipitation, Oued Lahdar watershed, Had Msila, semi-arid climate, floods.

---

1. Introduction

L'analyse du régime pluviométrique constitue un élément essentiel pour comprendre le mécanisme de l'écoulement des bassins méditerranéens. En se référant au cas du bassin de l'oued Lahdar, situé dans la région du Rif oriental, les précipitations jouent un rôle fondamental dans la genèse des crues et la dynamique de l'érosion hydrique. Le climat prédominant, semi-aride, se caractérise par une irrégularité des précipitations, tant sur le plan temporel que spatial, ce qui accélère les phénomènes d'écoulement de surface violent et d'érosion hydrique. Cette étude vise à caractériser la répartition des précipitations dans le bassin de Lahdar et à mettre en évidence leurs effets hydrologiques.

2. Cadre géographique et climatique du bassin versant

Le bassin versant de l'Oued Lahdar se situe dans le prérif oriental. La superficie du BV étudié est estimée à 610 Km². Au Nord, il est limité par la commune rurale Bni âmarte, au Sud par la ville de Taza, à l'Est par le bassin versant de Larbaã, et à l'Ouest par la commune urbaine de Dhar-souk.

Administrativement, il appartient à la région de Taza, il se caractérise par un relief accidenté, des pentes raides, et des sols argileux et argilo-marneuse généralement imperméables. Ces facteurs, combinés à la régression du couvert végétal, augmentent les risques d'inondations et de ruissellement concentré.

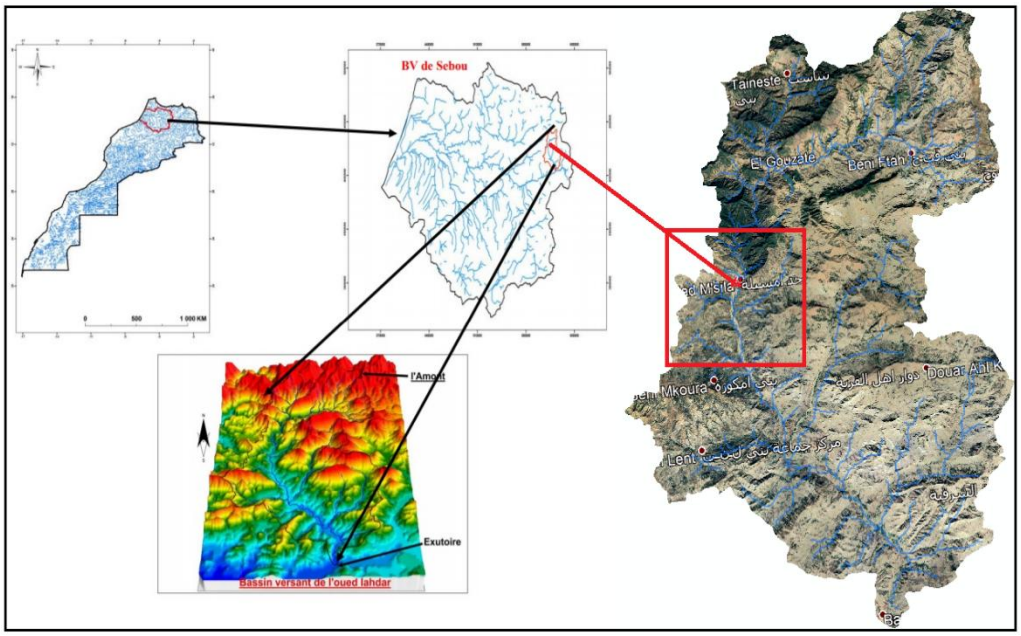

Figure 1 : Carte de Localisation du bassin hydrologique de l'oued Lahdar.

3. Données et méthodologie

Les précipitations constituent la matière première des débits des cours d'eau. (Roche.M, 1969). Pour étudier les caractéristiques pluviométriques, on s'est basé sur les données de onze stations météorologiques, dont six situées à l'intérieur du bassin (Tainast, Bab Chhoub, Had M'Sila, Beni Fattah, Taïfa et Bab El Mrouj) et cinq autres

dans les régions avoisinantes (Taza, Oued Amelil, Bab Merzouga, Merticha et Ain Bouklal). Ces données couvrent principalement la période de 1970 à 2011, avec des lacunes comblées par interpolation spatiale.

Les études statistiques et cartographiques (lignes isohyètes, graphiques et diagrammes ombrothermique) ont contribué à l'analyse de la variabilité des précipitations en fonction de l'altitude et de l'exposition des versants.

Tableau 1: Coordonnées et données annuelles des stations choisies. (Direction régionale de l'agriculture, 2011)

		Coordonnées			Précipitations		
Station	Période d'observation	X (m)	Y (m)	Z (m)	P (mm)	Max (mm)	Min (mm)
Oued amlil	1978/2011	603000	399000,2	300	478,07	1027,5	191,2
Taza	1931/2013	628000	405000	510000	589,12	1044,6	274,7
Bab El Mrouj	1953/1963	624000,5	425000	1050	722	1367	512
Bab Echoub	1992/2011	622000,47	406000,25	410	597,61	1151	247
Baba Marzouka	1970/2011	615000,84	400000,84	365	562,58	987	300
Tainaste	1973/2007	616000,2	439000,6	1250	942,18	1098,05	294,06
Marticha	1962/1982	613000,89	428000,15	700	783,89	1165,5	387,7
Bab El khmise	1973/1984	604000,64	438000,76	1210	724,5	907,7	518,3
El Kifane	1973/2007	641000,64	432000,44	800	301,4	433,4	116,1
Had Mesila	1970/2011	610000,9	425000,1	600	900,27	1000	289,3
Ain Bouklal	1977/1993	635000,3	417000,6	550	619	975	263

4. Résultats et discussion

4.1. La répartition spatiale des précipitations

Il existe plusieurs méthodes de spatialisation des données à titre d'exemples: Krigeage (P, 1988). Les résultats obtenus par la méthode d'interpolation, montrent l'hétérogénéité de l'organisation spatiale des pluies d'ouest en est. Les stations situées en altitude et influencées par les courants humides atlantiques ont enregistré les valeurs les plus élevées ; Tainaste : 942,18 mm/an (1973–2007), Had M'sila : 900,27 mm/an (1970–2011).

De plus, les versants orientés vers l'est et plus continentaux du bassin reçoivent moins de précipitations, souvent moins de 600 mm/an. Cette différence peut s'expliquer par la variation topographique ; les versants occidentaux exposées aux vents atlantiques favorisent la condensation et les précipitations orographiques, tandis que les versants orientaux se trouvent dans une zone protégée des pluies. (figure: 2, 3 et 4).

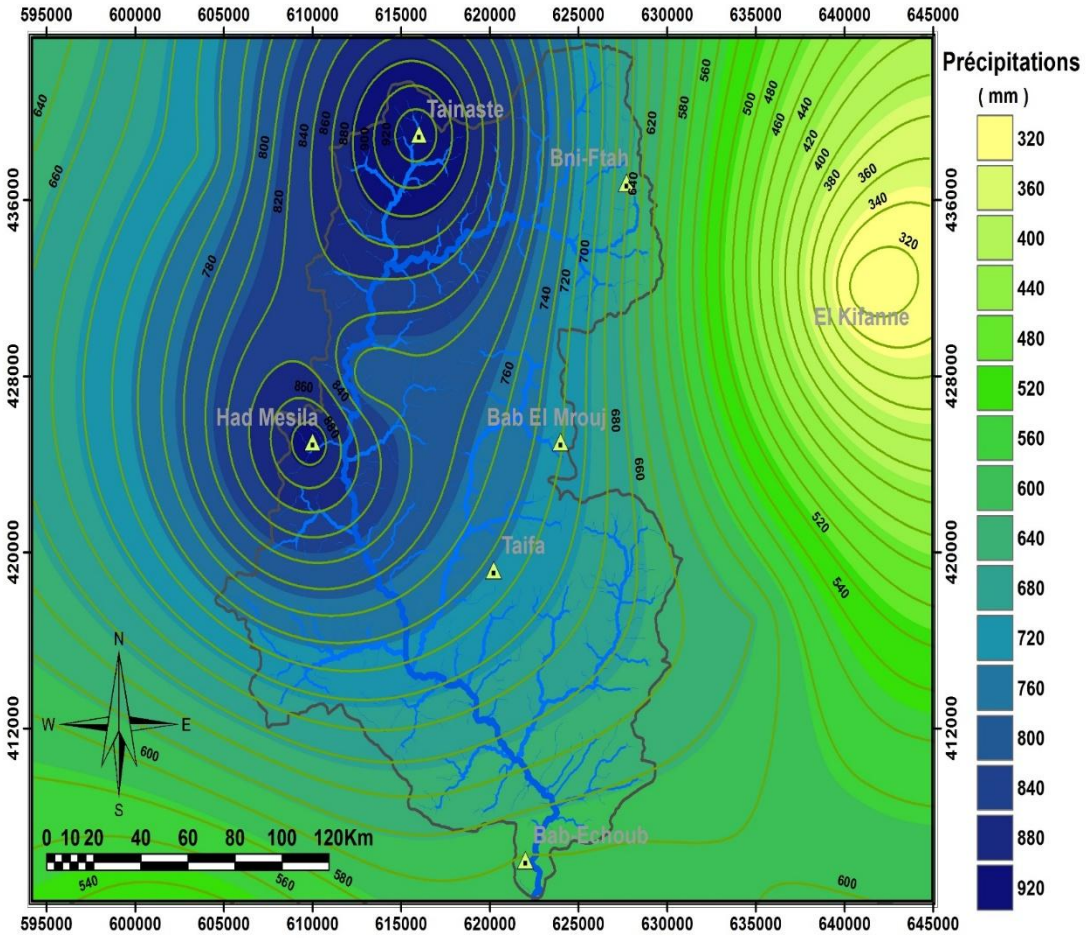

Figure 2 : Répartition des précipitations moyennes annuelles en (mm) dans le bassin versant de l'Oued lahdar et les alentours.

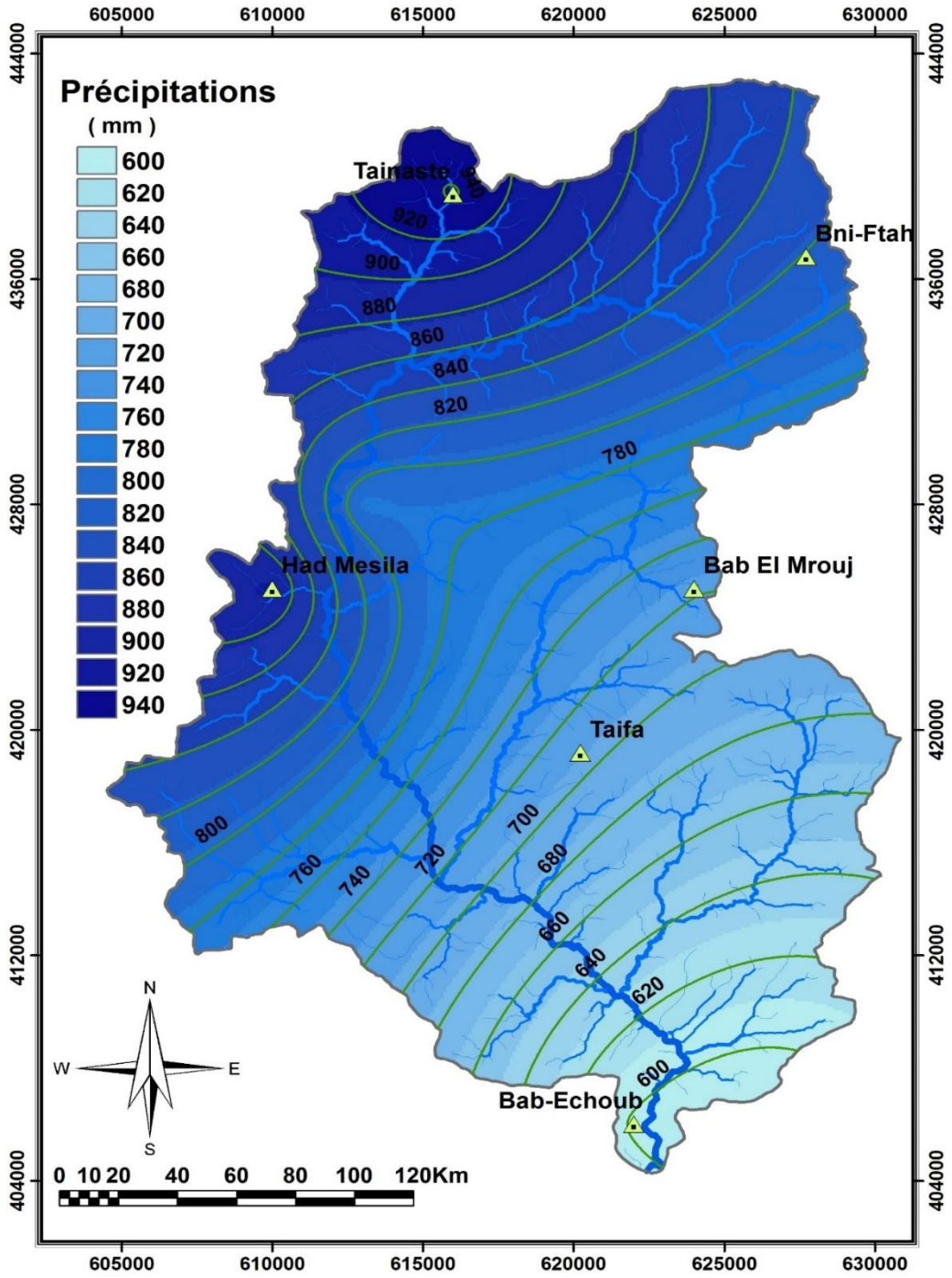

Figure 3: Répartition des précipitations moyennes annuelles en (mm) dans le bassin versant de l'Oued lahdar.

La carte d'exposition des versants montre qu'environ 38 % de la superficie du bassin est orientée vers l'ouest, ce qui augmente les variations pluviométriques internes. (figure: 5).

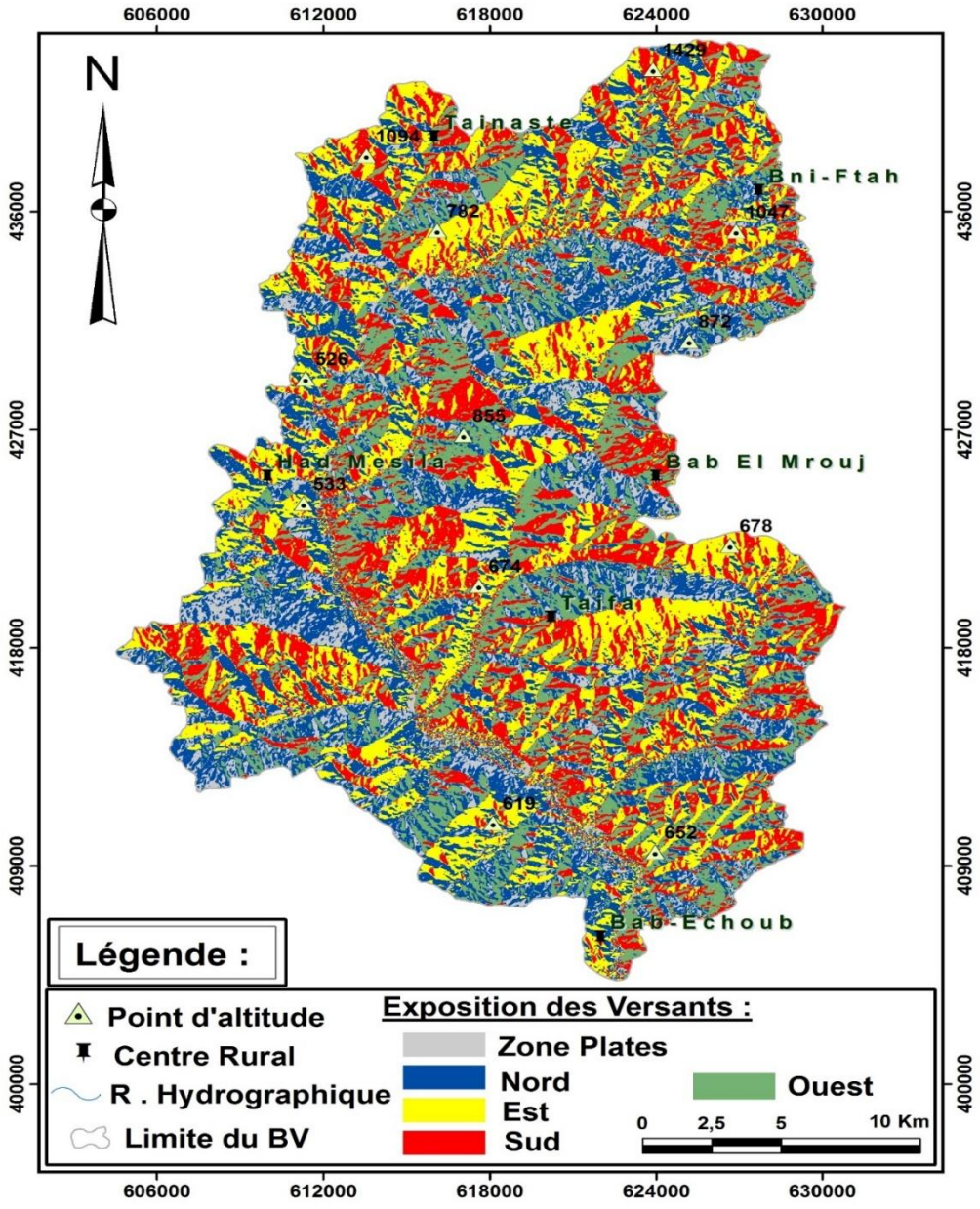

Figure 4 : Carte d'exposition des versants.

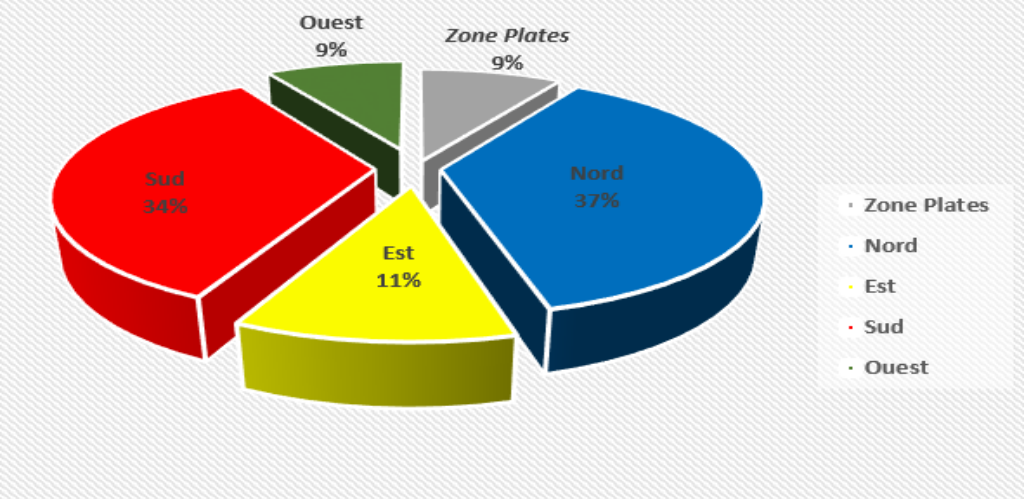

Figure 5: La superficie (en %) en fonction de la répartition d'orientation des versants dans le bassin versant de l'Oued Lahdar.

4.2. Variabilité annuelle et saisonnière

Toute étude statistique doit s'appuyer avant tout sur un réseau d'informations fiables et contrôlées. Le contrôle des séries retenues est une étape préalable, à toute analyse. (Castellani, 1986). L'analyse du régime des précipitations mensuelles des stations de Tainaste, Had msila et Bab Chhoub révèle une forte saisonnalité. On remarque que les précipitations maximales ont été enregistrées en décembre dans les régions de Tainaste et Had msila, et en novembre à Bab Chhoub, tandis que les quantités les plus faibles ont été observées en juillet.

La période avril-octobre est généralement sèche, avec des précipitations importantes en hiver (de novembre à février). Cependant, certaines années connaissent des tempêtes intenses au printemps ou en automne, entraînant souvent des inondations rapides. (figure: 6, 7 et 8).

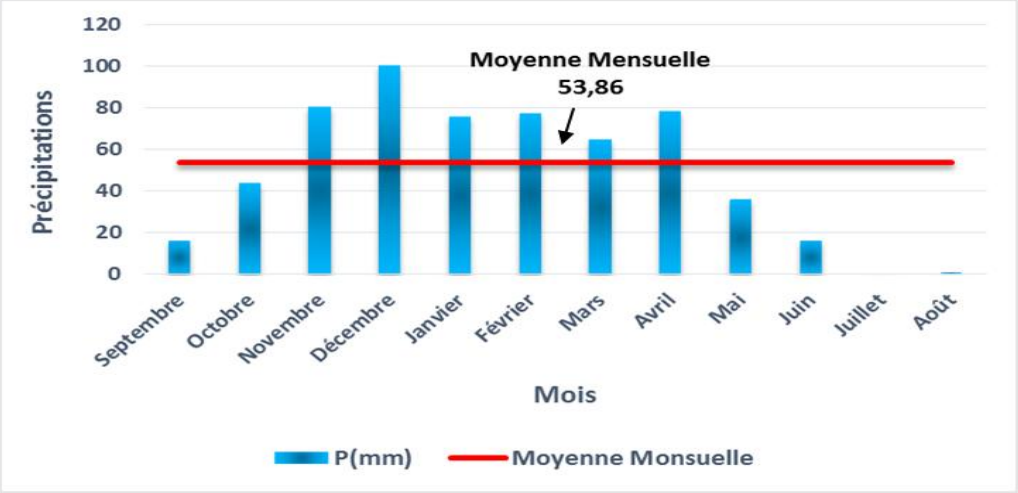

Figure 6: Régime annuelle des Précipitations, Station Tainaste (1973/1974 – 2005/2006).

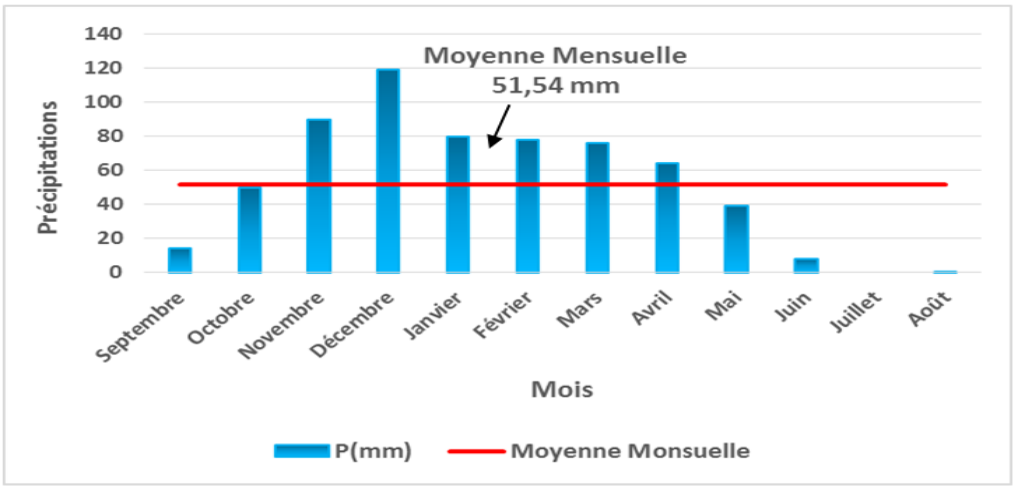

Figure7: Régime annuelle des Précipitations, Station Had Msila (1970/1971 – 2004/2005).

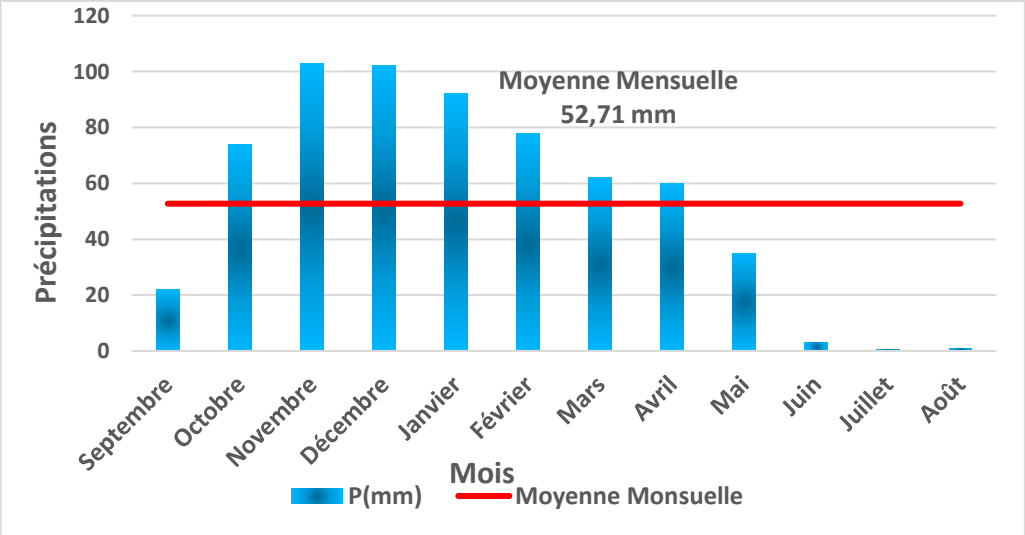

Figure 8: Régime annuelle des Précipitations, Station Bab Echoub (1992/1993 – 2013/2014).

4.3. Intensité et concentration des précipitations

À certaines périodes, les valeurs maximales des précipitations quotidiennes dépassent 100 mm/jour dans plusieurs stations, ce qui illustre l'intensité des périodes pluvieuses. Les orages surviennent souvent en automne et au printemps, avec des intensités parfois supérieures à 35 mm/heure. Un exemple notable; les pluies exceptionnelles du 27 juillet 1997 ont donné une intensité de 102 mm/h, (Tribak, 2000) ainsi que le cas du 27 septembre 2000, lorsque des pluies exceptionnelles d'origine orageuse ont provoqué des inondations impressionnantes. Les débits maximaux enregistrés étaient les suivants :

Tableau 2 : Les débits maximums des principaux Oueds prés de Taza au moment de la crue de 27/9/2000. (Service hydrologique)

Les Oueds :	Les débits :
Oued Larbaâ	1049 m³ / s
Oued Bouljraf	115 m³ / s
Oued Taza	129 m³ / s
Oued Lahdar	550 m³ / s
Oued Inaouene	1843 m³ / s

Ces crues ont été déclenchées par le contact de deux masses d'air différentes (chaude et humide contre froide et dense), ce qui a entraîné une perturbation atmosphérique majeure et un développement vertical du nuage atteignant une épaisseur de 13 kilomètres au-dessus de Tainaste. qui a provoqué des précipitations d'origine orageuse.

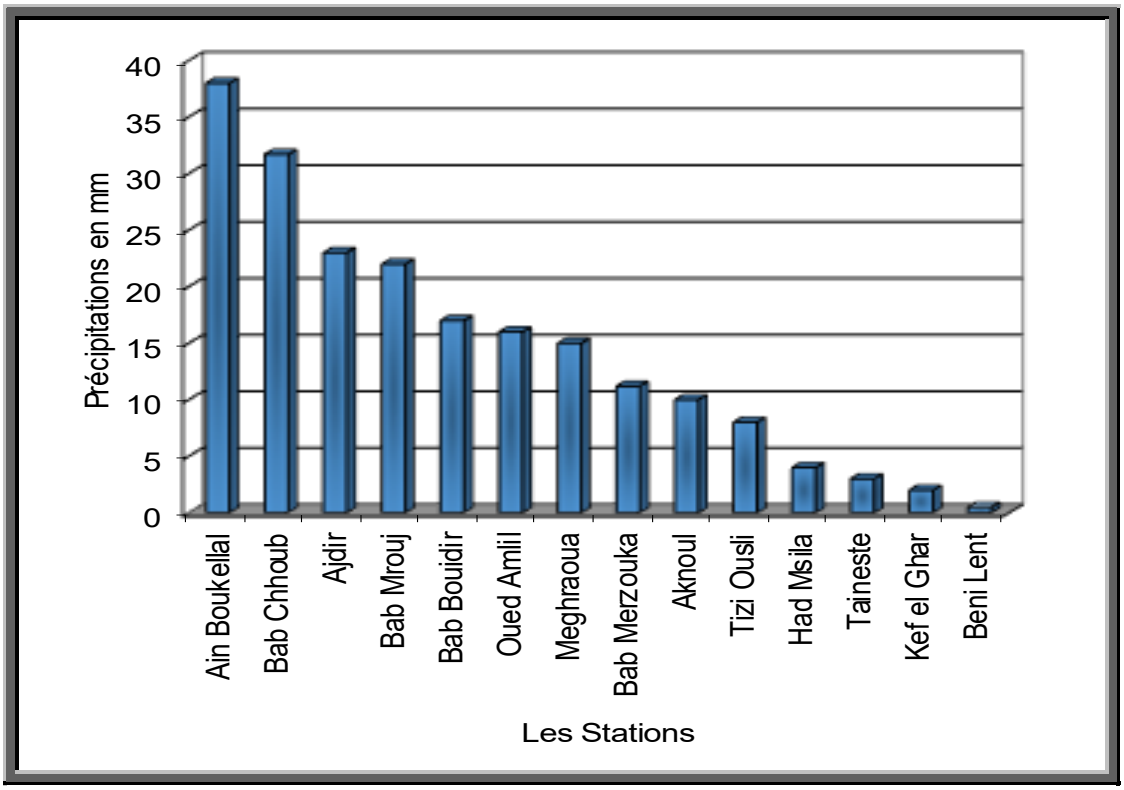

Figure 9: Répartition des précipitations du 27 septembre 2000.

4.4. Influence de la température sur la dynamique hydrologique :

Les données de la station de Taza (1960–1981) montrent une variation thermique annuelle supérieure à 20°C, avec une moyenne maximale en juillet (34,8°C) et une minimale en janvier (5,5°C). Cette grande variation augmente l'intensité de l'évaporation estivale et assèchement du sol, ce qui conduit à la formation d'une croûte à la surface du sol lors des premières pluies hivernales, réduisant ainsi l'infiltration et la perméabilité et favorisant l'écoulement superficielle. Par conséquent, les températures élevées, le déficit de couverture végétale et les formations argilo-marneuses contribuent à une réponse hydrologique forte, même pour des précipitations d'intensité moyenne.

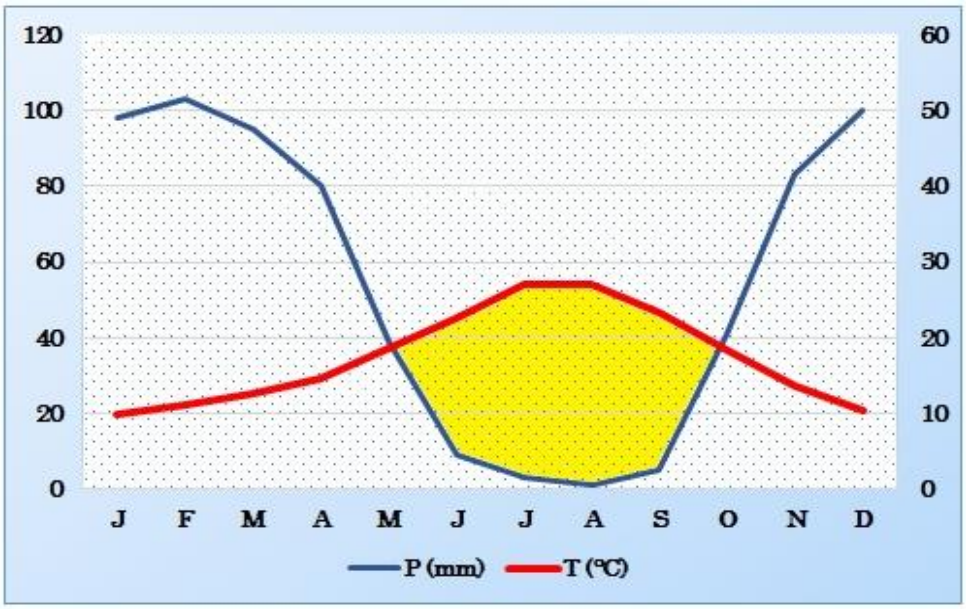

Figure 10: Diagramme Ombrothermique de la ville de Taza

5. Conclusion

La variabilité spatio-temporelle des précipitations dans le bassin de l'oued Lahdar reflète la complexité du climat prérifain et l'influence des facteurs topographiques. Les

précipitations y sont caractérisées par une irrégularité temporelle et une distribution inégale dans l'espace, ce qui accentue les risques d'inondation.

Les analyses montrent ce qui suit :

- Une intensité des précipitations élevée et une concentration saisonnière marquée en hiver.
- Des pluies orageuses abondantes avec des caractéristiques locales.
- Impact cruciale de l'exposition et de l'altitude.

De plus, le climat semi-aride saisonnier, caractérisé par une longue période de sécheresse et un hiver humide, entraîne une augmentation de la fragilité du sol. En été, l'intensité des températures provoque le dessèchement et la fissuration du sol, tandis que les premières pluies hivernales créent une croûte durcie qui limite l'infiltration. Ce phénomène augmente considérablement le coefficient de ruissellement, et donc le risque d'inondation.

Ainsi, la combinaison des variations pluvieuses et leur concentration saisonnière, également que les grandes variations thermiques, expliquent la fréquence et la violence des inondations dans la région.

Ces conditions climatiques, ainsi que la dégradation de la couverture végétale et l'imperméabilité des formations superficielles (sol argileuse), rendent le bassin de la vallée de l'Oued Lahdar particulièrement vulnérable aux phénomènes hydrologiques extrêmes. Une gestion intégrée, basée sur le reboisement, la conservation des sols et l'exploitation rationnelle des pentes des vallées, est nécessaire pour réduire les effets des futures inondations.

Références bibliographiques.

Castellani, C. (1986). Régionalisation des précipitations annuelles par la méthode de la régression linéaire simple: l'exemple des alpes du nord. *Rev. Geog. Alpine, Vol.* pp. 393–403.

Direction régionale de l'agriculture. (2011). Taza.

Label T. & Laborde P. (1988). A geostatistical approach for areal rainfall statistic assessment. *Stochast. hydrol. Hydraul.*pp 245-261.

Roche.M. Les processus du raisonnement chez l'hydrologue, Bulletin de la section Géographique. *Tome LXXX*, 1969 11 P.

Service hydrologique, 2001. Etude de délimitation du niveau des plus hautes eaux de l'Oued Taza (El Haddar), Ville de Taza. 13 P+annexes.

Tribak, A. (2000). L'érosion hydrique en moyenne montagne du prérif oriental (Maroc), Etude des agents et des processus d'érosion dans une zone de marnes Tertiaires. *Université chouaib Doukali.* , PP (1-73).

مجلـــة بـــــادر الدوليـــــة المحكـــــمة

ISLAMIC PSYCHOLOGY COLLEGE

العدد الثامن – أكتوبر 2025

Issue 8 – October 2025

مجلـــة بـــــادر الدوليـــــة المحكـــــمة

ISSN : 3023-6231